الچَبِيرة

رواية

باسم زكي

دار الكنزي للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

الكتاب : الجِبِيرة
تأليف : باسم زكي
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : إسلام مجاهد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٣ × ١٩
رقم الإيداع : ٢٠٤٧٩ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : 4 - 14 - 6660 - 977 - 978

جميع الحقوق محفوظة

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

إهداء خاص..

.. دعوة إلى الأمل ..

« لـكل مـن تصـل إليـه كلمـاتي .. لـكل إنسـان موهبتـه.. قد يسـتغرق زمنـاً لإكتشـاف تلـك الموهبـة.. فـإن لـم تكتشـفها للحـين فـلا يعـني ذلـك أنهـا ليسـت موجـودة ؛ أجتهـد في البحـث عـن موهبتـك.. إجعـل منهـا حلمـك .. أجتهـد مـن أجـل تحقيقـه.. مهمـا كانـت الصعوبـات والآلام والـتي قـد تـرى في وقتـاً مـا أنـهُ لا يشـعُر بهـا غـيرك!.. إيـاك وأن تسـتلم لليـأس.. فـلا تجعلـه يقـترب مـن بابـك.. ثـق ببموهبتـك وقدرتـك عـلى تحقيـق أحلامـك.. أتخـذ مـن الأمـل مصباحـاً يضـيئ دربـك.. أشـتد عـلى نفسـك في رحلتـك لتحقيـق أحلامـك.. فـلا لـذة للوصـول تـأتي إلا بعـد عنـاء وشـقاء طـول الرحلـة.. وعـلى قـدر الآلام فيهـا تـأتي السـعادة بالوصـول.. تفائـل» .

«الچَبِيرة . . هي مصفوفة من الطوب اللَبِن، في ظاهِرِها الخير والبِناء وفي قلبها . . جحيمٌ مُسْتَعَرّ» .

١

..صالة التحرير..

عـاد بظهـره للخلـف يتـكئ عـلى ظهـر كُرسيه حـتى يحظـى بقليـلٍ مـن الراحـة، بعـد أن انتهـى مـن كتابـة تحقيقـه الجديـد؛ هـو هـذا الشـاب طويـل القامـة.. صاحـب البـشرة قمحيـة اللـون.. والصحفـي الشـاب الـدؤوب عـلى عملـه بقـوة.. الوحيـد في حياتـه بعـد رحيـل والـده وقـد سـبقته والدتـه رحيـلًا، صاحـب رؤيـة مُغايـرة لكثـير مـن زملائـه؛ هـو دومًـا مـا يـرى أن الصحفـي لـم يكُـن يومًـا ناقـلًا خـبرًا.. إنمـا يـرى أنـه فنـان مُبـدع، دوره الأسـاسي والرئيـس حمايـة المُجتمـع والبحـث عـن الحقيقـة.. لذلـك يـكاد يكـون الابـن المُدلـل لرئيـس قسـم التحقيقـات بجريدتـه الخاصـة.. بالرغـم مـن أنـه يصغُـر هـذا الأربعيـني بعـشر سـنوات فقـط.. مـرّت اللحظـات تلـو الأخـرى حـتى حصـل عـلى قسـطٍ عابـرٍ مـن الراحـة؛ تلـك اللحظـات الـتي مـا أن انتهـت عكـف عـلى لملمـة أوراقـه الخارجـة مـن الطابعـة، بعـد أن أعـاد كتابـة تحقيقـه عـلى جهـاز الكمبيوتـر الخـاص بـه بغرفـة مكتبـه الصغـيرة.. انتفـض واقفًـا ليتجـه فـورًا إلى مكتـب رئيـس قسـم التحقيقـات ليُسلمه التحقيـق، إلا أنـه مـا أن خـرج مـن مكتبـه حـتى فـزع مـن الصدمـة.. فمـا تلـك الحالـة

الفوضوية التي ضربت الجريدة؛؟ لقد كانت هُنالك حالة من الهرولة والهرج بالطرقة الطويلة الواصلة لغرفتي رئيس التحقيقات وغرفة ((التحرير)).. استوقف أحد المُحررين وسأله في شغف: «هو في إيه؟»

أجابه في دهشة وذهول المُبتدئ في العمل الصحفي، وبدا خوفه جليًا من كِلماته المُتقطعة وهرولته ما أن ألقى كِلماته بصوته المُضطرب: «الأهالي قاطعين طريق الصعيد.. ومديرية أمن ((قنا)) مُحاصرة، رئيس التحرير في غرفة التحرير وطالب كُل المُحررين هناك» .

ألقى كِلماته الخطيرة وهرب باتجاه غرفة التحرير، فيما بقي سائِلُه مذهولًا للحظات في كِلمات هذا الشاب..

لم يكُن الأمر يحتاج أكثر من تلك اللحظات ليلحق بركب الهرولة والهرج في اتجاه غرفة التحرير؛ أَملًا في أن تكون لدى رئيس التحرير معلومات عما فجره هذا المُحرر الشاب في وجهه.. اندفع إلى داخل غرفة التحرير، وكانت الغرفة مُكتظة بالمُحررين والصحفيين وبعض من رؤساء الأقسام أيضًا، وكافة شاشات الغرفة تنقل من كافة القنوات والمواقع خبرًا عاجلًا بارزًا وهو مُحاصرة مديرية أمن ((قنا))، وقطع طريق الصعيد من محافظة قنا؛ ليعزلها وما تليها من مُحافظات عن باقي ربوع الجمهورية..

بحث فورًا بعينيه في الوجوه التي تملأ الغرفة عن وجهٍ مألوف، ولم يعثُر عليه في البداية، حتى أنصت الجميع لصوت تصفيقٍ حادٍ

تحضيريًا؛ لجذب الانتباه إلى صاحبه.. توجهت إلى مصدر الصوت كلُ الأعيُن الباحثة عن معلومة، كان صاحب التصفيق والوجه المألوف هو:((محمود الألفي)) رئيس قسم التحقيقات، وهو هذا الرجُل الأربعيني الذي لم يرَه مرةً واحدة في حياته يرتدي جاكيت بذلته إلا في رحلة قدومه ورحيله من مقر الجريدة، وبصوته المُرتفع كعادته وهامته المُرتفعة مثل قامته بدأ الحديث: «بعد إذنكُم الهدوء.. في البداية كدا احنا تأكدنا من صحة الخبر؛ فعلًا مديرية الأمن في ((قنا)) مُحاصرة، والصعيد كُله بيغلي، ولازم أأكد لُكم كم السلاح الكبيرالمتواجد هناك، المشكلة الحقيقية إن مفيش معلومات عن الأسباب ولا أي حاجة من هناك؛ تقريبًا كدا محافظة ((قنا)) في عُزلة تامة عن باقي الجمهورية» .

رفعت إحدى المُحررات يدها وصوتها لتُقاطع حديثه بقولها: «كلام حضرتك ده خطير جدًا.. وإزاي مفيش معلومات؟ والداخلية فين؟!»

رفع صوته بقوة أكبر، وعاد للحديث: «ما هو يا حضرتك تتكلمي يا أنا اللي أتكلم.. كُل المُحررين باقين هنا الليلة دي.. وفي بيان ضعيف صدر من الداخلية، وأنباء مؤكدة عن اجتماع لمجلس ((الشعب)) الصبح بخصوص الأمر.. المعلومات الموجودة كُلها هي: إن مدير أمن ((قنا)) كان في إجازة.. ونائب المدير هناك اتحرك بنفسه، وقبض على أُم عضو مجلس الشعب النائب ((محمد البنداري))» ..

وما أن نطق باسم النائب حتى ذهُل الجميع، ولم يكُن هو أيضًا أقل منهم ذهولًا، ولم يُرد أحدًا مُقاطعته؛ خاصةً بعد ما بدا من عصبيته في المُقاطعة الأولى، كما أنهُ لاحظ جيدًا ذهول الجميع، عاد فورًا للحديث: «أنا عارف إنكم مذهولين.. طبعًا ده شاب، وأصغر نائب في البرلمان.. وكمان ((كَبِير)) أكبر قبيلة في قبائل الصعيد وأعرقها.. و طبعًا كُلكُم بتسألوا إزاي؟! خصوصًا وهو لسه منفذ مُبادرة تسليم سلاح من الصعيد، وكان فيها وزير الداخلية بنفسه، واحنا هنا في الجريدة غطينا المُبادرة بشكل كامل.. وأكيد الكُل بيسأل إزاي واحد سلم أكثر من ثلاث آلاف قطعة سلاح يتم القبض على أمه في قضية حيازة سلاح؟! .. طبعًا في حاجة مُريبة في الحكاية؛ وعشان كدا أنا قررت أبعت الأستاذ ((علي حسين)) هناك فورًا» .

بمجرد أن أنهى كلِماته، أصابت هذا اللاحق بركب الهرولة مُتأخرًا حالة من الدهشة والسعادة والخوف، كانت جميعها تذوب في كأسٍ واحد جرّعهُ له ((الألفي))، ولا يعلم كيف علِم بمكانه من بين هذا الزحام بغرفة التحرير، حينما أشار إليه بسبابته وأردف: «طبعًا كُلكُم عارفين إن ((علي)) هو اللي كان بيغطي مُبادرة تسليم السلاح لذات النائب من أسبوعين تقريبًا؛ ولنفس السبب أنا قررت إن هو اللي يُجري التحقيق هناك.. بالتأكيد هو ليه هناك مصادره، ويعرف الناس اللي مُمكن تساعده يوصل للمعلومات، ويمدنا بيها بشكل فوري.. ودلوقتي كُل واحد عرف دوره ومش باقي غير التنفيذ» .

أنهى حديثه وعاد للتصفيق بيده، وهو يُشير بانصراف الجميع، بدأ الجميع في الانصراف فيما تصلب ((علي)) في مكانه قُرب باب غرفة التحرير، وهو يسمع كلِمات التشجيع والحسد أحيانًا والربت على أكتافه من كُل من يُغادر الغرفة، وكانت كلِماتهم بين ((ربنا معاك.. بالتوفيق.. انت قدها.. أيوه يا عم.. يا بخت من كان رئيس القسم بيحبه.. مكتوبالك.. صحفي الصعيد.. بالتوفيق))..

ظاهريًا كان يتصنع ويدعي الصدمة والذهول من القرار بإرساله في خضم معركة؛ إن قامت لن تكون فيها لغةٌ إلا لغة الرصاص والدماء؛ إلا أنه في داخله كان يكاد يطير فرحًا بالقرار، وتذكر حينما طلب من ((محمود الألفي)) بعد عودته من تغطية مُبادرة تسليم السلاح هُناك أن يعود ليُجري تحقيقًا ثانيًا، لم يكُن يعلم أن رغبته سوف تُلبى بتلك السرعة والقوة..

انتزعه من حالته ومكانه إشارة ((الألفي)) وقوله وهو يغادرغرفة التحرير: «تعالى على مكتبي فورًا!» .

تبعه في لهفة طفل يسعى خلف أمه لمعرفة هديتها له التي تُخفيها بغرفتها، وسعادته حينما أخبرته أن يحضر لغرفتها.. لم يتأكد الطفل من أنهُ سوف يحصُل على لعبته، ولكنها آماله هي ما تقوده للسعادة..

كانت تلك حالة ((علي)) وهو يتبع رئيسه إلى مكتبه، تقوده اللهفة والفرحة لاكتشاف ما يُخفيه له في مكتبه، أيًا كان ما يُخفيه

نعمةً أو نقمة.. فبالتأكيد هو أمرٌ كبير؛ وإلا لكان أخبره به أمام جمع الصحفيين بغرفة التحرير..

انتهت رحلة الوصول إلى مكتبه سريعًا، ودلفَا إلى داخل مكتب ((الألفي))، وما أن جلس على مكتبه بادره بالحديث وعيناه تراقبه بقوة: «طبعًا انت أكتر واحد في الدنيا فرحان باللي بيحصل هناك!»

أكمل تمثيليته وتصنُعه بإجابته:

- «ليه بتقول كدا؟ هو أنا مُمكن أفرح في أي أذى للناس؟!»

هز رأسه نفيًا وعاد للحديث:

- «انت فهمت إيه من كلامي؟ يا ابني أنا قصدي إنك هتعمل التحقيق اللي نفسك فيه؛ وكمان الدنيا كُلها متابعه الحكاية.. وطبعًا لازم يُصيبك كثير من الإشادة؛ لأنك المصدرالوحيد للأخبار» .

جلس على الكرسي أمام مكتبه وهز رأسه قبولًا ثم أردف:

- «أنا معاك إني كان نفسي في تحقيق تاني هناك.. لكن بصراحة مش في مُحاصرة مديرية الأمن، وقطع الطريق.. وعلى حد كلامك فهمت منه إن الصعيد بيغلي.. وأفتكر إن أنا قولتلك كدا أول ما رجعت من هناك من أسبوعين، وقولتلك ساعتها إن الهدوء اللي هناك ده.. هو الهدوء اللي بيسبق العاصفة، وأهو حصل!»

- «عنـدك حـق، وعشـان كـدا أنـا رشـحتك مخصـوص؛ لأني مُتأكـد إنـك هتوصـل لحاجـة لا يُمكـن حـد غـيرك يوصلهـا.. المهـم دلوقـتي إنـك لازم تفهـم إني محتـاج معلومـات قبـل اجتمـاع مجلـس ((الشـعب)) الصبـح.. السـاعة دلوقـتي خمسـة مسـاءً.. قبـل الظهـر بكـرا لازم يكـون عندنـا موضوعـك، وفي خـلال الوقـت ده خليـك عـلى اتصـال دائـم معايـا.. وتعرفـني الأخبـار أول بـأول.. وهـي فرصـة» .

- «فرصة لإيه بالظبط؟!»

رمقـه بنظـرة قويـة تحدوهـا الدهشـة مـن سـؤاله وأردف: «تقابـل الراجـل الـلي كلمتـني عنـه» .

اتسعت عيناه وأردف:

- « تقصد سيدي ((عابد))؟!» .

- «طبعًـا.. مُـش انـت بتقـول إن أكـبر قـادة الأمـن والعائـلات هنـاك بتحترمـه؟ يبقـى أكيـد هـو الـلي عنـده الحـل» .

اتقدت حماسته في عروقه وانتفض واقفًا، وألقى كلِماته في عجلة:

- «يبقى لازم أتحرك فورًا.. ادعيلي بالتوفيق» .

- «ربنا معاك ويوفقك» .

***

٢

دفعتـهُ حماسـته وشـغفه إلى سـيارته بأسـفل مقـر الجريـدة، وفي خـلال لحظـاتٍ معـدودة وجـد نفسـه بداخـل سيارته.. وضـع هاتفـه المحمـول عـلى شـاحن السـيارة يُطعمـه جرعـة مـن الطاقـة بعـد أن صرخ جائعًـا، حـتى أنـه كاد يفقـد وعيـه..

نظـر إلى الكـرسي الأمامـي بجـواره، وكانـت عليـه حقيبتـه، الـتي تحـوي الـلاب تـوب الخـاص بـه.. أدار مُحـرك السـيارة، وأدار معـه مُحـرك ذاكرتـه، وبـدأ يتذكـر حينمـا وصـل بسـيارته تلـك إلى مبـنى مُديريـة أمـن ((قنـا)) مُنـذُ أسـبوعين في تحقيقـه الأول هنـاك..

وصـل إلى مبـنى المديريـة بعـد أن حصـل عـلى نـومٍ مُتقطـعٍ في أحـد فنـادق المُحافظـة، كان قـد وصـل إلى مبـنى المديريـة باكـرًا في تمـام السـابعة صباحًـا تقريبًـا، مثلـهُ مثـل كثـيرٍ مـن الصحفيـين والمراسـلين الحاضريـن لتغطيـة مُبـادرة النائـب ((محمـد البنـداري))، الـتي أطلقهـا عـلى شاشـات التليفزيـون..

إلا أنـه أراد أن يحصُـل عـلى معلومـات دقيقـة وقصـة إخباريـة مُمـيزة؛ فمـا يُمـيز الصحفـي في رأيـه.. طريقـة تغطيتـه للأحـداث، والزاويـة الدقيقـة الـتي سـوف يـرى منهـا الخـبر؛ لذلـك تحـرك في اتجـاهٍ

مُغايـرٍ باحثًـا عـن الإبـداع والحقيقـة؛ فلـم يتجـه إلى داخـل جـدران المديريـة.. بـل اتجـه إلى آراء النـاس في الطريـق والمحـال التجاريـة حـول المديريـة، مُحـاولًا اكتشـاف شـخصية هـذا النائـب وتاريخـه..

قادتـه الحركـة إلى أحـد المحـال الـتي تبيـع الأقمشـة، وكان صاحبـه رجـلًا كريمًـا للغايـة.. مـا أن دلـف إلى داخـل المحـل حـتى رحـب بـه بقـوة، وببشرتـه السـمراء المصبوغـة بلـون النيـل، وتجاعيـد الشـقاء الـتي حفرهـا الزمـن والحُـزن والتجـارب عـلى جبهتـه.. أجلسـهُ أمامـه وأصرعلى إحضـار مـا يشربـه بقـوة، هـي عـادة أهـل الصعيـد، ويعـرف هـذا الأمـر لديهـم بـ((واجـب الضيافـة))، وأمـام إصراره رضـخ وأذعن لـه، وكان طلبـه هـو الشـاي.. بـادر بسـؤاله: «قـولي يـا حـاج هـو اسـم حضرتـك إيـه؟»

بنـبرة تملؤهـا القـوة والرفـق أجابـه: «أنـا يـا ابـني عمك ((صـلاح))» .

ــ «انت قديم هنا يا حاج ((صلاح))؟»

ابتسـم بقـوة وظهـرت أسـنانه البيضـاء المُضيئـة وأردف: «يـا ولـدي أنـا هنـا مـن أكـتر مـن أربعـين سـنة، وسـني سـتين سـنة» .

اندهـش مـن عُمـره وعـاد للسـؤال: «سـتين سـنة.. مـا شـاء اللهّ؛ لكـن حضرتـك شـكلك أصغـر!» .

ــ «لا يـا ولـدي الحكايـة كُلهـا إننـا هنـا بنشـم هـوا نضيـف وأكل نضيـف، مـش زيكُـم في مـصر» .

ـ «مُمكـن.. أنـا بصراحـة كُنـت عايـز أعـرف مـين هـو ((محمـد البنـداري))؟ وإيـه حكايـة تسـليم السـلاح دي؟ واشـمعنا دلوقـتي؟؟» .

تعالـت ضحكاتـه بقـوة واسـتطرد: «يـا ولـدي انـت مـا شـاء الله عليـك شـكلك مـصراوي.. طويـل وشـكلك سِـمح، راجـل زي الفـل يعـني.. إيـه الـلي وقعـك في سـكة ((البنـداري))؟» .

لـم يفهـم كلِمات الرجُل تمامًـا، وما علاقة هيئته وكونـه من العاصمة بسـؤاله، وعـاد لسـؤاله مُجـددًا: «ليـه بتقول كـدا يا عم ((صـلاح))؟؟» .

ربـت بقـوة عـلى كتفـه واقـترب منـه هامسًـا:» البندارية ((واعرين)) عليـك يـا ولـدي!» .

لـم يتفهـم كلِماتـه ولا معانيـه، وبـدا لـه أنـهُ سـوف يواجـه صعوبـة بالغـة كُلمـا قابـل تلـك الطلاسـم الصعيديـة، والـتي بالتأكيـد سـوف يُقابلهـا كثـيرًا في تغطيتـه لتلـك الأحـداث هنـاك.. فعـاد للحديـث مُجـددًا: «بالراحـة عليـا يـا عـم ((صـلاح)).. عشـان أفهمـك.. يعـني إيـه ((واعريـن))؟» .

تفهـم أنـهُ لـم يفهـم لهجتـه؛ فحـاول تبسـيط الأمـر بقولـه: «يعـني يـا ولـدي نـاس شـديدة عليـك.. والتفاهـم معاهـم صعـب» .

ـ «ليه يا عم ((صلاح))؟ يعني هما مُش كويسين؟» .

اتسـعت عينـاه وبـدا غضبـه جليًـا وأردف بقـوة: «لأ يـا ولـدي.. مـين الـلي قـال إن البنداريـة كـدا.. يـا ولـدي البنداريـة لا بيحبـوا الأغـراب ولا

كُـتر السـؤال؛ لكـن همـا نـاس ((أجاويـد)) أشراف.. وكَبيرهُـم دلوقـتي ((محمـد البنـداري))» .

بالـكاد تفهّـم كلِمـات الرجُـل، وجاهـد في فـك طلاسـم اللهجـة الصعيديـة، الـتي يتبدل فيها حرف ((ق)) تمامًـا ويحل محله حرف ((خ))، وأحيانًـا إذا ابتـدأت بـه الكلمة أو انتهت يُحول إلى حـرف ((ج)).. كما فهم أن لفـظ ((أجاويـد)) بالجيـم المُعطشـة، وهـي أيضًـا أحد الأحـرف التي حلـت محـل حـرف ((ج))، ويقصـد باللفـظ أنهـم أهـل كـرمٍ وفطنـة..

هـي مجموعـة شـفَرات يجـب عـلى الباحـث عـن أي شيءٍ هنـا أن يُدركهـا تمامًـا.. كمـا أنـه فهـم مـن حديـث الرجُـل أن لـه خوفًـا كبـيرًا.. إمـا مـن شـابٍ يحـلُ ضيفًـا عليـه.. وإمـا عـلى ذاتـه..

بـدا لـه أن عائلـة ((البنـداري)) ذات بـأسٍ وقـوةٍ كبـيرة في الصعيـد كُلـه، ولكـن كيـف يجعـل هـذا الرجـل يُخـرج مـا يُريـده ومـا يُخفيـه! والقاعـدة الأساسـية الـتي يجـب أن تتبعهـا دومًـا مـع أهـل الصعيـد هي الصـدق.. وإيـاك أن تتلاعـب بطيبتهـم وعفويتهـم، الـتي قـد تتبـدل في أقـل مـن لحظـات لبطـشٍ قـد يـوُدي بحياتـك إن شـعر أحدهُـم أنـك تسـتخف بـه، أو تُسـفه حديثـه..

بعد قليلٍ من التفكير عاد للحديث:

«الظاهـر يـا عـم ((صـلاح)) حضرتـك فهمتـني غلـط.. أنـا صحفـي، وأنـا هنـا عشـان أكتـب موضـوع عـن ((محمـد البنـداري))، وأتكلـم فيـه عـن أهـل الصعيـد.. وأنـا غريـب، وقولـت أكيـد حضرتـك

هتساعدني أعرف مين هم الناس اللي مفروض أكتب عنهم..

يا حاج ((صلاح)) الصحفي إذا كان جاهل بالحقيقة مُمكن يحول الشيطان لملاك، والملاك لشيطان.. وأنا محتاج مُساعدتك في الوصول للحقيقة دي» .

وضع ذقنه بين سبابته وإبهامه وهز رأسه وكأنه يُقلب الفكرة في رأسه، ثم انتصب واقفًا، وتوجه إلى باب محله وشبك أصابع يديه خلف ظهره..

وبدا له هذا الرجُل بجلبابه وعمامته البيضاء ووقفته القوية أنه ما أن يعود إليه سوف يفتح خزائن أسراره؛ فلقد استثار بداخله الحماسة بالدرجة التي لن تجعله يلتزم الصمت.. إن الصدق دائمًا أقوى طُرق الإقناع.

وما هي إلا لحظات.. حتى استدار إليه برأسه وكانت الابتسامة الصافية تملأ وجهه، وتُبدد كافة تجاعيد جبهته وعبوسها، ثم عاد ليجلس أمامه وأردف: «عِندك حق يا ولدي.. الساكت عن الحق شيطان أخرس؛ أنا هحكيلك كُل حاجة.. لكن مُش تسألني الأول أنا مين؟» .

ـ «تقصد إيه؟ حضرتك عم ((صلاح))، مُش قولت إن ده اسمك؟!» .

ـ «صح يا ولدي.. أنا اسمي صلاح البنداري» .

اتسعت حدقتا عينه، وابتلع ريقه بصعوبةٍ من الصدمة، وأردف: «((البنداري))؟» .

ــ «أيـوه يـا ولـدي أنـا عـمّ ((محمـد البنـداري)) الـلي انـت هنـا عشـانه» .

أذهلتـه الصدمـة بشـكلٍ كامـل.. حقًّـا أقـوى تحقيقـات الصحفـي قـد تـأتي صُدفـة؛ إلا أنهـا صدفـة ناجمـة عـن مجهـود وتفكـير سـليم.. إذا كان قـد اتخـذ نفـس طريـق زملائـه في البحـث داخـل جـدران مديريـة الأمـن؛ فمـا كان ليلتقـي هـذا الرجُـل، الـذي بالتأكيـد لديـه خزائـن مـن الأسرار..

إلا أن مـا يُدهشـه هـو هجومـه عـلى عائلتـه في البدايـة، وتحذيراتـه لـه مـن الاقـتراب مـن عائلتـه؛ ولذلـك كان سـؤالهُ لـه هـو: «طيـب ليـه حضرتـك نصحتـني أبعـد عـن الموضـوع؟ وشـعرت مـن كلامـك إن في سر كبـير وخـوف أكـبر.. مُمكـن افهـم إيـه السـبب؟» .

ــ «اسـمع يـا ولـدي.. أنـا صحيـح مصـدق كلامـك؛ وعشـان كـدا قولتلـك أنـا مـين.. لكـن خليـك فاكـر إني نَصحتـك تبعـد عـن ((البنداريـة))» .

ــ «انت خايف من إيه ولا على إيه؟»

ــ «عليـك يـا ولـدي.. أنـا ربنـا لـم يرزقـني غـير ببنـت واحـدة.. ومُـش عـارف ليـه اتمنيـت إنـك تكـون ابـني أول لمـا شـفتك» .

ــ «طبعًـا ده شرف كبير أوي ليا يـا عـم صـلاح، لكـن مُمكـن تقـولي بقـى خايـف عـلى ابنـك مـن إيـه؟» .

سحب نفسًا عميقًا، وهز رأسه التي تعلوها عمامته البيضاء الكبيرة، ولمح الخوف في تلك الأعيُن السوداء.. تلك القامة والجسد القوي والجبهة العريضة لم تكُن لتُخفي خوفه.. استمر في زفره لأنفاسه وصمته كأنه يُقلب الأمر في رأسه لآخر مرة، ويتأكد من اختياره أن يقبل فتح خزائن أسراره.. زفربقوة ثم أردف:

ـ «من النار.. يا ولدي» .

ـ «يعني إيه؟»

ـ «يا ولدي اللي انت هنا عشانه مُش من (طريق ونص)» .

عاقب جبهته بضربة خفيفة من راحة يده عليها لجهلها وأردف: «يا عم صلاح.. بالراحة عليا.. يعني إيه ((طريق ونص))؟»

ـ «يعني يا ولدي مفيش حاجة من غير سبب» .

أمسك بيده وظفر بقوله صارخًا: «هو ده اللي بسأل عليه! إيه السبب في إن واحد كبيرعائلة يسلم سلاح عائلته، ويقود عائلات الصعيد لتسليم السلاح؟» .

رفع رأسه لأعلى، ونظر باتجاه السماء واستطرد: «سيدي ((عابد)).. هو السبب والسر والمفتاح لكُل اللي بتسأل عنه» .

نظر له مشدوهًا، ودارت برأسه فكرة واحدة.. من عساه يكون هذا الرجُل الذي استطاع أن يدفع هذا الشاب وعائلته وعائلات أخرى لذلك الأمر؛ ولذلك كان سؤاله:

ــ «مين ((عابد)) يا عم صلاح؟» .

دق علـى يـده برفـق وهـو يرمقـه بنظـرةٍ تحذيريـة قويـة، وبنـبرةٍ لـم تكُـن أقـل قـوةٍ مـن نظرتـه أردف:

ــ «سـيدي ((عابـد الرحمـن العـدوي)).. لازم يتقـال قبـل اسـمه ((سـيدي)) أو ((جـدي))» .

ــ «أنـا آسـف مُـش قصـدي.. لكن هـو مـين سـيدي ((عابـد))؟ وإزاي هـو السـبب والمفتـاح لـكُل الـلي بيحصـل هنـا؟» .

ــ «دي بقـى حكايـة ترجـع لأكـتر مـن ثلاثـين سـنة، لكـن هـو انـت عنـدك وقـت تسـمع؟» .

فتح ذراعيه كمن يتلقف حبيبته وأجابه:

ــ «أكيـد.. هـو أنـا ليـه هنـا أصـلًا إذا كُنـت مُـش هسـمع!» .

عـاد بظهـره للخلـف يتـكئ عـلى ظهـر كُرسـيه الخشـبي، وشرد قليـلًا وهـو يُحـاول أن يتذكـر ضربـة البداية المُناسـبة، الـتي سـوف يُطلق منها عنـان حديـثٍ مخنـوقٍ مسـجونٍ بداخلـه.. في خزائـن أسراره بجُدرانهـا السـميكة مُحكمـة الغلـق عـلى مـا بداخلهـا مـن جحيـمٍ مُسـتعر..

استمر الأمـر للحظـات، مـرت وكأنهـا أعـوامٌ عـلى الرجُـل مـن أثـر زفـيره القـوي الخـارج مـن فمـه.. وأخـيرًا، بـدأ الحكايـة..

***

٣

جزيرة البندارية.. ١٩٧٦..

((الجزيـرة)).. هـي قريـة كبـيرة بمحافظـة سـوهاج، لا تحدوهـا المياه مـن كافة جوانبهـا؛ وإنما هـي قريـة مُطلـة عـلى نهـر النيـل مـن جانـبٍ واحـدٍ فقـط.. واكتسبت اسمها نتيجـة عُزلتهـا؛ فهـي لا يقطنهـا ولا يملـك فيهـا شـبرًا سـوى ((البنداريـة))، ولا يُسـمح لأي شـخصٍ غريـبٍ عنهـم بالاقـتراب منهـم أو بالحيـاة بينهـم..

وبـدأ الـصراع في تلـك الجزيـرة مـن ليلـةٍ.. كانـت ليلـة قارصـة الـبرودة، والريـاح فيهـا تحمـل سـقيعًا قارصًـا يـكاد يخلـعُ الـزرع مـن تربتـه..

كُنـت أجلـس وأمامـي ((عبـد التـواب)) نحـرُس ((الجَبـيرة))، وعـلى كتـف كُلٍ منّـا بندقيـةٍ آليـة، تركهمـا لنـا ((محمـود)) ابـن عمنـا الـثري، وابـن صاحـب الأرض الـتي نعمـل بهـا، وصاحـب تلـك الجَبـيرة الـتي لا يُمكـن أن تنطفـئ النـار بداخلهـا.. هـذه النـيران هـي مـا كانـت تُشـعرنا بالـدفء في تلـك الليلـة بالرغـم مـن خفـة جلبـاب كلٍ منّـا، والأدق هـو أني وابـن عمـي لـم يكُـن يملـك أحدنـا شـيئًا سـوى جلبابـه الـذي يغطـي بـه جسـده..

وما أن سمعت صوت غليان الماء بداخل البراد على نيران الحطب الموقدة وأنا جالسٌ أمامها؛ أمسكت البراد الساخن بطرف جلبابي وقُمت بصب كوبين من الشاي المغلي، وحملت الكوبين وتحركت قليلًا باتجاه ((الجَبيرة)).. وكان ابن عمي على عادته في كُل ليلة يقف أمام ((الجبيرة))، وهي مجموعة من الطوب المعجون من الطمي النقي الذي تلفظه الأرض الزراعية، ويكون زائدًا عن حاجتها.. ويتم تشكيله على شكل أحجار بناء ويتم رصها بدقة على شكل برج حمام مستديراً أو مبنى مربعاً او مستطيلاً مُغلق تماماً بحيث لا يُسمح له بأن يدخله أي مصدرا للرياح إلا من خلال فتحات صغيرة من أسفلها.. يتم من خلالها دفع الحطب لملء الفراغ بداخل الجَبيرة، ويتم من تلك الفتحات إشعال النار وإزكائها بلا انقطاع على مدارأيامٍ مُستمرة؛ حتى يتم حرق هذه الأحجار وتُصبح جاهزة للبناء..

وهنالك سببان لحراستنا لها.. الأول ألّا نسمح بضعف النيران بداخلها ونُزكيها دائمًا، والثاني هو ألّا نسمح لأي ((امرأة)) أن تقترب منها؛ فما يعتقده الجميع هنا هو إذا كانت امرأةٌ لا تُنجب.. ما أن تدور حول ((الجَبيرة))؛ إلا وتحمل.. فنمنع النساء من هذا الأمر؛ لأنه إذا أكملت المرأة دورتها حول الجَبيرة فإنها تنهار، ويضيع المجهود كُله هباء..

تلك هي ((الجَبيرة)) التي كُلما وقف أمامها ((عبد التواب)) شرد كثيرًا، ولم أعلم يومًا ما سبب شروده ذلك.. وكانت الليلة ما تزال

في بدايتها ولم نصل لمنتصف الليل إلا مُنذُ قليل، فرفعت صوتي قائلًا:

ـــ «نفسي أعرف حاجة واحدة.. إيه اللي في الجَبيرة عاجبك أوي كدا؟» .

استدار إليّ ابن عمي، فهو طويل القامة ذو البشرة الفاتحة، التي تُميزه عن كُل بنداري في جزيرة البندارية وبوجهه الطويل.. أمسك كوب الشاي وسحب رشفته الأولى، وبقوته التي يعلمها كُل بنداري أردف:

ـــ «النار اللي جواي يا ((صلاح)) تاكُل الجبيرة دي.. بنارها الوالعة» .

ـــ «ليه يا ابن عمي! قولي إيه اللي واجعك.. لا أنا ولا انت حد فينا وعي على أمه ولا أبوه.. ومن يوم ما طلعنا للدنيا.. كتفي في كتفك.. قولي اللي فيك أنا أخوك» .

هربت منه ابتسامة على وجهه وربت على كتفي وأردف:

ـــ «أيوه يا ((صلاح)) لا أنا ليا غيرك ولا انت لك غيري.. وهو ده اللي تاعبني وحارق قلبي.. شوف يا صلاح..» ...

وضع ذراعه على كتفي وأشار بيده في نصف دائرة على الأرض الزراعية الكبيرة، التي يملكها عمنا وأعمامنا من البندارية، وأنهى إشارته بسبابته على الجَبيرة وأردف:

ــ «كُل الخير ده إحنا اللي تعبانين فيه.. وفي الآخر مفيش حيلتنا غير الجلاليب اللي علينا!»

أنهى حديثه وهو يزفر بقوة، ويطبق بقبضته على صدره يكاد يخلع قلبه بقبضته.

ــ «يا ابن عمي قول الحمد لله.. وبعدين انت بنداري، إزاي تقول كدا.. ده البلد كُلها بتاعتنا» .

سخر قائلًا: «البلد بتاعتنا؟ وبنداري؟ البلد دي بتاعت أصحابها مُش إحنا.. والبندارية دول اللي بتتكلم عليهم ناس ظالمة؛ قولي فين حق أبويه وأبوك وأمي وأمك لما البيت اللي حيلتهم وقع عليهم.. وطول عمرهم بيخدموا في ملك البندارية.. عمك ((محمد)) صاحب الأرض اللي إحنا فيها دي شقيق أبويه وأبوك؛ كُل شهر بيطلع جَبيرة تبني بيت.. عُمره فكر يبني بيت إخواته اللي ماتوا؟! يا أخي لو كانوا اللي ماتوا ناس وحشة.. طيب عشان ولادهم اللي شغالين في ملكك ليل نهار زي العبيد.. وتقولي البندارية؟!»

أنهى حديثه المُر وبصق بقوة، ثم استدار إليّ وكأن المسحور تلبسه وصرخ:

ــ «والله لنعيش ليوم.. أدوس برجلي على رقبة كُل اللي ظلمونا.. وأولهم عمك وأولاده» .

((المسـحور)) هــي إحــدى القصــص التراثيــة في الصعيــد مثــل ((الجَبـيرة))، وتـدور حــول غريـقٍ تسـكُن روحـه الميـاه ويُغـرق كُل مـن يـنزل للميـاه..

إلا أن ابن عمي لـم يكُـن في المياه ليتلبسه المسـحور؛ وإنمـا كان في النـار يُدبـر للمسـحور ذاتـه شره.. حقًّـا كُل مـا قالـه هـو مـا بداخـلي، ولكـن مـا الـذي نملكـه أو نسـتطيع فعلـه..! ولذلـك حاولـت تهدئـة النـيران المُشـتعلة بداخلـه بقـولي:

ــ «كُل كلامـك صـح.. لكـن انـت عـارف مـا باليـد حيلـة، وأنـا معـاك في أي حاجـة كتفـي بكتفـك.. ولـو حـتى نـنزل للمسـحور البحـر» .

ربت على كتفي بيديه وصرخ بقوة:

ــ «وحيـاة الليـالي الطويلـة الـلي دوقنـا فيهـا المُـر.. مـا يرتـاح بـالي ولا يهـدى قلـبي إلا لمـا نكـون كُبـار البنداريـة كُلهـا» .

انتزعني من بين يديه ضعف النار بداخل ((الجَبيرة))؛ لأصرخ:

ــ «قعدنا نتكلم ونسينا الجَبيرة!»

ألقيـت كلمـاتي وهرولـت لإزكاء نيرانهـا عـبر الفتحـات مـن أسـفلها بالحطـب، وعُدنـا لننهمـك بعملنـا حـتى إشراق الشـمس، والـتي مـا أن أشرقـت حـتى وصـل إلى الأرض والجَبـيرة عمـي ((محمـد))، ومعـه ((محمـود)) ابنـه الأكـبر ابـن الثمانيـة عـشر عامًـا، وهـو مـن سـني تمامًـا، ويكبُرنـا ((عبـد التـواب)) بعامـين فقـط..

واقـترب منـا بعبائتـه وجلبابـه الصـوف وعمامتـه البيضـاء الكبـيرة، وهـي رمـز البنداريـة بطياتهـا المُسـتديرة، وتوقـف أمامنـا وبـادر بقوله:

ـ «في حاجه حصلت بالليل ولا حاجة؟» .

أجبته مُسرعًا خوفًا من صمت ((عبد التواب)) بقولي:

ـ «لأ يا عمي.. كُله تمام» .

ـ «يـا ((محمـود)) خدهـم عـلى البيـت عشـان يُفطـروا وينامـوا في الزريبـة للظهـر» .

ـ «إحنـا فطرنـا يـا عمي.. وخـلاص بقـى حكايـة النـوم في الزريبة دي خلصـت؛ النهـاردة أنـا و ((صـلاح)) هنبـني خُص مـكان بيتنـا القديم» .

تعالت ضحكاته الساخرة وأردف:

ـ «النـوم في الزريبـة خلـص! اسـتكبرت يـا ابـن ((عمـران)) وعايـز تبـني بيتكُـم!» .

أجابه بقوةٍ وتحدٍ أكبر:

ـ «ومـن النهـاردة كمـان تربُطلنـا يوميـة.. ومُـش لازمنـا أكل في بيتـك تاني» .

ـ «وإيه كمان يا ابن عمران؟»

تدخـل ((محمـود)) ليُنهـي الأمـر الـذي كاد ينفجـر، خاصـةً وهـو ذو مكانـة في قلبنـا ويشـاوره أبيـه في كُل أمـر؛ فقاطـع الحديـث بقولـه:

ـــ «ولاد عمي مُش قصدهم حاجة.. لكن هما كبروا يا حاج، ومن حقهم علينا نقف معاهم» .

أشار عمي بسبابته إلى ((عبد التواب)) وأردف:

ـــ «ابن عمك ده قلبه أسود زي أبوه.. إديه اللي يطلبه.. وخاف منه يا ولدي؛ موتنا كُلنا على يدُه» .

ألقى كلِماته.. ومضى يلعن اليوم الذي التقانا فيه، والذي التقى فيه أبوينا، ويلعن الأيام.. وما أن ابتعد، اقتربت من ((عبد التواب)) مشدوهًا من قوته:

ـ «إيه ده.. عُمري ما شفت حد اتكلم مع عمك كدا!!»

صرخ فيّ قائلًا:

ـ «حقنا وبنطالب بيه؛ كفرنا؟؟ ولا عمك ربنا الأعلى؟!» .

صدمتني قوة إجابته ودفعتني للصمت تمامًا، فيما اقترب منا ((محمود)) وربت على أكتافنا بذراعيه تُطوقنا، وأردف:

ـــ «والله يا ولاد عمي ما بيدي أي حاجة.. ووالله انتوا أعز عليّا من اخواتي؛ وكُل اللي تطلبوه أعمله على رقبتي» .

هدأت بكلِماته الجوارح المُنتفضة وأجابه ((عبد التواب)):

ـــ «عارف يا ابن عمي إنك بتحبنا.. لكن اسمع كلام أبوك وخاف مني أنا قلبي أسود.. وحقي فاكره وهاخده» .

ـــ «يا عم أنا راضي.. المُهم دلوقتي إحنا عندنا طوب في الأرض جنب الشونة، ننقله ونبدأ نبني البيت، مُش خوص» .

مر علينا أكثر من شهرٍ ونحن نُعاني بين العمل في الأرض والسهر لحراسة الجبيرة، وبين بناء البيت، حتى انتهينا من بناء البيت.. وكانت أول ليلة لنا به هي الليلة الأولى التي نضحك فيها وتتهلل أساريرنا مُنذُ أكثر من شهر، بعد أن تذكرنا نومنا في الزريبة وأصوات البقر والأغنام وصهيل الأفراس، والمبيت في الخوص أمام الجَبيرة، والعقارب والثعابين..

ولم يدُم الأمر كثيرًا حتى انتفض ((عبد التواب)) من على فراشه بجواري وأردف: «فاكر لما قولتلك يا صلاح إننا لازم في يوم نكون كبار البندارية؟» .

ـ «فاكر» .

ـــ «أنا في عندي سكة نبدأ منها، لكن مُش هنقعد في الجزيرة بعدها تاني، لازم نمشي من البلد كُلها» .

انتفضت من فرشتي فزعًا وأردفت:

ـ «نروح فين؟ وإيه هي السكة اللي في رأسك دي؟» .

ـ «الأول أنا عايز أقولك إن كمان قبل ما نمشي أنا هتجوز» .

سألته مشدوهًا:

ــ «تتجوز! مين؟ ومنين؟» .

اقترب مني، وبهمسٍ أردف:

ــ «هي دي السكة اللي قولتلك عليها.. أنا أخدت بندقية من مخزن عمك.. وبعتها» .

صرخت فزعًا:

ــ «يا نهار أسود!! ده عمك لو عرف يموتنا!!» .

صفعني بقوة على وجهي، وأردف في قوة وغضب أكثر من قوة الصفعة:

ــ إخشع يا ولد.. لا عمك ولا حد في الدنيا يقدر يقرب منك ولا مني طول ما فيا نفس.. فاهم؟» .

هززت رأسي إذعانًا، وعاد هو لحديثه:

ــ «وبعدين هو عمك أصلًا يعرف حتى مخزن السلاح فيه بنادق وذخيرة قد إيه! عمك من كتر الفلوس بقى أعمى؛ لا عارف هي قد إيه ولا حتى تتعد إزاي.. وكله من تعبنا وشقانا» .

ــ «طيب ومين هي العروسة؟ ولما نمشي هنروح فين؟ وإيه هي السكة اللي في راسك؟» .

ــ «بنت عمك حماد الله يرحمه ((وهيبة))» .

تملكني الخوف والغضب فصرخت:

ــ «انت عايز إيه بالظبط؟ ما انت عارف إن ((محمود)) ابن عمك كان عايز يتجوزها.. يعني من كل بنات البندارية في الجزيرة مفيش ألا ((وهيبة))؟!» .

ازداد خوفي حينما استشاط غضبًا من حديثي، وكال إليّ ضربةً بقبضته كادت تخلع كتفي وصرخ فيّ:

ــ» انت عايز تعيش عُمرك كُله خدام عند عمك!! لا والله أبدًا ما يكون! وهو عشان ابن عمك كان عايز يتجوزها خلاص يعني تقعد من غير جواز! وأهو عمك نفسه انكبر وقال لأ.. المهم بقى إن لسه مُش عارف هنروح فين بعد ما أعمل اللي في راسي» .

ــ هو في حاجة تاني في راسك غير كُل اللي قولته ده؟!» .

ربت على كتفي برفق الأب والأخ، وأردف في حنين:

ــ « يا صلاح.. أول ما نمشي من هنا مُش محتاجين نشتغل تاني.. ويمين الله لأعوضك عن كُل المُر اللي شفته» .

ــ « أنا صحيح خايف.. لكن أنا معاك ولو على رقبتي» .

ارتسمت ابتسامة قوية على وجهه ودق على كتفي برفق يُطمئنني، وأردف:

ــ « طيب نام انت وارتاح عشان عندنا سهرة على الجَبيرة النهاردة» .

رقـدت عـلى فرشـتي مجاهـدًا خـوفي في تلـك الليلـة المُخيفـة.. إن الطريـق الـذي سلكه ابـن عمي بقـدر مـا هـو سريـع، فهـو يحمـل في طياتـه خطـرًا وموتًـا مُحدقًـا.. إن اكتشـف عمـي أمرنـا؛ فبالتأكيـد لـن يُرضيـه أقـل مـن قتلنـا.. إن السـلاح للبنداريـة.. حيـاة!

ومـن جانـب آخـر.. تأكُـدي مـن موافقـة ((وهيبـة)) عـلى الـزواج منه، وهـو مـا سـوف يفطُـر قلـب ((محمـود))! وهـو أخونـا الثالـث الـذي يُعاقـب عـلى ذنـبٍ لـم يقترفـه.. وبكونـه ابـن ((محمـد البنـداري))؛ واجـه رفضًـا مـن أبيـه لزواجـه مـن البنـت الـتي أحبهـا.. وكذلـك لـن يسـتطيع أن يقـف في وجـه قـوة وبطـش ((عبـد التـواب))، الـذي في الحقيقـة أحسـن اختيـار زوجتـه..

***

((وهيبـة)) مـن نفـس عُمـري، وبرغـم جمالهـا الـذي تشـهد بـه البنداريـة كُلهـا كانـت لعنتهـا الفقـر ومـوت أبيهـا، الـذي جبرهـا عـلى العمـل في الأرض معنـا مثـل أي رجُـل؛ لتعـول أختهـا الوحيـدة وأمهـا الـتي تجاهـد أيضًـا بالعمـل في زريبـة عمـي ((محمـد)).. هـي قويـة وجميلـة، وهـي السمات الـتي تمتـاز بهـا كافـة بنـات البنداريـة، إلا أنهـا كانـت تمتـاز عنهـم جميعًـا بزيـادة في القـوة وفي الجمـال.. وكُنـت أشـعُر عندمـا نلتقـي في الأرض لجمـع محصـول أو أي عمـلٍ أنهـا كانـت تميـل بنظراتهـا إلى ((عبـد التـواب))؛ فهـو الأقـوى والأشـجع والأشـد بأسًـا مـن كُل شـباب الجزيـرة.. برغـم فقرنـا؛ لـم تُنتقـص مـن كرامتـه يومًـا

شـعرةً! فمـا كان ليسـمح بذلـك، وكذلـك هـي أيضًـا.. ولذلـك كُنـتُ مُتأكـدًا مـن موافقتهـا. وصـدق توقعـي.. لـم تمـر سـوى أشـهرٍ قليلـة إلّا وقـد تزوجـا، وتوفيـت والدتهـا وكذلـك عمـي ((محمـد))، والـذي مـا أن تـوفي ومـر عـلى وفاتـه أربعـون يومًـاإلا وقـد تـزوج ((محمـود)) مـن ((نرجـس)) أخـت ((وهيبـة)) الصغـرى والوحيـدة، وكانـت ليلـة الزفـاف هـي نقطـة انطلاقنـا.. فمـا أن انفـض جمـع النـاس اقـترب مـني ((عبـد التـواب)) وهمـس في أذني:

ــ « اسـحب نفسـك وحصلـني عـلى أول طريـق الجبـل في الـسر، وإيـاك حـد يلمحـك بعنيـه» .

هززت رأسي موافقةً، وأردفت:

ـ «حاضر» .

انسـحب مـن أمامـي، وبقيـت لفـترةٍ أترقـب انـصراف الجميـع.. ومـا أن تأكـدت مـن أني وحيـد في الطرقـات.. اتجهـت إلى طريـق الجبـل عـلى طـرف الجزيـرة مُخترقًـا المقابـر، وأنـا أحـاول فهـم سـبب طلبـه لي بالقـدوم إلى هـذا الطريـق الخـالي مـن البـشر، وبـدأت مخـاوفي تـزداد مـع سـماعي أصـوات الذئـاب؛ فمـا عسـاي أن أفعـل إن خـرج علـيّ أحـد تلـك الذئـاب الجائعـة! وبـدأت أبحـث في الأرض عـن عصـا أحمـي بهـا نفـسي مـن بطـش الذئـاب إن خـرج عـلي أحدهـم، وبينمـا أنـا كذلـك أصابتـني القشـعريرة والرعـب حـين سـمعت صوتًـا مـن خلفـي قائـلًا:

ــ «اخشع مكانك!»

استدرت ببطءٍ شديدٍ وصعقتني المُفاجأة من صاحب الصوت! فلقد كانت ((وهيبة)) ترتدي جلبابًا رجاليًا وعمامة، إلا أني ما كُنتُ لأتشكك في معالم وجهها.. وبادرتني ما أن رأت وجهي بقولها:

ـ «هو انت يا صلاح.. طيب امسك» .

ألقت جُملتها وهي تمُد يدها إلي ببُندقيةٍ آلية، وما أن أمسكتها عادت للحديث:

ـ «امشي معايا وانت ساكت.. وإياك تنطق بكلمة، ولا تضرب طلقة إلا لو أنا ضربت قبلك.. فاهم؟» .

ـ «فاهم» .

تحركنا في الظلام حتى ظهر ضوء نارٍ مُشتعلة أمامها جمعٌ من الرجال، وما أن اقتربنا منهم استدار ((عبد التواب)) ورفع صوته وهو يُشير إلينا:

ـ» وهيب وصلاح.. ولاد عمي ورجالتي» .

أجابه رجلٌ كان يقف من أمامه ومن خلفه أربعة رجالٍ، كان قصير القامة، وكانوا جميعهم مُسلحين، بقوله:

ـ «أهلًا بالرجالة.. أنا ((سلومة)) النجعاوي» .

ما أن نطق الرجُل اسمه تيّبس حلقي؛ أحقًا هذا هو ((سلومة)) النجعاوي؟! إن كان هو هذا الرجُل الذي أسمع عنه؛ فبالتأكيد علينا

الحـذر.. إن هـذا الرجُـل يقـود حربًـا كاملـة بـين قريتـين في محافظـة أسـيوط، هـو قاتـل مأجـور وتاجـر مخـدرات وتاجـر سـلاح، ولا يمنعـه أو يردعـه شـيئًا عـن قتلنـا في لحظـات.. والعجيـب أن إعـادة الترحيـب خرجـت مـن جـواري بصـوتٍ غليـظٍ:

ــ» أهـلًا بيـك انـت يـا ((سـلومة)).. انـت هنـا في بلدنـا وعـلى أرضنا، وحـتى لـو في بلـدك احنـا بـردوا الـلي نقولـك أهـلًا ونرحـب بيـك» .

ــ» كبير.. ورجالتك كمان كُبار يا ((عبد التواب))» .

ــ» فلوسك معاك يا سلومة؟» .

ــ» في الجوال تحت رجلك» .

نظر إلى جوال كبيرٍ مُمتلئٍ أمامه، وأردف:

ــ» تمـام.. وانـت سـلاحك تلاقيـه وصـل مكانـه.. لكـن إيـاك تنـسى تسـلم عـلى الأمـوات في القـبر بعـد مـا تاخـد السـلاح» .

تعالت الضحكات الغليظة..

انـصرف ((سـلومة)) ورجالـه بعـد أحضـانٍ طويلـة مـع ((عبـد التـواب)).. مـا أن ابتعـدوا قليلًا،حتى اسـتدار برأسـه إلى زوجتـه وأردف:

ــ» أمني الطريق يا ((وهيبة))» .

ألقـى أمـره إليهـا فهرولـت مُسرعـة إلى أعـلى تبـة، ورقـدت بالبندقيـة ترقُّـب الطريـق، وفزعـني بقولـه:

ــ» تعالى هنا» .

هرولـت باتجاهــه، فأوقفـني بيـده في صـدري بقـوة وانـتزع مـني البندقيــة، وأردف:

ــ» ارفع الجوال واتحرك على البيت عندي» .

حملـت الجـوال وتقدمـني هـو في المسـير حامـلًا البندقيـة، يُفتـش بعينيـه يمنـةً ويـسرةً..

وسألته:

ــ» هي ((وهيبة)) فين؟ والجوال ده تقيل أوي ليه؟»

اقترب مني وهو يُشير بالصمت وأردف:

ـــ» اسـكُت وامـشي وإيـاك تتكلـم تـاني.. أول مـا نوصـل البيـت هتعــرف كُل حاجــه» .

هـزت رأسي قبـولًا وإذعانًـا، وتبعتـه في ظلمـات تلـك الليلـة الـتي بلغنـا مُنتصفهـا.. وصلنـا إلى المـنزل، ومـا أن دلفنـا إلى الداخــل.. ألقيـت الجـوال أرضًـا؛ واسـتلقيت لجـواره أتـكئ عليـه ألتقـط أنفـاسي، وأردفـت:

ــ» في إيه إحنا وصلنا البيت أهوه؟» .

قبل أن يُجيبني، اندفعت للداخل ((وهيبة)) وأردفت:

ــ» لازم نتحرك على طول.. الفجر مُش لازم يطلع علينا هنا» .

ــ» على ما تجهزي نفسك والأمانة أكون فهمت ((صلاح))» .

سحبت الجوال إلى غرفتهما، وبادرني بالحديث قبل أن أسأله:

ــ» الجـوال تقيـل لأن فيـه ثمـن السـلاح الـلي كان في مخـزن عمـك كُلـه.. وإحنـا خـلاص لازم نمـشي مـن البلـد» .

فزعت من حديثه وأردفت:

ــ» كُله؟!» .

هز رأسه إيجابًا وتأكيدًا، فعُدت لسؤاله:

ــ» طيب و((نرجس))؟» .

ــ» مخـزن السـلاح مفيـش حـد يعـرف طريقـه غـير ولاد عمـك ((محمـد))، وكبيرهـم ((محمـود)) نفسـه عـارف ومرتـب معانـا الحكاية.. وعـلى بكـرا المغـرب الـكل هيكـون عـرف، وهـو ونرجـس محصلينـا بعـد مـا يقسـم الـورث» .

انتفضت واقفًا وأردفت:

ــ» يبقـى إحنـا كـدا لازم نتحـرك بسرعـة قبـل مـا حـد مـن ولاد عمك يعـرف إن السـلاح مُـش موجـود» .

ــ» حالًا تخرج وهيبة بالفلوس ونتحرك» .

مـا أن ألقـى كلِماتـه خرجـت مـن الغرفـة وتحمـل ثلاثـة جـوالات أصغـر، وألقتهـم بيننـا وأردفـت:

ــ» أنا قسمت الفلوس على ثلاثة عشان نتحرك أسرع» .

ــ» تمام» .

ــ» تمام إيه؟ إحنا رايحين على فين؟» .

ربت على كتفي وأردف:

ــ» على ((قنا)).. أنا مجهز هناك بيت من شهر، ومن هناك يبدأ اللي وعدتك بيه زمان؛ وأبر باليمين اللي حلفته قدامك يا ((صلاح)) انت و((وهيبة))» .

***

٤

..أرض الجبل..

زحـف ثلاثتهـم تغطيهـم ظلمـات آخـر ليلـةٍ لهـم في ((الجزيـرة))، وهــي الليلــة الــتي اختارهــا أكبرهــم ســنًا وبطشًــا وقــوة بعنايــةٍ فائقـة.. ليلـة لا قمـر فيهـا.. شـتوية بـاردة.. ينـدُر فيهـا تواجـد البـشر بالطرُقــات، بــل ينعــدم..

لـم يكُـن في حُسبانه أنـهُ سـوف يُغـادر أرض مولـده، ومولـد أبويـه وأجـداده عـلى دمـوعٍ أمطرتـه بهـا السـماء بغـزارة.. وريـاحٌ تـأتي مـن كُل فـجٍّ عميـق.. تـكاد تخلـع الأشـجار والـزرع مـن الأرض خلعًـا.. وكأن السـماء تـصرُخ وتـئن عـلى رحيلـه مـن وطنـه مُتخفيًـا في ظُلمـات الليـل..

كُل هــذا لـم يُبطـئ مـن حركتـه القويـة، واندفـاع شـلال غضبـه وإصراره عـلى الرحيـل عنهـا.. وهـي الأرض الـتي عـاش فيهـا النقيضـين.. بـين حُـب أبويـه وهـو طفـلٌ لـم يتجـاوز الثانيـة عـشر مـن عُمـره، وبـين مـرارة رحيلهمـا ورحيـل الـدفء والحُـب معهمـا.. وحـل مكانهمـا بطـش وقسـوة ((البنداريـة))؛ إنهـا قلـوبٌ أشـد قسـوةً مـن الحجـارة.. تلـك القلـوب الـتي دفعـت طفـلًا إلى الشـقاء في الزراعـة وبـددت راحتـه،

والقلـوب الـتي لـم ترحـم هـذا الطفـل مـن المَبيـت في العـراء أيامًـا وليـاليَ طويلـة بعـد ضيـاع بيتـه؛ لـكي يسـكُن أعمامـه في بيـوتٍ، وتـزداد أجسـادهم الصُلبـة قـوةً عـلى حسـاب دمائـه وعنائـه! ومـا كان ليتراجـع أبـدًا عـن قـرار رحيلـه، برغـم روعـة أيـام طفولتـه الأولى وإحساسـه أنـهُ يحيـا بالجنـة في تلـك الجزيـرة.. تبـدد هـذا الإحسـاس بمـا مـر بـه في تلـك الجزيـرة مـن مـرارٍ وألـمٍ حـتى هربـت دمعـةٌ مـن عينـه وهـو يتقـدم زوجتـه وابـن عمـه، الـذي شـاطره هـو الآخـر كُل هـذا الشـقاء والألـم؛ إلا أنـهُ أخفاهـا فـورًا.. فهـي لـم تكُـن دمعـة الحُـزن عـلى فراق حبيـب؛ وإنمـا هـي دمعـة الحسـرة عـلى انتقامـه الغائـب.. إلى الآن!

كان هــذا حالــه وسريرتــه، والــتي لــم تكُــن أقــل ألمًــا مــن سريــرة زوجتـه الشـابة؛ فهـي ابنـة الفقـراء وتلـك الجزيـرة الملعونـة لا تعـترف بالفقـراء ولا بوجودهـم.. وكانـت آلامهـا أكـبر مـن أن تدفعهـا للتفكـير لحظـةً في البقـاء فيهـا.. هـي تلـك الجزيـرة الـتي وهنـت فيهـا كرامتهـا بعملهـا عمـل الرجـال، وكرامـة أمهـا بعـد وفـاة أبيهـا بعملهـا في خدمـة أثريـاء البنداريـة..

مـن المؤكـد أن الله غاضـبٌ عـلى هـؤلاء القـوم وأصابهـم بأفظـع الأمـراض وأقـوى ابتـلاء؛ فلقـد أمـات الله قلوبهـم.. إن الفقـر مـن خلفهـا وهـي تُمخـض أقدامهـا في طـين الرحيـل.. يطحـن آلاف الفقـراء لـكي تسـمن بطـون عـشرات مـن الأغنيـاء! إلا أنهـا لـم ترحـل مُنهزمـة ولا مكسـورة؛ عـلى العكـس كانـت خطواتهـا للأمـام تدفعهـا الآمـال

والثقـة.. وكيـف لا وهـي ترحـل خلـف رجُـلٍ ، هـو حقًـا ((رجُـل)).. هـو الـذي أعـاد إليهـا كرامتهـا المفقـودة بزواجـه منهـا، بعـد رفـض أبنـاء الكُـبراء الـزواج منهـا لفقرهـا، وهـو عيـبٌ في نظرهـم..

وأحيـا أنوثتهـا المطموسـة بطـين الأرض بعـد أن أغرقهـا في حُـبٍ وحنـانٍ لـم تـذُق حلاوتـه قـط طيلـة حياتهـا.. وأعـاد إليهـا الأمـان؛ فلـم تعُـد تنـام خائفـة مُحملـة بـآلام التفكـير في الغـد!

هـو رجُـلٌ أعـاد إليهـا أنوثتهـا.. هـو غريـبٌ في أرضٍ غريبـة.. ليـس سبّابًا ضرّابًـا مثـل أهـل تلـك الأرض الملعونـة غِـلاظ القلـوب.. فهـو يـرى فيهـا الأنثى الجميلـة الـتي يجـب أن تُعامـل برفـق وحنـين؛ رغـم الجحيـم المُسـتعر بداخلـه..

كان صـدره دومًـا ملاذهـا الآمـن كُلمـا تألمـت.. وعيونـه القويـة وجسـده الصلـب يُحيطانهـا حُبًا وعشـقًا.. والآن هي ترحل خلفـه لأرضٍ جديـدة هـو فيهـا لهـا وحدهـا.. تلـك هـي أنانيـة الحُـب المشروعـة؛ هـي ترحـل خلفـه بيقينهـا أنـهُ دومًـا لـم يكـن لهـا وحدهـا، ولسـوف يصبـح هكـذا.. هـذا هـو زوجهـا وحبيبهـا..

وأمـا ثالثهـم في الرحلـة لـم تكُـن لديـه ذكريـات كثـيرة عـن طفولـة بريئـة.. هـي عـشرة أعـوام فقـط مـن بدايـة حياتـه وانتهـت، ولـم يـرَ بعدهـا طيلـة حياتـه إلا الشـقاء والغلظـة.. إلا قلبًـا واحـدًا دومًـا مـا كان مـلاذه وأمانـه مـن ضرب الأطفـال في طفولتـه، وحمايتـه واحتضانـه وتدفئتـه بجسـده في بـرودة العـراء شِـتاءً.. هـو أبيـه وأخيـه وأمـه

في أغلب الأحيان.. هو ابن عمه الذي يقوده في رحلة رحيله..

ولذلك.. لطالما كان يشعُر بالأمان معه ولجواره، وهو الآخر لم يُفرط بهِ يومًا؛ حتى بعد زواجه كان يعيش معه ومع زوجته تحت سقفٍ واحد.. وكان يسقيه الحنان كمن يسقي طفله البكري.. فهو أبوه وليس أخوه فقط أو ابن عمه!

إلا أن الرحيل عن الأرض التي ولد فيها كان مريرًا على قلبه ويعصُره عصرًا.. ليس لجمالٍ أو لراحةٍ فقدها؛ وإنما خوفًا على هذا الأب والأخ الذي يقوده في الرحيل.. كان يرحل وهو على يقينٍ من أن خلفه رجالٌ غلاظ القلوب لا ترحم، ولن تتوانى عن اللحاق بهم والقضاء عليهم؛ لم يكُن يخاف على ذاته وإنما كان قلبهُ ينخلع كُلما تخيل أنهُ قد يفقد أباه وأخاه وحياته كُلها إذا فقد هذا القائد في تلك الرحلة؛ وانهمرت دموعه بقوة..

ولم يوقفها سوى قسمه أمام الله في سره، وهو يسير تحت المطر وفي تلك الرياح العاتية، أنه سوف يفديه بحياته إن لزم الأمر.. ولسوف يتبدل وهنه وضعفه بأسًا وقوة لم يرِها أحدٌ منه قط؛ لحمايته وحماية زوجته..

رحل ثلاثتهم بداخل قاربٍ كان قد أعده قائد رحلتهم مُسبقًا لتلك الليلة.. وكان هو أيضًا الرابط الوحيد في عُصبة ثلاثتهم.

بادرهم ضوء الفجر وهم ما يزالون بقاربهم.. وما أن بدأت الشمس تلُوح بوجهها في خجلٍ حتى وصلوا بقاربهم إلى موطنهم

الجديـد، الـذي اختـاره ودبـره ((عبـد التـواب)) بعنايـةٍ في محافظـة ((قنـا)).

كان قـد اشـترى قطعـة أرض قرابـة العشريـن فدانًـا في الـبر الـشرقي، مُطلـةً عـلى نهـر النيـل مُبـاشرةً، ومـن خلفهـا جبـلٌ تعقُبـه الصحـراء.. وكان قـد بـنى مـنزلًا ضعيفًـا بـلا أساسـات ثابتـة عـلى أخـر نقطـةٍ مـن الأرض، في ظهـره مُبـاشرةً الجبـل وأمامـه الأرض بكاملهـا، وفي آخرهـا النهـر.. ومـا أن دلفنـا إليـه بادرتُـه بالسـؤال:

ــ « هـو انـت ليـه بنيـت البيـت مـن غـير أسـاس؟ وليـه بنيتـه في آخـر الأرض؟» .

هز رأسه قبولًا وأردف:» تعالوا معايا» .

ألقـى كلِماتـه وخـرج مـن المـنزل وتبعتـه وكذلـك زوجتـه، صعـد الجبـل مـن خلـف المـنزل ووقـف عـلى قمتـه ونظـر باتجـاه الأرض ونهـر النيـل في آخرهـا، وأشـار بسـبابته ثـم أردف:

ــ « هنا الجنينة بتاعتنا، والبيت لازم يتهد ويتبني أكبر بكتير» .

أنهـى جُملتـه الأولى واسـتدار باتجـاه الصحـراء خلـف الجبـل وهـو يُشـير بيـده ثـم تابـع الحديـث:

ــ «هنـا بقـى أرضنـا وبلدنـا اللـي هنبنيهـا.. أرض لا فيهـا ظلـم ولا فقـر.. هنـا أرض البنداريـة الجديـدة» .

اتقدت حماسة الجميع من كلِماته ثم ربتُّ على كتفه وأردفت:

ـ «أنا معاك ولو على رقبتي» .

طوقنا بذراعيه وهو يتوسطنا، ونحن ننظُر إلى أكثر من خمسين ألف فندان، كانت جميعها يومًا صحراء مُقفرة تهرُب منها الأفاعي والذئاب تأبى المرور فيها.. هبطنا عن الجبل إلى منزلنا وتجمعنا حول الأجولة الثلاثة التي تحوي ثروتنا، وبادرنا الحديث:

ـ» الفلوس دي اتقسمت ثلاثة.. عليا وعليك وعلى ((محمود))» .

سألته مشدوهًا : «وفين حق ((وهيبة)) يا ابن عمي؟»

تعالت ضحكاته وأردف: «دي مراتي أنا.. وحقها في حقي يا صلاح.. والأهم أنا بعمل حساب يوم يقف فيه ابن عمك ويقول انت ومراتك أخدتوا أكتر مني» .

هزت رأسي رفضًا وسكبت أحد الأجولة أرضًا وأمسكت بالثاني وأفرغتهُ عليه، وكانت الأموال كبيرة إلا أنها لم تكُن لتُغريني، وأردفت:

ـ» إذا كنت عامل حساب يوم ابن عمنا يقف ويقول انت ومراتك خدتوا أكتر مني.. أنا بعمل حساب أيام وليالي طويلة كُنت فيها لا بتفطر ولا بتتغطى عشان أنا أشبع وأنام.. انت مُش ابن عمي انت أبويه وأخويه.. و((وهيبة)) مراتك صحيح؛ لكن دي شرفي وعرضي زي ما هي شرفك وعرضك.. أنا صلاح يا ((عبد التواب)) مُش ((محمود))!» .

ترقـرق الدمـع في أعـيُنٍ لـم تعـرف للدمـع طريقًـا، وخفـض رأسـه أرضًـا وهـو يهزهـا فرحًـا تحـدوه القشـعريرة؛ فلقـد أتـت لـه الدنيـا أخـيرًا بـشيءٍ مـن حقـه.. الآن فقـط شـعر بـأن كُل مـا فعلـه لـم يذهـب سُـدى.. فيمـا انتفضـت الصامتـة مُنـذُ أن وصلنـا واقفـةً، ووضعـت يدهـا عـلى كتفـي وأردفـت في قـوة:

ــ» والله لـو هـو قـال لأ.. لقولـت آه! ووالله يـا صـلاح إنـك لأعـز عنـده مـني أنـا.. وأيـام وليـالي كان كُل مـا يكلمـني يقـولي نفـسي أديـه حقـه ويرتـاح» .

مـا كُنـت يومًـا بنفـس قـوة ابـن عمـي في جمـح جمـاح الدمـوع الـتي انهمـرت عـلى وجنـتي وأنـا أشـدو بصـوتٍ مُتحـشرجٍ مُضطـربٍ:

ــ» أنـا مليـش في الدنيـا غـيره يـا ((وهيبـة)).. لا فاكـر أبويـه ولا أمي؛ لكـن فاكـره هـو ومُـش عايـز حاجـة غـير إني أفضـل معـاه وبـس» .

انتفـض لحديـثي ودموعـي واقفًـا وضمـني إلى صـدره بقـوةٍ صارخًـا: «وأنـا ليّـا مـين غـيرك.. ولا تزعـل انـت وأنـا و((وهيبـة)) حقنـا واحـد طـول العُمـر» ..

أنهـى كلِماتـه وضمهـا إلينـا بصـدره.. هـا قـد اجتمـع شـملنا (عهـدًا ووعـدًا)..

دارت أيـامٌ سريعـة علينـا هدمنـا فيهـا المـنزل الضعيـف؛ ورسـخنا فيهـا مـنزلًا كبـيرًا أشـبه بقـصر.. كان أكـبر مـن أكـبر بيـتٍ رأيتـه يومًـا..

كان دوره الأول يحـوي باحـةً فسيحة، وسُـلمين في طرفيـه من الداخل للصعـود للـدور الثـاني، ومطبخًا كبـيرًا وحمامًـا وغرفةً كبـيرة للضيافة مع حمـامٍ، وبـابٍ مُنفصـل يُطـل عـلى جانـب البيـت الأيمـن مـن الداخـل.

وبالـدور الأعـلى خمـس غـرف؛ كُل غرفـةً مع حمـامٍ مُنفصـل، واحدةٌ لي وأخـرى بجوارهـا لـ ((عبـد التـواب))، والـتي تليهـا لـ ((محمـود))، والأخرتـين أعددناهمـا لـلأولاد مُسـتقبلًا..

إلا أن الغريـب في الأمـر هـو أن ((محمـود)) قـد تأخـر في اللحـاق بنـا؛ فقـد مـر أكـثر مـن شـهر! إلى أن تحـرك ((عبـد التـواب)) في ليلـةٍ للتفتيـش عمـا حـدث هُنـاك، وعـن مـا أخـره عـن اللحـاق بنـا..

***

ولـم تـذُق أعيوننـا نومًـا في تلـك الليلـة، لا أنـا ولا زوجتـه.. وكان القلـق يقتُلنـا حـتى وصـل قـاربٌ قبـل طلـوع الفجـر عـلى حافـة أرضنـا مـن النهـر، وكُنـت أجلـس أمـام المـنزل أنـا و((وهيبـة)) ويحمـل كُلٌ منـا بُندقيـةً آليـة.. ومـا أن اقـترب القـارب حـتى هرولنـا باتجاهـه، وتخفينـا بـين الزراعـات عـلى حافـة الأرض نتحسـس مـن القـادم.. ومـا أن وصـل هـدأت جوارحنـا؛ فقـد عـاد ((عبـد التـواب))، ومعـه ابـن عمنـا الغائـب وزوجتـه، وأكـثر مـن خمسـة عـشر شـابًا مـن أبنـاء عمومتنـا.. لـم ألحظ في البدايـة وجـود ((سـماح)) معهـم عـلى نفـس القـارب؛ فهـي الشـقيقة الوحيـدة لـ ((عمـران)) أحـد أبنـاء عمومتنـا القادمـين عـلى القـارب، ومـا كان ليرحـل دونهـا..

تهللـت أسـاريرنا وهرولنـا نسـتقبلهم في ترحـاب.. وبهبـوط الجميـع مـن القـارب رفـع ((عبد التـواب)) صوتـه لزوجتـه وأختهـا وطالبهما بأخذ ((سـماح)) معهمـا، والسرعـة في تجهـيز إفطـارٍ للجمـع القـادم معـه..

انتقلنـا جميعًـا إلى المـنزل مُسرعـين وغابـت عنـا الإنـاث الثـلاث، فيمـا بقيـت بصُحبـة أبنـاء عمـي أمـام المـنزل وجهزنـا الشـاي.. اقتربـت مـن ((محمـود)) هامسًـا مُسـتغلًا انشـغال ((عبـد التـواب)) مـع أبنـاء عمنـا، مُحـاولًا اكتشـاف الـسر خلـف تأخـره، ومـا حـدث في تلـك الليلـة وبادرتـه سـائلًا:

ـ» إيه اللي أخرك؟ وإيه اللي حصل امبارح؟»

بحـث بعينيـه يمنـةً ويـسرةً، ومـا أن تأكـد مـن أنـه لا يسـمعنا أحـد؛ أردف:

ـ» تعالى نمشي في الأرض.. أشوفها» .

تفهمـت أنـهُ يُريـد الابتعـاد قليـلًا عـن الجمـع ويُـسرني بـسرّ.. ولـمَ لا وأنـا أقـرب الأشـخاص إلى قلبـه؛ حـتى أنـهُ أسرني بحُبـه القديـم لــ ((وهيبـة)) دون الجميـع.. فانتفضـت واقفًـا وابتعـدت بـه عـن الجمـع فلـكُلٍ منـا سرّه وألمـه.. والأهـم أن يكـون لـه مُسـتودعًا يدفـن بـه تلـك الأسرار؛ إن الألـم مـا أن يُبـاح بـه إلا ويُخفـف كثـيرٌ مـن وطأتـه..

وبمجـرد أن ابتعدنـا عُـدتُ لسـؤاله مُجـددًا: «قـولي بقـى إيـه الحكايـة.. إحنـا بعدنـا عـن الـكُل أهـوه» .

استدار ليواجهني، ولمحت في عينيه دمعًا سجينًا يكاد يُمزق مُقلتي عينيه، وحُزنًا وانكسارًا، وشدا بلبلٍ يشدو لحنًا حزينًا بصوتٍ مُحشرجٍ حينما أجابني:

«إخواتي يا صلاح.. حرموني من ورثي وطردوني من بيتي.. وقالولي حقك انت اللي فرطت فيه.. كُل ده لا وجعني ولا أثر فيّا.. اللي كسرني وقهرني إني هنا في أرض مُش ملكي، ومفروض عليّا أعيش فيها جنب واحدة لا عُمري حبتها ولا حتى عايز أكون جنبها، وأشوف بعيني الوحيدة اللي كان مُمكن أفرط مُش في ورثي ليها لا.. في عُمري حتى» .

أنهى عزف لحنه الحزين، وانهارت جدران السد المنيع المُغلق على نهرٍ من الدمع الذي تفجر حتى صار نحيبًا وصُراخًا.. لا أدري كيف تقبلت أن أسمع منه كلِماته وأُمررها؛ ولكني أقنعت نفسي أنها ما هي سوى آلامٌ كانت يجب أن تخرُج، ومن الأفضل أنها خرجت باكرًا وليّ أنا؛ حتى أستطيع أن أحتويها..

حقًا لقد بلي جسده الذي كان قويًا وضعف وأمسى هشًا، واندحرت عيناه وازدادت بشرته سُمرة.. وجبهته التي لم تكُن يومًا تنخفض للأسفل قد انحنت تمامًا.. وما كان مني سوى الصمت واحتضانه حتى هدأت جوارحه، وما أن توقفت دموعه أردفت:

ـــ «لا احنا اللي بنختار أهلنا ولا بنختار مين تبقى في ذمة مين.. ربنا وحده هو اللي بيرتب لكُل الأمور دي.. وانت هنا في أرضك

وجنب أولاد عمك وأخواتك، وإياك تنسى للحظة إن الكلام اللي قلته قدامي لازم يموت وعُمره ما يطلع تاني.. فاهمني!» .

أخرج رأسه من صدري وجفف دمعه بيديه وانتفض واقفًا وأردف:

ــ «صدق أبويه لما قالي على ((عبد التواب)).. خاف منه يا ولدي، موتنا كُلنا على يدُه» .

تفهمت مقدار حُزنه ومدى حسرته والمرارة في حلقه؛ فلقد خسر كُل شيءٍ تقريبًا.. مهما أخذ هنا لن يصل إلى نصف إرثه بالجزيرة.. والأهم أنهُ سوف يُكوى برؤية حبيبته القديمة في ذمة رجُلٍ لن يتهاون في دفنه حيًا إذا صدرت منهُ هفوةٌ واحدة.. كما أنه لم يعرف ((وهيبة)) كما أعرفها؛ فهي أيضًا قد تسبق زوجها إلى قتله إن لمحت منه شيئًا..

ها قد ازدادت أحمالي ثقلًا بما أسرّني به.. عُدنا إلى المنزل وأخذ الرجال مكانهم في غرفة الضيافة بالدور الأول، وكُل منا أصحاب هذا البيت الكبير إلى غرفته.. وجهزت ((وهيبة)) إحدى الغرف الفارغة بالدور الأعلى إلى ((سماح))؛ فما كانت لتسمح لها بالبقاء بالأسفل بجوار الرجال..

انقضت أيامٌ وشهورٌ لم تكُن قليلة ولم تكُن كثيرةً أيضًا.. انشغلنا فيها برعاية الأرض الجديدة، ولم يطرأ جديدٌ حتى جاء ظُهر يومٍ كُنت فيه على طرف أرضنا أقصى اليمين أنظُر إلى أرض ((المنايعة))، وهي الأرض التي تحُد أرضنا من اليمين، والتي

تتحكـم أيضًـا في الطريـق إلى الأرض خلـف الجبـل وخلـف منزلنـا.. وتملكهـا عائلـة ((منـاع)) وهـم قـومٌ غـلاظ أفظـاظ الطبـاع، عنيـدو الفكـر.. ولـم اسـتفق إلا بصـوتٍ مـن خلفـي قائـلًا:

ـ» إيه يا ابن عمي.. سرحان في إيه؟» .

استدرت فلـم أتفاجـأ؛ لقـد كان ((عبـد التـواب)) كعادتـه مُنتـشرًا في كُل شبرٍ مـن أرضنـا.. ابتسـمت وأجبتـه:

ـ» الأرض يا ابن عمي» .

تعجب من إجابتي بقوة ورفع حاجبيه سائلًا:

ـ «مالها الأرض؟» .

ـ «انت شكلك نسيت.. الأرض اللي في ضهر الجبل» .

هز رأسه إيجابًا وربت على كتفي بيده ثم أردف:

ـ «لأ.. لا نسيت ولا حاجة.. هنبدأ بإذن الله من بكره» .

فتحـت ذراعـي ترحيبًـا بإجابتـه وعُدنـا إلى عملنـا، ومـا أن غابـت الشـمس وقبـل أن ندلـف جميعًـا إلى داخـل المـنزل توقـف ((عبـد التـواب)) ورفـع صوتـه فينـا مُخاطبًـا:

ـ» بكـره الفجـر بـإذن الله أول حاجـة نعملهـا هـي إننـا.. نـرُص الجَبـيرة في الأرض الجديـدة.. عشـان نبـني فيهـا أول بيـت لـولاد عمنـا ونجهـز الأرض للزراعـة» .

تعجب الجميع إلا أنا؛ فأنا الوحيد في هذا الجمع الذي يعلم بهذا التخطيط، بالإضافة إلى ((وهيبة))، وهي التي تغيب مع أختها و((سماح)) في أعمال المنزل.. وقاطعه ((محمود)) سائلًا:

ــ» أرض إيه؟ وفين؟» .

ــ» الأرض الجديدة وهي في ضهر الجبل» .

هز رأسه رفضًا وأردف:

ــ» دي صحراء.. وهنروي الأرض فيها إزاي؟» .

ــ» الأول نبني البيت وبعدين ندور على الري.. أنا مجهز كُل حاجة» .

ــ» اللي تشوفه» .

اتجه الجميع إلى غرفهم على أملٍ وحلمٍ سوف يتحقق غدًا، أما أنا فأغلقت باب غرفتي على قلقٍ كبير؛ فأنا أعلم جيدًا أنهُ لا يوجد ترتيبٌ أو تجهيزٌ لأي شيءٍ في تلك الأرض الجديدة.. لا مياة للري.. ولا للشرب حتى.. بل أنها أصلًا ليست ملكنا ولا ملكًا لغيرنا.. هي أرض صحراء جرداء.. والطريق الوحيد الموصل لها هو عبر أرض المنايعة التي تحُد أرضنا من طرفها الأيمن، أما أقصى طرف أرضنا الأيسر فيحُده الجبل مثلهُ مثل خلفيتها.. وكُنتُ مُتأكدًا من أن ((المنايعة)) لن يسمحوا لنا بالمرور من أرضهم خُطوة؛ فكيف سوف يُمررون لنا مياه الري.. بالتأكيد الأمر يتجه إلى معركةٍ شرسة،

والأخطـر أننـا إن انكسرنـا في تلـك المعركـة؛ فـلا مجـال لنـا للعـودة إلى مـا كُنـا عليـه.. فمـا أصبحـت المعركـة القادمـة إلا حيـاةً أو موتًـا..

جـافى عينـاي النـوم في تلـك الليلـة، واشـتد قلقـي حـتى أنـني هبطـت مـن غرفـتي قبـل الفجـر، واتجهـت إلى الجبـل أطمـئن عـلى السـلاح في مخزنـه، وهـو فجـوة في قلـب الجبـل.. وبرغـم أني كُنـتُ أعلـم يقينًـا أننـا لا نملـك سـوى أربـع بنـادق آليـة وقرابـة ألفـي طلقـة؛ إلا أني كُنـتُ أبحث مُمنيًـا نفسـي أن يكـون ((عبـد التـواب)) قـد أحـضر سـلاحًا آخـر.. ومـا أن ماتـت آمـالي وتحطمـت عـلى صخـور الواقـع؛ حـتى أخـذت بندقيـتي وجهزتهـا، ووضعتهـا في موضـعٍ بأرضنـا قُرابـة أرض ((المنايعـة)).. عـدتُ إلى المـنزل وأوقـدت نـارًا وشرعـت في تجهـيز الشـاي، ومـا أن بـدأت سـكبه في كـوبٍ حـتى جلـس إلى جـواري ((عمـران)) وأردف:

ــ» إيه اللي قعدك هنا بدري كدا.. انت صحيت إمتى؟» .

سكبت لهُ كوبًا من الشاي وأعطيته له ثم أجبته:

ــ» أبـدًا كُنـت قلقـان طـول الليـل.. وبعديـن قولـت أنـزل أقعـد شـوية مـع نفـسي» .

ــ» أنا كمان طول الليل صاحي» .

التفت له سائلًا:

ــ» ليه يا ابن عمي؟ مالك؟» .

ــ» مش عارف ليه حاسس إن النهاردة آخر يوم ليّا في الدنيا» .

ــ « إيـه الـلي بتقولـه ده! وإيـه الـلي مخليـك تقـول كـدا؟!» .

ــ «مش عارف.. لكن ليا عندك طلب» .

ــ « خير.. طلب إيه؟» .

ــ «أخـتي يـا ((صـلاح)).. أنـا عـارف إنهـا عرضـك؛ لأنهـا بنـت عمك، لكـن طمـني وقـولي إنـك هترعاهـا.. انـت عـارف دي مُـش أخـتي وبـس؛ بعـد مـا مـات أبوهـا وأمهـا أنـا الـلي ربيتهـا.. يعـني بنـتي كمـان» .

ربت على كتفه بقوة وأردفت:

ــ «عيـب تخـاف وأنـا موجـود.. وأختـك في عيـني.. وبعديـن ربنـا يطـول في عمـرك وتجوزهـا» .

قاطـع حديثنـا صـوت ((عبـد التـواب)) وهـو يوقـظ الجميـع، ومـا هـي سـوى دقائـق وخـرج الجميـع واتجهنـا إلى طـرف الأرض، وتخلفـت عنهـم بخطـواتٍ مِلـت فيهـا بحركـتي باتجـاه موضـع بندقيـتي.. إلا أن ((عبـد التـواب)) لـم يمُـر مـن أرض المنايعـة؛ وإنمـا مـر مـن خلـف الجبـل عـبر أرضنـا، في تلـك المنطقـة عـلى طـرف أرضنـا كان سـفح الجبـل ليـس مُرتفعًـا كثـيرًا؛ إلا أنـهُ أيضًـا لـم يكُـن مُنخفضًـا بالقـدر الـذي يسـمح بمـرور ميـاه الـري، وبنقـل حيوانـات ونقـل أحمـال الجبـيرة مـن طـينٍ وحطـب..

قـد أجـل المعركـة ولكنـه لـم يُلغِهـا؛ فهـي قادمـةٌ قادمـة.. لـم أُخـرج بندقيـتي فـلا حاجـة لهـا الآن، وتبعتهـم إلى أن وصلنـا خلـف

الجبـل؛ وبدأنـا في تجهـيز موقـع بنـاء الجبـيرة، وكُنـا ننقـل الطـين مـن أرضنـا ونعـبُر بـه عـبر المُرتفـع فأرهقنـا بشـدة.. ولـم نكـن نريـد الاحتـكاك بـأرض المنايعــة.. وقبـل غـروب الشـمس عـاد الجميـع وكُنـتُ أنـا في آخرهـم ومـن خلفـي ((عمـران))، ومـا أن هبطـت مـن عـلى الجبـل إلى أرضنـا وجلسـت أرضًـا أسـتعيد نشـاطي، وأردفـت مُخاطبًـا ((عمـران)) خلفـي:

ـــ «أهــو الجبـل ده تعبـني أكـتر مـن الجبـيرة.. الواحـد هِلِـك النهــاردة» .

لـم تأتِـني إجابـة! وجاهـدت في شـقاء لألتفـت بـرأسي خلفـي لأرى سبب تأخـره في الإجابـة.. وصعقتـني الصدمـة.. فلـم أجـده!! انتصبـت واقفًـا في فـزع! وهرولـت صاعـدًا الجبـل أبحـث عنـه في الأرض.. خلـف الجبـل.. لـم أعـثُر لـهُ عـلى أثـر..

لـم يسـتغرق الأمـر لـدي أكـثر مـن لحظـات حـتى فهمـت الأمـر؛ فبالتأكيـد قـاده الإرهـاق والتعـب إلى المـرور عـبر أرض ((المنايعــة)) بـدلًا مـن صعـود طـرف الجبـل.. هرولـت مُسرعًـا إلى موضـع بندقيـتي وأخرجتهـا وهرولــت إلى داخــل أرض ((المنايعــة)) باحثًــا عنــه، ومــا تقدمـت سـوى خطـوات معـدودة في أرضهـم، الـتي كانـت مزروعـة بالـذرة حـتى رأيتـه يبعُـدني عنـه قرابـة عـشرة أمتـار.. وسـبق صـوتي إليـه صـوت عـدة طلقـات ناريـة رأيتـه يخـر أرضًـا مـن إثرهـا... ولـم أرَ مُطلقهـا؛ إلا أني لـم أشـعر بنفـسي إلا وأنـا أُمطـر تلـك الأرض الملعونـة

نـارًا مـن بندقيـتي حـتى فَرِغـت خزانـة بندقيـتي، وسـمعت أصواتًـا تبتعد تـصرُخ قائلـة: «الأغـراب دخلـوا أرضنـا.. وبيضربـوا نـار» .

هرولـت اتجـاه ((عمـران)) الـذي كان قـد لفـظ أنفاسـه الأخـيرة قبـل أن أصـل إليـه.. لـم أكُـن أعلـم مـا علـيّ فعلـه! أأصرُخ أم أبـكي!! ولـم أملـك خيـارًا بعـد أن تأكـدت مـن مقتلـه إلا أن حملـت جُثتـه وهرولـت بهـا إلى داخـل أرضنـا أحملـهُ عـلى كتفـي، ودمائـه تُغـرق رأسي وجلبـابي حـتى تحـول لـوني إلى اللـون الأحمـر بلـون الدمـاء، الـتي تـصرُخ عـلى جلبـابي مُطالبـةً بالثـأر.. وفي يـدي بندقيـتي الفارغـة.. اقتربـت مـن منزلنـا وكان ((عبـد التـواب)) والجميـع يقـف أمـام المـنزل مشـدوهًا من صـوت إطـلاق النـار، ومـا أن لمحـني ((عبـد التـواب)) هـرول الجميـع إليّ؛ وأنزلـوا جثـة ((عمـران)) عـني وصرخ فَزِعًـا:

ـ « إيه اللي حصل؟! ومين اللي ضرب نار عليكُم ؟!» .

سـألني وهـو يتفحصـني بيديـه ويُقلبـني مُفتشًـا عـن أثـر إصابـة، مشـدوهًا مـن كـم الدمـاء الـتي تكسـوني.. أجبتـه صارخًـا مُضطربًـا:

ـــ» عمـران بـدل مـا يرجـع مـن الجبـل دخـل أرض ((المنايعـة)).. دخلـت أجـري أدور عليـه، ضربـوه بالنـار قبـل مـا أوصلـه.. ولمـا وصلتلـه كان مـات.. وبعـد مـا ضربـت عليهـم نـار سـمعت حـد بيقـول الأغـراب دخلـوا أرضنـا وبيضربـوا علينـا نـار!» .

لـم أرَ غضبًـا مُنـذُ وعيـت ذاكـرتي عـلى وجهـه مثلمـا رأيتـه في تلـك اللحظـة؛ قبـض عـلى يديـه وشـد عـلى أسـنانه بقـوة وصرخ وهـو يهـز يديـه بقـوة:

ـــ « والله يا ((منايعة)) لأحرق الأرض اللي واقفين عليها.. وما يكفيني فيك يا ((عمران)) واحد ولا عشرة.. بعدت عنها وهما اللي طلبوها.. وعليا الطلاق ما يفضل فيهم واحد عايش وأنا حي!» .

ما أن ألقى كلِماته..إلا وقد أصاب الجميع الفزع والصمت، حتى ((محمود)) آثر الصمت التام.. ونهضت من الأرض واقفًا، وكانت الصدمة الأكبر هي هرولة شقيقته ومن خلفها ((نرجس))، ما أن وصلت إلا وخرت أرضًا تحتضن جثة أخيها وتُقلبها، وهي تصرُخ وتنتحب وتئن في عويلٍ وصراخٍ خشِعت لهُ قلوبنا، وهي تصرخ قائلة: «آآآاااااه يا حبيبي.. كُنت عارف إنك هتموت.. عشت حياتك مرار وآخرتك مقتول.. لا لك أب ولا أخ ياخد ثارك وحقك يا حبيبي.. يا كثرة الرجال وقلة الحيلة يا خووووووي» .

جلجل صوتٌ من خلفنا مُدويًا قويًا؛ خشعت له تلك الفتاة المكلومة على أخيها وصمتت له، وكان الصوت قائلًا: «اخشعي يا بت.. ما في بندارية تندب وتعول على راجل؛ إذا راح راجل يروح قدامه مية.. اقطعي النفس!» .

استدار الجميع لصاحب الصوت الذي كان مألوفًا لدي، ولم تكُن مُفاجأتي مثل الجميع؛ فقد شاهدت هذا الموقف من قبل؛ فلقد كان صاحب الصوت هو ((وهيبة)) في نفس ذات جلبابها الرجالي، وبنفس نبرة الصوت التي رحبت بها ب ((سلومة)) من قبل في الجزيرة.. وكانت تحمل بُندقيتين آليتين وجوال الذخيرة.. سلمت

زوجهـا وكبيرنـا إحـدى البنـادق والجـوال، واقـترب منهـا ((محمـود)) يأخـذ البندقيـة الأخـرى.. وكانـت الصدمـة مـن إجابتهـا حينمـا رفعـت صوتهـا وهـي تهـز رأسـها رفضًـا:

ــ «دي بندقيـتي أنـا.. ومفيـش عندنـا غـير ثلاثـة بنـادق؛ واحـدة لـ ((صـلاح)) وواحـدة ليـا وواحـدة للكبـير؛ وإحنـا قدهـا ولوحدنـا» .

كانـت نبرتهـا قاطعـة لا تسـمح بـأي مُحاولـة لإثنائهـا.. ومـا أن حـاول أحـد أولاد أعمامنـا الباقـين التدخـل عـادت للحديـث:

ــ «كفايـة عليكـم تجهـزوا ((عمـران)) وتكفنـوه.. ووالله مـا يندفـن قبـل مـا الـلي قتلـه يسـبقه عـلى القـبر!» .

صرخ ((عبد التواب)) فيّ بعد أن جهز بندقيته قائلًا:

ــ «غيّر الجلابية بسرعة.. النهاردة ليلة المنايعة!» .

ــ « لا يا كبير.. والله ما أغيرها قبل ما أغرقها بدم المنايعة!» .

ربتـت ((وهيبـة)) عـلى كتفـي بقـوة ألـف رجـلٍ، وجهـزت بندقيـتي، وأعـدت تذخيرهـا وتذخـير أكـثر مـن خزينـة لـكُل واحـدٍ منـا، وتحركنـا في اتجـاه أرض ((المنايعـة))..

***

٥

..الضبع..

اندفـع ثلاثتنـا نشُـق الأرض شـقًا بالنـار داخلنـا، والـتي إن خرجـت مـن صدورنـا؛ لأتـت عـلى الأخـضر واليابـس في تلـك الأرض، الـتي رويـت بدمـاء أحـن وأطيـب قلـبٍ فيهـا؛ لـم يكُـن أحدنـا مثلـه قـط، ولـم يملك أحدنـا قلبـهُ الحـي النابـض بالحـب والخـوف عـلى شـقيقته، ووحيدته في تلـك الحيـاة القاتمـة المريـرة، الـتي عـاش فيهـا بـين الألـم والشـقاء.. يبـدو أن الله أراد أن يقبـض آخـر القلـوب الحيـة والرحيمـة في تلـك الأرض، ولـم يبـقَ مـن بعـده إلا قلـوب البنداريـة، وهـي أشـد قسـوة مـن أحجـار الجبـل..

وصلنـا قُـرب أرض المنايعـة واسـتوقفتنا ((وهيبـة)) وتحدثـت هامسـة:

ـ « عمران مات فين يا ((صلاح))؟» .

أشرت بيدي إلى موقع مقتله وأردفت:

ـ « هنا .. في قلب الذرة» .

ــ « يبقى احنا نتقسم.. انت تدخُل من نفس المكان اللي دخلت منه، و((عبد التواب)) يدخُل من شمالك، وأنا هدخُل في ضهرُكم بينكُم بالظبط «.

هززنا رأسنا تقبُلًا لخُطتها؛ فهي تهدف من خلفها إلى أن يشعُر المرابطين بداخل الحقل أن كثرةً تُقابلهم، وهي تؤمننا من الخلف في حال حاول أحدهم الالتفاف علينا.. وبدأت أتسلل بخفةٍ إلى داخل حقل الذرة، وغاب عن ناظري ابن عمي وزوجته إلا أني كُنت أعلم أماكنهم يقينًا كما رتبنا.. وما بدأت أتقدم خطوةً تلو الأخرى حتى وقعت عيني على ثلاثة أشخاص يجلسون في مكان مقتل ((عمران)) حول نارٍ عليها براد، وكان حديثهم عن شخصٍ يُدعى ((حسان))، ويثنون عليه وعلى دقته في التصويب، ولم أتمالك نفسي حينما سمعت أحدهم يقول:

ــ «((حسان)) صاب الواد وهو مغمض.. وربنا قالي هصوبه وأنا مغمض» .

أنهى كلِماته وأصابتهم حالة هيستيرية من الضحك؛ شعرت بأن دماء جسدي كُلها تغلي داخل عروقي، وصدري ينتفض ونفسي يضيق.. ولم يستغرق الأمر أكثر من طرفة عين حتى كُنت أقف فوق رأسهم، وأنا أمزق أجسادهم بالأعيرة النارية الخارجة من بُندقيتي في جنون، حتى أني كُنت أمسك ببندقيتي وأضرب بها وهي في وضعٍ أفقيٍ عمدًا؛ حتى تُمزق الأعيرة أجسادهم تمزيقًا؛ فما كان يُكفيني موتهم !.

وما هـي سـوى لحظـة حـتى اندفـع ((عبـد التـواب)) إليّ يهـز كتفـي بقـوة ويـصرخ في وجهـي:

ــ «إرفـع إيـدك عـن البندقية.. خـلاص ماتـوا.. والخزنـة خلصت!» .

انتزعــني مــن حالــتي وأنــا أتلفــت مثـل المجنــون باحثًــا عــن أي شـخصٍ مـن المنايعـة، ولكـن لـم أجـد أحدهـم.. وقبـل أن أتفـوه بكلمـةٍ أسـكتني ((عبـد التـواب)) بوضـع يـده عـلى فمـي، وتلفـت يمنـةً ويـسرةً ومـا هـي سـوى لحظـة حـتى سـمعنا صـوت طلقـةٍ مكتومـة! هـي طلقـةٌ سـكنت في جسـد مـن أصابتـه.. إلا أننـا لـم نعلـم بعـد مـن أيـن أتـت الطلقـة، ولا حـتى مـن أصابـت! وبمـرور ثـوانٍ سـمعنا صوتًـا مألوفًـا يقـول:

ــ « تعالوا هنا» .

تبعنـا الصـوت الصـادر مـن ذات الطريـق الـذي دخلـت إلى الحقـل منــه، وكان صــوت ((وهيبــة)) وهــي تقــف فــوق رجُــلٍ تُشـير إليــه ببندقيتهـا وهـو مُنبطـحٌ أرضًـا يـنزف دمًـا.. مـا أن وصلنـا إليهـا أردفـت:

ــ «عايزين نرجع بيه» .

حملتـه عـلى كتفـي فقـد كان فاقـدًا للوعـي فيمـا حملـت ((وهيبـة)) البندقيــة الــتي كانــت معــه، وكان ((عبــد التــواب)) يؤمــن ظهرنــا في عودتنـا إلى أن وصلنـا أمـام البيـت.. وكان مـا يـزال الجمـع مُجتمعًـا لـم يغـب عنـه سـوى جُثـة ((عمـران)) و((نرجـس)) الـتي كانـت بداخـل

المـنزل، تنتظـر الثـأر لشـقيقها.. ومـا أن وصلنـا ألقيـت بمـن سـئمت حملـه عـلى كتفـي أرضًـا فيمـا أفرغـت ((وهيبـة)) كوبًـا مـن المـاء فـوق رأسـه لتوقظـه، وكان الجميـع في صمـتٍ مُميـت مـن صعـق الصدمـة عليهـم.. اسـتفاق الرجُـل فَزِعًـا وهـو يـصرُخ:

ـ « مُش أنا اللي قتلته.. والله العظيم ما أنا» .

أشرت لهُ بالصمت وأنا أصرُخ فيه سائلًا:

ـــ «مـين الـلي قتل ابـن عمي؟ ومـين الثلاثـة الـلي كانـوا في الأرض؟» .

تحدث بصوتٍ مُضطرب يملؤه الخوف:

ـــ» ((حسـان المنيعـي)) هـو الـلي قتلـه.. والـلي كانـوا قاعديـن وأنـا أولاد عمـه» .

قاطعتني ((وهيبة)) بسؤاله:

ـ « انتوا كام واحد في الأرض كُلها؟ وعندكُم سلاح قد إيه؟»

صرخت فيها:

ـ «والله لما يكونوا جيش ما يفضل منهم حد.. والليلة!» .

أنهيـت جُملـتي لهـا واسـتدرت لـه، وقمـت بسـحب أجـزاء بندقيـتي بعـد أن وضعـت فيهـا خزنـةً أخـرى وسـألته:

ـ» ((حسان)) فين دلوقتي؟» .

فتح ذراعيه يستجديني وأجابني:

ــ» في غيط القطن.. شرق البلد.. والله أنا مليش دعوة» .

قاطعـني ((عبـد التـواب)) وحـال بيـني وبينـه، فيمـا تراجعـت للخلف ببـطءٍ شـيئًا فشـيئًا حـتى صُمَّت أُذني عن أسـئلتهم لـه وإجاباتـه عليهم.. لـم أكُـن أعلـم أن الشـيطان قـد تلبّـس جسـدي في تلـك الليلـة.. بـل كُنـت أنـا الشـيطان نفسـه! لا أعلـم مـن أيـن تملكتـني الجرأة والشـجاعة والتهـور والجنـون في الاندفـاع اتجـاه أرض المنايعـة مُجـددًا، وقبـل أن أصـل أرضهـم كان قـد أُحكـم التدبـير في رأسي؛ فلـم أدخُـل إلى أرضهـم بـل صعـدت الجبـل، واسـتدرت عـلى قريتهـم مـن الخلـف أتخفـى بالديجـور، ولـم يكُـن يـدور بـرأسي سـوى الكلِمـات الـتي كانـت بيـني وبـين ((عبـد التـواب)) في شـهرنا الأول هنـا؛ وكُنـا فيـه في الجبـل نُجهـز مخـزن السـلاح، وجلسـنا مـا أن فرغنـا مـن التجهـيز أعـلى الجبـل، وأسـهب في حديثـه إليّ شـاردًا:

ــ» الدُنيـا دي زي الغابـة والنـاس فيهـا ثـلاث أنـواع.. يـا أسـود يـا قـرود يـا ضبـاع» .

لـم أفهـم حديثـه وكان سـؤالي لـه هـو: «يعـني إيـه يـا ابن عمـي؟» .

ــ» الأسـود دول نـاس الـكُل بيخاف منهـم وعارفـين إنهـم الملوك.. والقـرود همـا نـاس بتتنطـط عشـان الأسـود تضحـك وتنجـى بعُمرهـا منهـم.. والضبـاع دول نـاس الأسـود تهابهُـم والقـرود تخشـع في خوفهـا منهـم» .

ــ» القرود تخاف منهم مفهومة؛ لكن ليه الأسود تهابهُم؟» .

استدار إلي ليواجهني وأمسك بكتفي، وأردف وهو يرمقني بنظراته:

ــ» الأسود بتهابهُم لأنهم بينهشوا لحم الميت قبل الحي؛ الضبع مولود وهوعارف إنه ضبع أو بيعرف بعدين.. المهم إنهُ عارف لما يهاجم لازم يخلص على الكُل؛ الضبع بيقضي على آخر فريسة قبل ما يتحرك خطوة من مكانه.. إذا هاجم الأسد بيقتل أشباله الأول.. فهمت؟» .

ــ « طيب وانت يا ابن عمي أنهي فيهُم؟» .

تعالت ضحكاته وأردف:

ــ» أنا اخترت أكون أسد ولا أهاب الضباع» .

ــ» إزاي بقى؟» .

ــ» لأني عُمري ما هيكون عندي اللي أهاب من الضبع عليه، ولما يكون عندي أعرف أحميهم كويس.. انت بقى أنهي فيهُم؟» .

ــ» مُش عارف!»

عاد لضحكه بقوة وأردف:

ــ «انت مُش عارف، لكن أنا عارف.. انت مولود ((صلاح))» .

لا أعلم لمَ تذكرت تلك الكَلِمات الآن، إلا أنها ظلت تتردد برأسي بقوةٍ حتى وصلت إلى أطراف أرض المنايعة من اتجاه الطريق، وهي آخر نقطة في أرضهم.. وزحفت زحف حيةٍ رقطاء وأنا أترقب بأعيُن باردة وقلبٍ ميت أي فريسةٍ أفتكُ بها.. حتى سمعت أصواتًا لمجموعة من الأشخاص، تسللت على حذر إلى أن وقعت عيناي على شخصين جالسين أرضًا، وإلى جوار كُلٍ منهما بندقية آلية.. دفعني الشيطان وألبسني عباءته إلى الاندفاع إليهم وتمزيقهم بالأعيرة النارية، ولن أنسى أبدًا جُملة ((حسان)) التي قالها ما أن وقفت أمامهم.. صرخ من كان بجواره قائلًا:

ــ« اجري يا حسان!» .

أجابه وهو يرمقني بنظراته بقوة: «ده قدري!» .

ما أن تأكدت من موتهم رفعت رأسي، وما كُنت أعلم إلى الآن أني بالفعل كُنت الشيطان ذاته في تلك الليلة الطويلة، وأني قد ولدت ضبعًا ينهش لحم الميت قبل الحي.. وقعت عيناي على قرابة ستة عشر طفلًا كانوا يجلسون على مقرُبةٍ من موضعي يجمعون القطن، وتملكهم الخوف وجمدهم في مكانهم أحجارًا، لا تنطق وتنتظر قدرها المحتوم على يد الشيطان.. لم يكُن التفكير طويلًا؛ فما أن مرت في رأسي جُملةٌ واحدة الضبع حينما يهاجم أسد ستوجب عليه قتل أشباله معه .. أعملت فيهم بُندقيتي حتى فنوا عن آخرهم! وتبدل لون القطن الأبيض الناصع إلى أحمرٍ

داكـنٍ يـصرُخ قائـلًا: قتلنـا الضبـع! ما كنـت لأتـرك خلفـي مـن سـوف يـأتي عليـه يومـا يطالـب بالثـأر مـني ، أنـا الشـيطان ولـم أشـعر في تلـك الليلـة بمـدى جُرمي وذنـبي.. حملـت جُثـة ((حسـان)) عـلى كتفـي وعُـدت بهـا مـن ذات الطريـق الـذي أتيـت منـه، ووصلـت إلى أمـام دارنـا وجلبـابي يقطُـر دمًـا.. ولـم يكُـن هنالـك سـوى ((عبـد التـواب)) و ((محمـود))، وأولاد عمنـا هـم مـن يقفـون أمـام هـذا الرجُـل، الـذي ربـط أحدهـم لـه قدمـه ليتوقـف نزيفهـا.. رمقـني الجميـع بأعـيُن مشـدوهةٍ، وأنـا ألقـي بجثـة ((حسـان)) أمامهـم وأصرخ بأعـلى صـوتي:

ــ «انـزلي يـا ((سـماح)).. الـلي قتـل ابـن عمـي، وهـو مغمـض ..جثـة تحـت رجـلي!» .

استدرت وأنا أنظر إلى أرض المنايعة وعُدتُ إلى صراخي:

ــ «انتـوا الـلي طلبتـوا الضبـع يـا منايعـة.. ومعاكـم لآخـر واحـد منكـم!» .

قطـع حالـتي صـوت الأعـيرة الناريـة مـن خلفـي، والـتي اسـتدرت عـلى إثرهـا، وكانـت مـن بندقيـة ((وهيبـة)) وعـلى وجههـا بسـمةٌ لـم أرَهـا مـن قبـل قـط.. أضـاءت لنـا ظُلمـات تلـك الليلـة، وصوتًـا صارخًـا:

ــ» ضبع من يومك يا ((صلاح))» .

ولـم أكُـن أعلـم أنهـا مـا تمتدحـني؛ وإنمـا ذمتـني وذممـت نفـسي مـن قبلهـا بهـذا الاسـم.. هبطـت تهـرول إلى جُثـة ((حسـان)) أمامـي،

تعـالىَ صوتهـا وزغاريدهـا تهليـلًا بثأرهـا وأعيُنهـا تُحيطـني بنظـرات لـم أفهمهـا قـط.. دنىَ مـني ((عبـد التـواب)) وهـو يُمسـك بجلبـابٍ نظيـف وأردف:

ـــ» دلوقـتي تقـدر تغـير جلابيتـك يـا ((صـلاح)).. وفيـت بيمينـك ويمـن بنـت عمـك.. وبـاقي يميـني» .

أنهـى حديثـه وهـو يُشـير إلى زوجتـه، الـتي كانـت قـد أقسـمت بـألا يُدفـن ((عمـران)) قبـل دفـن قاتلـه.. كمـا أقسـمتُ ألا أُبـدل جلبـابي إلا بعـد أن يغـرق في دمـاء قاتـل ابـن عمـي؛ الثـأر لدينـا ليـس فقـط بمقدار الحُـب للقتيـل؛ هـو يتعـدى ذلـك كثـيرًا.. الثـأر لدينـا يعـني المكانـة والمهابـة الـتي تنـشُر الذُعـر في خصومـك الحاليـين والمُحتملـين، الثـأر هـو القـوة، هـو ألا تُعايـر بـه بـين الفينـة والأخـرى..

***

وكلمـا كان عـدد قتـلى الخصـم أكـبر.. زادت الهيبـة والمكانـة! الحـق في الأمـر هـو أن المقتـول لـن يـضُره أن يُعـدم قاتلـه.. أو يدفـع ديـةً، الحـق أحـق أن يُقـال.. الثـأر هـو لحفـظ مكانـة الأحيـاء وسـطوتهُم.. نحـنُ لا نسـعى للانتقـام للقتيـل أو حـتى القصـاص؛ إنمـا نسـعى لحفـر مكانتنـا بقـدر الدمـاء الـتي سـوف نسـفِكها، وهـذا مـا لـم أفهمـهُ في تلـك الليلـة السـوداء الطويلـة، ولا في ليـاليَ أكـثر دمويـةً تلتهـا..

تسـلمت الجلبـاب بقبضـة يـدي وانسـحبت مـن أمامهـم جميعًـا، لكـن إلى أيـن أذهـب مُلطخًـا بـكُل تلـك الدمـاء! مـا هـو السـائل الـذي

يملـك مـن القـوة مـا يُزيـل بهـا عـني تلـك الدمـاء المُتجلطـة عـلى جلـدي! هـل حقًّـا كُنـت الشـيطان في تلـك الليلـة؟ قـررت أن أتحـدى فيهـا أكـبر مخـاوفي ((المسـحور))؟

اتجهـت إلى النيـل أتسـتر بالظـلام الدامـس.. خلعـت ملابـسي بالكامـل.. اندفعـت لهـذا النهـر الـذي لـم أميز حالتـهُ في تلـك الليلـة، أكان هائجًـا غاضبًـا مـن الدمـاء البريئـة الـتي تعلقـت بجسـدي؟ أم كان يتراقـص فرحًـا بمـا فعلـت؟ هـل المسـحور خائفًـا مذعـورًا مـني وغاضبًـا مـن اقتحامـي لعالمـه؟

نزلـتُ إلى المـاء وأنـا أحمـل آخـر مخـاوفي القديمـة.. طهـر المـاء الجـاري والنهـر الـذي لـم أميز حالتـه بـين الغضـب والتراقُـص فرحًـا جسـدي المُلطـخ بالدمـاء، أصابتـني رعشـةٌ قويـة أطبقـتُ عـلى إثرهـا قبضـة يـدي بقـوة لأتمالـك جسـدي، الـذي اقـترب كثـيرًا مـن النهـر.. ولـم أميز حالـتي أهـي رعشـة القـوة أم خـوفٌ أم غضـب!

حـتى الآن أنـا أسرد كُل الحقيقـة ولا شيء غيرهـا عـلى هـذا الشـاب الباحـث عـن الحقيقـة يقـوده الشـغف والشـبق، إلا أني مـا كُنـت لأسرد عليـه بـاقي مـا دار في تلـك الليلـة؛ فقـط تذكرتـه وحـدي، كمـا لـم أذكُـر لـه بعـد ذلـك كُل مـا ترتـب عـلى بـاقي مـا حـدث في تلـك الليلـة، ومـا يتعلـق بـسري فيهـا، طمـس قليـلٍ مـن الحقيقـة قـد يكـون مشروعًـا.. خاصـةً مـا يتعلـق ببـاقي مـا حـدث في تلـك الليلـة وتبعاتهـا..

ما حدث في باقي تلك الليلة هو ملكي وحدي، لم يتأثر بهِ غيري ولم يتأذى بهِ غيري، ولم يسعد بهِ غيري، هو سري ولم أنساهُ يومًا..

فما أن انسحبت من النهر أبحث عن الجلباب الذي أخذته من ابن عمي، لم أعثُر إلا على جلباب الدم! أين وضعت الجلباب النظيف! دُرت حول نفسي عاريًا أبحث بعيني عنه.. أصابتني حالةٌ من الجنون، واشتدت الرعشة في جسدي، وأصبحت قبضتا يدي أقوي في إغلاقهما، وكذلك أسناني التي كادت تطاير من الضغط عليها.. أفزعني صوتٌ يخرُج من قلب حوض الذرة الذي كُنت أمامه.. يفصلني عنهُ خُطوات، وعن النهر الغاضب خلفي خطوات أقل.. تراجعت للخلف خطوةً أو اثنتين، لم أشعر بمقدارهم إلا أني شعرت بالماء أسفل قدمي، وأنا أترقب لمن هذا الصوت الذي لم أميز كلِماته! عاد الصوت من جديد قائلًا:

ـ» الجلابية هنا.. تعالى خُدها« .

كُل ما ميزته هو أن الصوت حنونٌ بالقدر الذي أكد بداخلي أنهُ ليس رجُلًا، وأكد بداخلي أنهُ ليس قاتلي؛ فإن كان صاحب الصوت باحثًا عن الانتقام ما كان ليختبئ؛ بل كان ليُباغتني بنفسه وبرصاصاته.. ترقبت الصوت أكثر.. في كُل الأحوال لم أشعُر بالخجل حتى لم أعلم السبب في عدم شعوري بالخجل! أهو نتيجة استثارت الصوت الحنون، أم أني ما عاد لدي ما أخجل منه!

قتلت أرواحًا بريئة تحت نظر خالقها، هل يُضيرني أن أقف عُريانًا أمام امرأة؟!

تأكدت في تلك اللحظة من سبب رعشتي وغضبة النهر، هي رعشة الغضب والقوة والبحث عن المزيد من الدماء الطاهرة لأتلطخ بها.. وتراقُص النهر سعيدًا بما قدمتهُ له من دماء بريئًا؛ فكان القدماء المصريين يقولون أن النهر يجب أن يُضحى له بأجمل الفتيات العذراوات بإغراقهم فيه.. تأكدت أنهُ في تلك الليلة عاد إلى رغبته القديمة في الدماء.. وهي ما قدمتهُ له..

رفعت جبهتي في تعالٍ.. تقدمت للأمام في قوة باحثًا عن مصدر الصوت وعن جلبابي.. توقفت لا يمنعني عن حوض الذرة سوى خطوةٌ واحدة.. رفعت صوتي بقوة:

ـ« فين الجلابية؟» .

ـ« تعالى أنا هنا» .

كان الصوت أمامي مُباشرةً باتجاهٍ مُستقيم، دلفتُ خطوات قليلة من الذرة وتكشف أمامي صاحب الصوت.. كان يرتدي جلبابي وهو عائمًا بداخله؛ فكان جلبابي كبيرًا على من يضعهُ عليه.. لم أكتشف بعدُ شخصيته؛ إذ كان ضوء القمر ضعيفًا في تلك الليلة ؛ وهو ما دفعني للاقتراب أكثر من وجه مُرتدي جلبابي.. صعقتني رؤيتها وكان صوتي ضعيفًا مُضطربًا بقولي:

ــ» إيه اللي جابك هنا؟ ولبستي الجلابية ليه؟!» .

دنـت مـني لا يفصلـني عنهـا سـوى سـنتيمترات، حـتى شـعرت بأنفاسـها تلسـع صـدري، حـرارة جسـدها تُـدفئ جسـدي العـاري، عـادت بصوتهـا الـذي اسـتثارني بقـوة قائلـة:

ــ» جيت عشانك.. والجلابية أهيه» .

أنهـت كلِماتهـا الـتي أشـعلت جسـدي نـارًا، خلعـت الجلبـاب عـن جسـدها، وهـي تُحافـظ عـلى قُربهـا مـني.. لـم أكُـن أنظُـر إلا لهـذا الوجـه الـبريء الجميـل، يسـتثيرني هـذا الصـوت الخفيـض الحنـون، والـذي أعـادني مـن شرودي وهـي تُلقـي بالجلبـاب أرضًـا قائلـة:

ــ» الجلابية هناك أهيه» .

اتجهـت بنظـري للجلبـاب المُلقـى ولـم أسـتفق بعـد، شـدهني جلبـابي وهـو يقـع عـلى جلبابهـا وملابسـها بالكامـل أرضًـا، هـل تقـف أمامـي عاريـة؟!

عُـدت بنظـري لهـا فـورًا وأنـا أتفحصهـا مـن منبـت شـعرها الحريـري مـارًا لأسـفل.. اعترضتـني تلـك الجبهـة الصغـيرة والوجـه البيضـاوي.. الأعـيُن السـوداء الواسـعة الـتي أغرقتـني في نهرهـا، أنفهـا الدقيـق، تلـك الشـفاه المُكتظـة رغـم صِغرهـا، هـي أشـبه بثمـرتي عنـب صغيرتـين تطالبـاني بعصرهمـا، تلـك الرقبـة الطويلـة الملفوفـة.. كتفـان يقفـان في تفاخُـر بمـا يحمـلان أسـفلهما مـن نهديـن فائريـن مُنتصبـين في

عِـزة، همـا ثمـرتي رُمـان في اسـتدارتهما، وتجـلّي الإبـداع في دقتهمـا.. خـصرٌ مُسـتدير تـدور حولـه حيـاتي بأكملهـا.. تلـك الـسُرّة الدقيقـة.. مؤخـرةٌ مُمتلئـة لا تقـل في عزتهـا عـن النهديـن ولا في اسـتدارتها.. قدمـان مُمتلئتـان ملفوفتـان رغـم رُفعهمـا، وقـدمٌ صغـير..

توقفـت تمامًـا عـن الحركـة والنظـر مـا أن وصلـت لـه، لـم يُعيـدني سـوى لمسـةٌ أشـعلت النـار بجسـدي مـن راحـتي يديهـا الباضتـين، وضعتهُمـا عـلى صـدري واقتربـت مـني، تلاحمـت معـي بهـذا الجسـد البـاض الـدافئ، وضعـت قدميهـا عـلى قدمـي تطأهُمـا، تعلقـت في عُنقـي تطوقـه بذراعيهـا، تحدثـت بـذات النـبرة الـتي تثـيرني، وأنفاسـها الدافئـة تحـرق عُنقـي:

ــ» لمـا شـفتك وانـت مـاشي بعـد مـا خـدت ثـأر أخـوي، عرفـت إن مفيـش راجـل في الدنيـا كُلهـا غـيرك، عرفـت إن ليـا ضهـر في الدنيـا، عرفـت كمـان قـد إيـه نفسي تكـون ليـا لوحـدي، انـت راجـلي» .

ألهبـت جسـدي المُتقـد نـارًا بلسـعاتها لعُنقـي تُقبلـه بشـفتيها المُبللتـين.. إن رأت المـرأة في رجُـلٍ أنـهُ ((رجُلهـا))؛ فـلا تتوقـع ردة فعلهـا أبـدًا! قـد تحـرق العالـم مـن أجلـه، وقـد تحـرق نفسـها في سـبيل أن يكـون لهـا وحدهـا.. أجبتهـا بصـوتٍ مُضطـربٍ خفيـض:

ــ «انـت بنـت عمـي.. وأخـت أعـز واحـد مـن ولاد عمـي عليّـا.. مقـدرش يـا سـماح!» .

لـم تتوقـف عـن تقبيـل عُنقـي تُلهبـني أكـثر فأكـثر، وأجابتـني وهـي لا تنظُـرني بـذات نبرتهـا:

ـــ» اتجـوزني.. أنـا مراتـك، أنـا هعيـش عُمـري كُلـه جنبـك، خـدني في حضنـك يـا صـلاح» .

لـم أعلـم هـل كانـت كلِماتهـا هـي الدافـع أم حـرارة جسـدي المُتقـد مـن إثـارة مُلامسـة أجسـادنا!

***

احتضنتهـا بقـوة وأنـا أعتـصر حبـات العنـب بشـفتاي بقـوة.. ولـم أشـعُر بـذاتي وأنـا أفـض بكرتهـا..

لـم تكُـن تلـك الليلـة الملعونـة تُريـد أن تنتهـي عـلى أكـبر الذنـوب والمعـاصي، لـم تكتـفِ الليلـة بـأن ترحـل وتأخـذ معهـا ذنـبي بقتـل أبريـاءٍ وكفـى، لـم يكتـفِ هـذا النهـر بمـا شربـه مـن دمـاء؛ حـتى يـصرُخ طالبًـا أطهـر الدمـاء مـني.. ضحيـت لـهُ بهـا دون أدنى مُقاومـة باغتسـالنا فيـه بعـد لقائنـا الأول! كمـا أني لـم أُدرك أني قـد ولـدت ضبعًـا إلا عندمـا رحلـت مـن رأت فيَّ رجُلهـا وسـلمتني أغـلى مـا تملكـه امـرأة..

حقًـا ولـدت ضبعًـا.. قتلـت العـشرات.. أبريـاءً.. رجـالًا.. وأطفـالًا.. واختتمـت الليلـة بقتـل شرف فتـاةٍ وأخيهـا في قـبره.. لا أعلـم مـن أيـن أتتـني القـوة والخـبرة في القتـل أو في أخـذ عـرض ابنـة عمـي، أنـا لـم أقـرب القتـل في حيـاتي ولا حـتى امـرأة قـط! كُنـت أُقلبهـا جلـدًا في

مُعاشرتهـا كأني عـاشرت مئـات النسـاء قبلهـا، لـم تكُـن لتقتنـع بإجابـتي لسـؤالها قبـل رحيلهـا وهـي تطـأ أقدامـي وتتعلـق برقبـتي سـائلة:

ــ« انـت عرفـت الحاجـات دي منـين؟ هـو انـت عملـت كـدا مـع حـد قبـلي؟» .

ــ« ولا حتى عُمري فكرت، ولا لمست واحدة» .

هزت رأسها رفضًا قائلة:

ــ« مش مُمكن!» .

ــ« والله ما حصل.. ليه مش مصدقه؟!» .

ابتعــدت عــني.. وقبــل أن تغيــب في عودتهــا للمــنزل التفتــت إليّ وأردفــت:

ــ« لـو كلامـك صـح؛ يبقـى أنـا عرفـت أكـون مراتـك.. وقـدرت أخليـك راجــلي» .

ألقـت أخـر كلِماتهـا وغابـت.. بالتأكيـد مـا كانـت لتُصـدق أني لـم أمـس امـرأةً قـط قبلهـا، ولـو أنهـا علِمـت أن مـا فعلتـهُ ناتـج رغبـةٍ قويـة اسـتثارتها بداخـلي في أن تكـون هـي المـرأة الوحيـدة في حيـاتي، وأنهـا هـي مـن حركتـني بإذابتهـا لروحـي عشـقًا فيهـا؛ بالتأكيـد كانـت لتسـعد كثـيرًا.. هـذا مـا لـم تؤمـن بـه في تلـك الليلـة.. هـي ذات الليلـة الـتي لـم يكُـن الشـيطان حـاضرًا فيهـا، كُنـتُ أنـا الشـيطان ذاتـه!.

لـم تُـشرق شـمس اليـوم التـالي إلا وكانـت أصـوات الصريـخ والعويـل تصـل إلينـا مـن أرض ((المنايعـة)) تخـترق الخـلاء.. أصـوات النسـاء الصارخـة عويـلًا ونحيبًـا عـلى أطفالهـا وأزواجهـا كانـت تُشـعرني بالقـوة؛ كُنـت أردد الصرخـات المجنونـة وأنـا أحمـل بُندقيـتي بعـد أن رحـل الجميـع لدفـن ((عمـران)) أسـفل الجبـل باتجـاه أرضنـا الجديـدة.. مـا كُنـتُ لأذهـب معهُـم أودعـه بعدمـا فعلـتُ في عـرض أختـه بالأمـس.. كانـت صرخـاتي:

ــ» أنـا الضبـع الـلي يتّـم ولادكُـم.. أنـا الضبـع الـلي رملكُـم.. أنـا الضبـع قطـع نسـلُكم.. أنـا الضبـع الـلي مـش هيخـلي واحـد منكُـم» .

أنهيـت صرخـاتي المجنونـة عـلى إطـلاقٍ كثيـفٍ للنـار مـن بُندقيـتي، عـمّ بعـدهُ الصمـت في ((المنايعـة)).. لا أعلـم لـمَ صمـتن فجـأةً، هـل رهبنـني بالدرجـة الـتي مـا أن سـمعن صـوتي فصمـتن؟ هـل يُدبـرن أمـرًا أجهلـه لقتـلي؟ لـم أعلـم السـبب لصمتهـن! مـرّت سـاعات قليلـة وكُنت أرابـط بجـوار ((عبـد التـواب)) الـذي لحـق بي فـور انتهائـه مـن الدفـن، لحـق بي عـلى طـرف النيـل قُـرب مـرسى القـوارب لأرضنـا وبـادأني سـائلًا:

ــ» باقي معاك كام طلقة؟» .

التفت إليه وأجبتهُ بقوة:

ــ» أربع خزن»

ما كُنت لأحتاج بحثًا أو تفتيشًا عما أملكهُ من رصاصات؛ أنا أحفظها عن ظهر قلب.. وهي مئة وعشرون طلقة لا أملك غيرهم!

هز رأسهُ رفضًا وأطبق شفاه بقوة شاردًا في النيل، ثم عاد والتفت إليّ وتحدث:

ـ» كُل اللي عندي ومع وهيبة زيُهم بالظبط، لا والأهم إحنا كُل اللي معانا أربع بنادق.. ((المنايعة)) لسه سرقاهُم السكينة؛ أول ما يفوقوا هتلاقيهُم بيضربوا علينا من كُل حتة، ومش هنعرف نرُد.. أنا غلطت لما بعت السلاح كُله، كان لازم أعمل حساب يوم زي ده» .

ـ» طيب والعمل؟ هو انت متعرفش تجيب سلاح من المكان اللي عمك كان بيجيب منهُ السلاح؟» .

اتسعت حدقتا عينيه وهو ينظر لي وأجابني:

ـ» أنا عارف المكان والناس كمان، لكن ده في السودان يعني هحتاج مش أقل من أسبوع، والأهم الناس دي محدش فيهُم يعرفني» .

ـ» طيب يعرفوا ((محمود))؟» .

ـ» لازم يكونوا عارفينُه، لكن أنا عُمري ما أديه الأمان يروح لوحده» .

تذكـرت كلِماتـه لي مـا أن وطـأت قدمـهُ الأرض هُنـا.. بالتأكيـد أن ((عبـد التـواب)) لـم يسـمعها وإلا لـكان قتلـه، إلا أنـهُ بالتأكيـد كان يشـعُر بـشيءٍ، أو أنـهُ مـا يـزال يُحافـظ عـلى كُرهـه لـه ولأبيـه؛ وكان يجـب أن أجـد مخرجًـا.. ولذلـك كان الحـل الـذي قلتـه بقـوة:

ــ» طيـب اسـمع.. انـت تاخـده معـاك وتتحـرك دلوقـتي، يعرفـك عـلى النـاس هنـاك وترجعـوا مـع بعـض، ودي تكـون آخـر مـرة يـروح فيهـا.. طبعًـا مـن غـير مـا نعرفـه.. إيـه رأيـك؟» .

ربت على كتفي بقوة وأردف:

ــ» موافـق.. لكـن قبـل مـا أمـشي لازم أأمـن لكُـم الـلي يكفيكُـم في الأسـبوع ده» .

ــ» منين يا عبد التواب؟!» .

انتفض واقفًا بقوة وأخذ يرفع صوته بقوة: «((حسان))» .

((حسـان)) هـو أحـد أقـرب أبنـاء عمومتنـا القادمـين معـه إلينـا، هـرول إلينـا مُسرعًـا، وتوقـف أمامنـا يلهـث مـن هرولتـه.. وقبـل أن يسـتجمع أنفاسـه أردف:

ــ» نعم يا كَبير» .

ــ» اسـمع يـا حسـان.. انـت هتطلـع مـن هنـا بالمركـب وتـنزل عـلى نجـع ((عبـد السـلام)) في أسـيوط، دور عـلى واحـد اسـمه ((سـلومة))..

أول ما تقابله قوله «السبع بيقولك محتاج عشر بنادق، وعشر زنكايات، الدليل سلامك على الأموات في القبر» .. ثم ربت على كتفه بقوة واستطرد:

ــ» إياك تنسى كلمة.. فاهم؟» .

هز رأسهُ إذعانًا وأجابه:

ــ» أمرك يا كَبير» .

تحرك القارب من أمامنا وما تزال الشمس لم تشتد بعد؛ ما زلنا في ساعات الصباح الأولى، بينما تحرك القارب.. سألته وأنا أُراقب القارب الراحل:

ــ» فِكرك ((سلومة)) هيبعت السلاح اللي طلبته؟» .

أجابني وهو يرقُب النهر دون النظر إليّ وأردف:

ــ» سلومة هيبعت اللي طلبته؛ لأنه عارف إن أنا الوحيد اللي أقدر أجيبله كُل السلاح اللي هو محتاجه لبيعُه و لحمايته كمان.. أنا خوفي ((حسان)) ينسى كلمه من اللي قولتها؛ ساعتها سلومة هيقتلُه» .

قاطع حديثهُ اقتراب قاربٍ كبيرٍ من أمامنا.. لهُ مُحرك بالديزل تعلو منه الأدخنة، ويقف على مقدمته رجُلٌ بدا ليس صعيديًا من ملابسه، وبدا من قفزته أمامنا شابًا أوأحد ضباط ((الحكومة))..

الحكومة هنا ليست وزراءً أو مُحافظين أو أي شيء؛ ((الحكومة)) هنا هي ((الشرطة)) فقط..

توقف أمامنا ونحنُ نحمل بنادقنا على أكتافنا.. كان طويل القامة قوي البنية، لهُ بشرةٌ احترقت من التعرض للشمس، وجهه طويل.. لهُ حركةٌ مُميزة وهي الشهيق بجانب أنفه الأيسر قبل الحديث و بعده وأثنائه، كأن الرجُل يتجرع مُخدرًا في الهواء لا نشتمه.. توقف أمامنا ورفع بنطاله وهو يتعمد إظهار مسدسه لنا، نظرنا بعينين ميتتين ثم أردف:

ــ» مين كَبير ((البندارية)) هنا؟» .

رفع جبهته وأردف:

ــ» أنا.. عبد التواب البنداري» .

هز رأسه قبولًا واستطرد:

ــ» أنا المقدم ((علي مخيمر)).. مفتش مباحث المخدرات في مديرية الأمن، تحب نتكلم لوحدنا ولا نتكلم قصاد راجلك؟» .

ــ» اتكلم يا باشا.. إحنا راجل واحد مش اتنين» .

ــ» يبقى أدخُل في الموضوع على طول.. أنا عارف اللي حصل بينكُم وبين المنايعة؛ مليش دعوة بالسلاح ولا بأي حاجة حصلت أو هتحصل.. المهم عندي تعرف حاجة مهمة، أنا مهمتي.. مفيش مخدرات في المحافظة، قانوني مش قانوني.. مخدرات لأ! أنا عارف

كويـس إن البنداريـة لا ليهُـم في المخـدرات ولا بيشـتغلوا فيهـا، ده المهـم عنـدي.. تشـيل المنايعـة مـن عـلى الأرض خالـص انـت حُـر، المهـم عنـدي محـدش يرجـع مكانهـم يشـتغل في المخـدرات، لا همـا ولا غيرهُـم » .

كُنـا نلتقـم حديثـه بـشره، إلا أني لـم أفهـم إلى مـا يرمـي، حـتى قاطعـه عبـد التـواب بقـوة بقولـه:

ـــ» تعـرف إن البنداريـة عُمرهُـم مـا اشـتغلوا لحسـاب حـد ولا متعرفـش؟» .

أجابهُ بثقة:

ـــ» وهـو أنـا قولتلـك اشـتغل عنـدي! كُل الحكايـة أنـا هغمـض عيني عنكُـم، وفي المقابـل انـت تقـدر تـرُد الجميـل وتخلصـني مـن المنايعـة وتمنـع غيرهُـم عـن المخـدرات.. طلبـاتي كبـيرة عليـك؟» .

تعالت ضحكاته بقوة وأجابه:

ـــ» يـا باشـا الأول كـدا انـت ملكـش عنـدي جميـل، انـت عـارف كويـس إنـك يـوم مـا هتيجـي هنـا عشـانهُم لا احنـا هنشـتكي ولا همـا؛ احنـا بنحـل مشـاكلنا بعيـد عـن الحكومـة.. ولـو عـلى السـلاح انـت عـارف اننـا لا بنسـلم بندقيـة ولا بنسـلم واحـد مـن ولادنـا، لكـن أنـا أقـدر أعملـك الـلي انـت عايـزه، كُل حاجـة وليهـا ثمـن» .

فتح يديه يلتقم الحديث وأجابه:

ــ» وأنا موافقك في كُل اللي قولته.. نبدأ من الأول، أنا مش عايز مخدرات في ((قنا)) طول ما أنا هنا، طلباتك إيه؟» .

كُنت أقف مذهولًا من قوة ((عبد التواب)) وإذعان الضابط له؛ لم أكُن أعرف بعد أهو إذاعنًا بالواقع؟! فكُلما كانت العائلة أو القبيلة هنا كبيرة؛ تراجعت أمامها الحكومة كثيرًا..

السؤال الأهم هو ما الذي قد يطلُبه ((عبد التواب)) منه؟ لم انتظر كثيرًا لكشف طلبه.. أشار باتجاه الجبل خلف المنزل وأردف:

ــ» الأرض» .

ــ» أرض إيه؟» .

ــ» أنا عايز ورق رسمي للأرض بعد الجبل، ومحطة مياة توصل المياه لضهر الجبل» .

اتسعت عيناه وأجابه مشدوهًا:

ــ» لكن دي صحراء!» .

ــ» هو ده طلبي» .

هز رأسه قبولًا وبسط يده لتلتقي بيده وأردف:

ــ» يبقى اديني شهر بالكتير.. وأكون خلصتلك العقود من المحافظة وجهزتلك كُل حاجة.. لكن اسمع هو انت تعرف إن الريس اتقتل؟» .

تعالت ضحكاته بقوة وأجابه:

ــ» وانا مالي، هو كُنت أنا اللي قتلته!» .

ـــ» البلـد كُلهـا مشـغولة، فرصتـك تشـيل الأرض دي بالـلي عليهـا؛ محـدش فـاضي.. فاهمـني؟» .

أنهـى حديثـه وهـو يُشـير بسـبابته لأرض المنايعـة.. ثـم قفـز إلى مركبـه ورحـل..

التفت إليه سائلًا:

ــ» الظابط ده عايز إيه مننا؟» .

استدار إليّ واتسعت عيناه قائلًا:

ـــ» الظابـط ده عايزنـا نخلص على المنايعـة كُلها، ونقطـع المخدرات عـن البلـد كُلهـا.. واحنـا كـدا كـدا هنخلـص عـلى المنايعـة، والمخـدرات لا بنشـتغل فيهـا ولا حـتى عايزنهـا جنبنـا.. المصلحـة اننـا نعمـل الـلي احنـا عايزِينـه وناخـد منـه الـلي احنـا عايزينُـه بـردوا؛ عشـان كـدا أنـا خلصـت حكايـة الأرض.. المهـم دلوقـتي لازم أجهـز أنـا و((محمـود)).. أنـا مـش هتحـرك قبـل مـا يوصـل ((حسـان))، المفـروض يكـون هنـا العشـاء بالكتـير» .

ألقـى حديثـه ورحـل، لـم يُخـبرني إلى أيـن ولكـني كُنـتُ أعلـم.. هـو راحـل إلى عالـمٍ مـا أن تضـع قدمـك فيـه حـتى تكون العـودة مُسـتحيلة؛ عالـمٌ لا يفهـم إلا لُغـةً واحـدة ((الـدم))، هـي دينـه وقانونـه ومبـدأه

وهدفـه.. هـو عالـم تجـارة السـلاح! كان دليلـهُ فيـه ((محمـود)) الـذي تركـني ورحـل بحثًـا عنـه..

انشـغلت كثـيرًا في حديـث هـذا الضابـط.. هـو يطلُـب منـا تأديـة مـا نعلـم، ويعلـم جيـدًا أنـهُ غـير قـادرٍ بحكومتـه كاملـةً عـلي تنفيـذه؛ فالصعيـد هـو مجموعـة مـن الـدروب القاتلـة والمتاهـات، الـتي يفقـد الغريـب فيهـا نفسـه حـتى يفـنى؛ لذلـك هـو يطلُـب منـا تأديـة دوره..

بالقطـع نحـنُ لسـنا ملائكـة ولكننـا لم نقبـل يومًـا بتجـارة المُخدرات ولـم نسـمح لأحـدٍ مـن أبنـاء ((البنداريـة)) بالعمـل فيهـا أو مُجاورتهـا لأراضينـا مُطلقًـا! نحـنُ نـرى فيهـا ذهابًـا للهيبـة وللعقـول، ونـرى فيهـا حرامًـا مُطلقًـا وذنبًـا لا يعلـوه ذنـب! تجـارة السـلاح لدينـا لـم تكُـن يومًـا ذنبًـا أو حرامًـا، فهـي تجـارة مثـل تجـارة السـيوف في عهـد النبـوة، وإن اسـتخدمت للقتـل فالذنـب فيهـا والحـرام هـو للقاتـل وليـس للبائـع.. هـذا هـو اعتقادنـا ومبدأنـا..

أمـا عـن إغمـاض عينيـه عنـا.. هـو يعلـم ـ ونحـنُ نعلـم أنـهُ يعلـم ـ أن الحكومـة لا تملـك القـوة ولا الرغبـة في أن تفتـح أعيُنهـا علينـا؛ هـم يعلمـون أنهـم إن انفتحـت أعيُنهـم لـن تـرى جنـة، لـن تجـد هُنـا سـوى جحيـم جهنـم الـذي رسـخوا لـه حـتى ننشـغل عنهُـم وينشـغلون عنا..

المبـدأ السـائد هنـا في حيـازة السـلاح.. هـم يعلمـون أنـك تملكـه ولكـن دون ورقـة قانونيـة، وعندمـا يُطلـب منـك تسـليم قطعـة سـلاح تُلـبي نـداء تقديـم فـروض الطاعـة والـولاء؛ وهـو مـا لـم تكُـن

((البندارية)) يومًا تُقدمه.. لم تُقدم يومًا قطعة سلاح ولا فردًا منها كبشًا للتضحية؛ هذا هو السبب في هيبتها، وفي أصله نتيجة أننا لسنا بضعة مئات ولا آلاف، نحنُ نتعدى مئات الآلاف؛ الكثرة تغلبُ الشجاعة.. هي حقيقتنا، والحقيقة الأهم هي أن مئات الآلاف منا على قلبِ رجُلٍ واحد يأتمرون بأمره، وهذا هو أقصى مخاوف الحكومة منا!

ولذلك دُون العهد بيننا وبينهُم مُنذ القدم دون أوراق، لا نقترب منكُم ولا تقتربون منا.. إلا أننا بعد ذلك تمددنا لأكثر بكثير؛ لم نعُد كبار البندارية الذين فاقت أعدادهم مئات الآلاف فقط، امتدت سطوتنا لقيادة عائلات أكبر وقبائل أكبر؛ كان ذلك كُله نتيجةً لما يحدُث هنا الآن..

قتل الرئيس! لم يشغلنا يومًا من يحكُم في الأعلى؛ لأننا وببساطة نملك حاكمنا هُنا منا.. الضابط كان يرمي من حديثه أن كُل ما سوف نفعله هنا الآن لن يلحظهُ أحدٌ، ولن ينشغل به أو يُعيره اهتمامًا، هم بالأساس لم يُعيرونا اهتمامًا يومًا ولم ينشغل بنا أحد؛ ولكنهُ تأكيدٌ لما هو مؤكد.

***

٦

..تجارة الدم..

انقـضى عـليّ النهـار بأكملـه وأنـا أُرابـط في موقعـي ناظـرًا لأرض المنايعـة بعـينٍ، والأخـرى تنتظـر ((حسـان))، لـم أشـعُر بتعامـد الشـمس عـليّ ولا بغيابهـا، ولـم يهتـم أحـدٌ أيضًـا لغيـابي؛ فـكان مـا يشـغل الجميـع هُنـاك التحضـير لرحيـل ((عبـد التـواب)) بصُحبـة ((محمـود)) إلى رحلـة الـدم.. هـدأت حـرارة الشـمس كثـيرًا عـلى جسـدي وصعقـني صـوتٌ مـن خلفـي قائـلًا:

ــ«أنا جبتلك الغدا».

يـدو أن هُنالـك مـن يهتم لأمـري، يبـدو أن الجميع لم ينشـغل عني حقًـا كمـا كُنـتُ أظـن.. اسـتدرت باحثًـا عـن الصـوت، وقعـت عيـني عـلى امـرأتي الـتي كانـت تختـال بجمالهـا في حركتها، تُخفـي كافة معالمه أسـفل جلبابهـا الفضفـاض الأسـود والشـال على رأسـها.. وضعت لفـة الطعام أمامـي أرضًـا، وجلسـت إلى جـواري تُلامسـني بكتِفِهـا وأردفـت باسـمةً:

ــ«صباحيـة مُباركـة.. لكـن هـو في عريـس في الصباحيـة يفضـل طـول النهـار بعيـد عـن مراتـه وماسـك بندقيتـه؟!»

التفت إليها مُتجهمًا يجتاحني الغضب الذي بدا في حديثي:

ـ«وهـو في واحـدة لسـه دافنـه أخوهـا تسـأل عـلى صباحيـة! مـش كفايـة الـلي عملنـاه امبـارح! هـو الـلي مـات ده مـش أخـوكي ولا كان كلـب؟! أنـا مـن امبـارح عايـز أضرب نفـسي عيـار.. انـتي شيطانه.. مـش عـارف ازاي خلتيـني عملـت كـدا امبـارح!!»

لـم أكُـن أشـعُر وأنـا أُحادثهـا أن كلِمـاتي كانـت أقـوى مـن أن أُطلـق عليهـا خزانـة بُندقيـتي بالكامـل في صدرهـا؛ انفجـرت دموعهـا تتـلألأ عـلى وجنتيهـا، وأجابتـني بصـوتٍ يقتُلـه الدمـع:

ـ«انـت حقـك تقـول أكـتر مـن كـدا، مفيـش واحـدة تفـرط في عرضهـا لراجـل إلا ولازم تكـون عارفـة إن دي النتيجـة؛ لكـن أنـا لأ، الـلي مـات مـش أخويـه ومـش كلـب، ((عمـران)) كان أبويـه وأخويـه وحبيـبي.. كان راجـلي! لمـا حضنـت جُثتـه.. اتحطـت في قلـبي جمـرة نـار، حسـيت إني لا يُمكـن الفـرح يدخُـل قلـبي بعدهـا تـاني لحـد مـا أمـوت، ولمـا انـت جبتـلي حقـه وشـفت جثـة الـلي قتلـه؛ انطفـت جمـرة النـار وقلـبي بـرد، حسـيت بفرحـة شـالت الحُـزن مـن قلـبي لحـد مـا أمـوت، وإحسـاسي الـلي حسـيته لحظتهـا هـو نفـس الـلي انـت حسـيته بعـد مـا شـفت جلبيتـك عـلى الأرض..

انـت قدمتـلي مهـري بـدم الـلي قتـل أخويـه، وأنـا قبلتـه، وعـرضي هـو عرضـك لأني شـفت إني مراتـك وان ده حقـك.. ولمـا دفنـت أخويـه النهـاردة كُنـت بتقطـع وبمـوت، والحاجـة الوحيـدة الـلي صبرتـني انـت!

وأنا معاك امبارح لا كُنت بفكر ولا كان يهمني إنك تشوفني شيطانه من جهنم ولا حورية من الجنة!».

رحلت ودموعها قد جفت على وجنيتها، استبدلت بدموعها التي بدأت بها حديثها غضبًا عليّ كاد يحرقني.. إن الطير عند ذبحهِ يرقُص من شدة الألم؛ هي جُملة انطبقت على ما فعلته بها.. لم أدرك وأنا أحادثها أني أذبحها بسكينٍ بارد؛ فالمرأة حينما تفتقد رجُلًا في حياتها هو بالأساس محور تلك الحياة؛ قد تفعل ما هو مستحيل للبقاء بجوار ((رجُلٍ)) أشعرها أن حياتها محوره، وإن كان يفعل ذلك دون قصد!.

رحلت غاضبةً مني حقًا بعد ذبحها، ولكنها لم تعلم أنها رحلت وقد ملكتني بحديثها! إن غاية ما يسعى لهُ الرجُل امرأةٌ تَملُكهُ وتُمَلِّكهُ لها بقوة؛ هذا ما قدمتهُ لي.. هي ملكتني بحديثها الذي اخترق قلبي، وملكتني لها بما فعلتهُ معي بالأمس..

المرأة دائمًا ما تُحافظ على أغلى ما تملكهُ وهو عرضها لرجُلٍ هو محور حياتها، وهنا المرأة تُحافظ عليه لتبقى حيةً!.

المرأة هنا مُتيقنة أنها لا يُمكن أن تُخطئ، عرض المرأة هنا حياتها؛ إن فقدتهُ فقدت نفسها! هي لم تُضحِّ لي بعرضِها وإنما وهبتني حياتها لأملكها؛ فملكتني.. رأت فيَّ زوجها الذي بذل إليها مهرها الغالي والنفيث وهو الثأر، رأت أن عرضها هو بالأساس عرضي وهي صادقة وتلك هي الحقيقة.. ما شتت تفكيري ومنطقي

هـو توقيـت اكتشـاف حقيقـة منطقهـا، والـذي يترسـخ داخـل الجميـع هنـا رسـوخ الجبـال في الأرض، العـرض عـرضي ولـم انتهكـه! قـد نكـون أخطأنـا وشردنـا بعيـدًا عـن القاعـدة.. إلا أن لـكُل قاعـدةٍ اسـتثناء، وحالتنـا أحـد تلـك الاسـتثناءات..

غابـت الشـمس ومـا زلـت أحافـظ عـلى جلسـتي وصيامـي عـن الـكلام والطعـام، وصـل ((عبـد التـواب)) لينضـم إليّ مُجـددًا، لـم يتفـوه بكلمـةٍ واحـدة وظـل شـاردًا مثـلي يترقـب عـودة ((حسـان))، الـذي كان يجـب أن يصـل فـور غـروب الشـمس إن أتـم مُهمتـه.. هـل قتلـهُ سـلومة؟ هـل لـم يعـثُر عليـه بعـد؟ هـل اعترضـهُ أحـدٌ في طريـق عودتـه؟ كُلهـا هواجـس كانـت بـرأس كُلٍ منـا لا ينطقهـا، ولكـن كُلٌ منـا يعلـم أنهـا مـا يـدور بـرأس الآخـر..

وكان الهاجـس الأكـبر هـو هـذا الصمـت القاتـل، الوُجُـوم الـذي اجتـاح أرض المنايعـة، هُـم يضمـرون لنـا ترتيبًـا شـيطانيًا يقينًـا.. غَرَنـا الأمـان مـا أن أَلَـمَّ بنـا الديجـور؛ في الديجـور نحـنُ أسـياد الموقـف أيًـا مـا كان ترتيبهُـم الشـيطاني، نحـنُ صيـادو الأرواح في الظـلام.. يبـدو أنهـم كانـوا يعلمـون ذلـك؛ فلـم يصـدُر حـتى الآن أي رد فعـلٍ يُذكـر مـن المنايعـة، ولكننـا كُنـا مُتيقنـين أن هـذا الصمـت لـن يـدُم طويـلًا، عاجـلًا أم آجـلًا سـوف يتَجَشَّـم هـذا الوحـش النائـم نَاشـدًا قصاصـه.

دامَ وجُومنا فترةً لم نُميز مقدارها..

انتزعنا منهُ دنو قاربٍ يتهادى ببطء، يتخفى بديجور الليل، لا يكشفه إلا ضوءٌ خافتٌ من القمر..

توقف القارب وتعصف بنا التَكهُّنات حول من فيه، أقُتل؟ أعاد خالي الوفاض؟ أحقق ما أُرسل من أجله؟ هي لحظات قاتلة لم ولن تدُم كثيرًا؛ إلا أنها تبقى قاتلة..

قفز من القارب مُندفعًا باتجاهنا مُبادرنا قولًا:

ـ«((سلومة)) باعتلك السلام يا كَبير، وبيِقولك ((اوعى تنسى تسلم على الأموات))».

لم أتفهم في البداية الحماسة التي دفعته للضرب على كتف حسان بقوة باسمًا في وجهه وهو يصرُخ له:

-«سبع يا ابن عمي، سلمك السلاح؟».

ـ«أيوه يا كَبير، وبيِقولك أول ما تخلص سلامك جهز لهُ قبر جديد».

هز رأسهُ قبولًا وتفهُمًا وأجابه:

ـ«نزل السلاح من القارب».

عكفنا على إنزال البنادق العشر من القارب، وكذلك عشرة صناديق ذخيرة تحوي عشر آلاف طلقة.. حمِلناهُم إلى مخزن السلاح بالجبل على مرتين، ما كُنت لا أنا ولا عبد التواب نأمن أن

يعلـم أكـثر منـا نحـن و((حسـان)) مخـزن السـلاح؛ حـتى أن محمـود لـم يكُـن يعلمـه.. أشـار إلى حسـان بالعـودة إلى المـنزل، تأكـد مـن رحيلـهُ واسـتدار إليّ مُمسـكًا كتفـي بكلتـا يديـه قائـلًا:

ـ«اسمع.. الـكلام الـلي سـلومة باعتـهُ معنـاه إنـهُ عايـز مـني سـلاح قـد الـلي بعتـه كُلـه، واحنـا منقـدرش نقـول لأ؛ لأن هـو موّلنـا بالسـلاح الـلي طلبنـاه.. مُـش ده الـلي شـاغلني، الحاجـة الوحيـدة الـلي شـغلاني المنايعـة؛ بالكتـير عـلى الفجـر وضرب النـار عليكُـم هيكـون مـن كُل حتـة؛ انشـف يـا صـلاح لحـد مـا أرجـع، اوعـى تتكـسر.. فاهـم يـا صـلاح؟ اوعـى وعرضـك يـا صـلاح!!».

فهمـت كُل مـا أراد قولـه، مـا طلبـه هـو الصمـود والجلـد حـتى عودتـه.. بالتأكيـد في مُبادلـة إطـلاق النـار يصعُـب إسـقاط أحـد الطرفـين؛ إنمـا مـا يخشـاه هـو حالـتي مـن التمـادي الـتي تفاجـأ بهـا؛ فأفقـد مخزوننـا مـن الذخـيرة ويطبـق عـليَّ الوحـش الهائـج أنيابـه.. هـو يُريـد المُماطلـة واسـتنزافهم وكفـى.. هـو ليـس طلبًـا أو نصيحـة بقـدر مـا هـو تحذيـر؛ لذلـك أجبتـهُ بقـوة:

ـ«اطمن، هترجع تلاقينا واقفين على رجلينا».

ربـت عـلى كتفـي بقـوة ورحـل.. رحـل دون النظـر إليّ أو التفـوه بكلمـةٍ واحـدة.. هـو عـلى يقـين بـأن مـا سـوف يحـدُث فـور رحيلـه مـا هـو إلا مجـزرةً يأمـل أن أنجـو وتنجـو معـي منهـا زوجتـه..

رحيلهُ هو مُجبرٌ عليه لا هربًا؛ ما نعلمهُ جيدًا عن المنايعة أن ما يملكونه من سلاح ومال من التجارة وزراعة المُخدرات كفيل لقتالنا قتال جيوش أشهُرًا! ونحن لا نملك السلاح لمُواجهتهم ولا الوقت! لذلك أُجبر على الرحيل جبرًا، وقد يكُن أُجبر على إحضار السلاح لسلومة ردًا لما فعله..

ولكننا لم نكن مُجبرين قط على الغوص في تجارة الدم، بل والتحكُم بها.. بل فُقنا كُل ذلك حتى انتهينا إلى أن كُل رصاصةٍ تدخُل للبلاد لا تمُرّ إلا بأمرنا..

عُدت إلى داخل المخزن على ضوء ((كلوب))، وهو مصباحٌ حراري يعمل على وقود الكيروسين، ما يعيبه هو ضرورة تغيير ((الشاشة))، وهي القطعة التي تحترق لتُجعله يُضيء كثيرًا؛ إلا أنهُ فعال ولهُ ضوءٌ قوي..

دُرت على البنادق الجديدة الواحدة تلو الأخرى؛ أتأكد من صلاحيتها وجودتها، علقت ثلاث بنادق منها على كتفي، وحملت بين ذراعي أحد صناديق الذخيرة، وعُدت بهم إلى موقعي الذي أُرابط فيه أمام أرض المنايعة، مُتسترًا بحوض الذُرة أختفي بداخله وأجعل منهُ مخزنًا لسلاحي وذخيرتي.. كان الطريق طويلًا مُنهكًا بأحماله وبالتفكير في المذبحة القادمة..

أعدتُ الكرة في العودة للمخزن وحمل صندوقين ذخيرة والعودة بهم إلى موقعي، قمت بتذخير خزائن البنادق الثلاث وبُندقيتي،

وكذلـك الخزائـن الاحتياطيـة والبالغـة سـت خزائـن، مـا أن انتهيـت.. بـدأت أشـعُر بألـمٍ رهيبٍ في أحشـائي يعتصرها عـصرًا، لـم أُدرك إلا الآن أني لـم أطعـم شـيئًا منذُ غـداء البارحة ظُهـرًا.. إن أحشـائي تُلقنني درسًـا مؤلمًـا عـلى تجويعـي لهـا، لـم يكُـن هـذا فقـط مـا لـم أُدركـه فـور أن تركـت موقعـي مُندفِعًـا للمـنزل أبحـث عما أُسـكت بـهِ صرخات أحشـائي، لا أعلـم لـمَ قـررت أن أسـتدير ناظـرًا لموقعـي ومُعاينته بعـينٍ بعيدة..

الـشيء الآخـر الـذي أدركتـهُ بتلـك النظـرة الفاحصـة؛ حقًـا وُلـدت ضبعًـا! ليـس فقـط في شراهـة القتـل ولا دمويتـه، ولا في إباحـة عِـرض سـماح؛ بـل تماديـت في ذلـك حـتى اخـترت هـذا الموقـع دون أيـة خـبرة؛ لأكتشـف مـن تلـك النظـرة مـدى كفاءتـه، هـو أعـلى نُقطـة في أرضنـا وأقربهـا مـن أرض المنايعـة، مـن يتمركـز بداخلـه يتحكـم بمرفـأ القـوارب غـير المُمهـد، الـذي لا يحـوي أيـة تجهـيزات، هـو الموضـع الوحيـد المُطـل مـن أرضنـا بشـكلٍ خفيـض يسـمح أن تـرسي القـوارب عليـه..

إذًا فأنـا مـن موقعـي أُشرف عـلى كُل مُحاولـةٍ للالتفـاف علينـا مـن النهـر، وكذلـك أتحكـم منـهُ في كُل مُحاولـة اخـتراق مـن المنايعـة إلينـا؛ أتسـتر فيـه بالـذُرة المُرتفعـة فأُصيـب ولا أُصـاب، لا يُمكـن لأحـدٍ منهُـم اختراقنـا طالمـا أُرابـط في موقعـي؛ لا طريـق ولا أمـل لهُـم باختراقنـا مـن الخلـف فهـذا الـدور يؤديـه عنـا في منعهُـم الجبـل، لا طريـق لهـم إلينـا إلا اخـتراق الأرض أو النهـر!

وهنـا تأكـدت أني حقًـا ضبـعٌ تحـيّن موقعـه بدقـة لحـين وصـول الفريسـة عميـاء، تتقـدم وهـي لا تعلـم أنهـا سَـتغرق في فـخٍ مُحكـم، وأن مُفترسـها أطبـق عليهـا أنيابـهُ ينهشـها، فتَتنبَّـه عـلى آلامٍ رهيبـة بجسـدها ودمائهـا تُغرقـه..

اسـتدرت باتجـاه منزلنـا أندفـع إليـه؛ لأعـود مُسرعًـا لموقعـي.. لا أعلـم مـن أيـن عـم الهدوء هـذا المنـزل الكبـير! يبـدو أن الجميـع نائمٌ، لا يعلمـون أنهـم وخـلال ساعات قليلة سـوف يستيقظون عـلى جحيم!

اندفعـت إلى الـدور العلـوي مُتجهًـا للمطبـخ فيـه، بالتأكيـد هـو زاخـرٌ بمـا يـؤكل بعكـس هـذا المطبـخ بالأسـفل؛ مطبـخ الأسـفل لا يُطبـخ فيـه شيءٌ، ولا يحـوي إلا أكـواب الشـاي، دوره يقتـصر عـلى خدمـة أبنـاء عمومتنـا في تحضـير الشـاي وكفـى.. أمـا مأكلهُـم فيتـم تجهـيزهُ بالأعـلى ويهبـط لهُـم جاهـزًا..

مـا أن بـدأت البحـث عمـا يـؤكل في هـذا المطبـخ الكبـير.. سـقطت الأواني مُحدثـةً جلبـة.. لملمتهـا مُسرعًـا آمـلًا ألا توقـظ أحـدًا!

وقفـت عـلى البـاب تُحدقـني بعينيهـا وتحدثـت برصانـة غـاب مـن صوتهـا هـذا الحنـين المُثـير الـذي يقتُلـني؛ حـتى وهـي تقرعـني بـه اليـوم كان يستثيرني بقـوة، تـلاشى كُلـه مـن نبرتهـا، أجرحتهـا إلى هـذا الحـد! تحدثـت قائلـة:

ــ«أنـا عارفـة إنـك مـن امبـارح من غـير أكل، دقيقـة واحـدة واجهزلك الأكل».

لا أعلـم لـمَ أردت فـور أن نظرتهـا أن أحتضنهـا صارخًـا فيهـا أن تُعيـد إليّ روحـي بنبرتهـا الحنـون؛ لـم أسـتطع حـتى أن أُجيبهـا؛ قطـع الـكلام في حلقـي هـذا الصـوت القـوي مـن خلفهـا قائـلًا:

ــ»ارجع على مكانك يا صلاح، إياك تسيب بُندقيتك من إيدك«.

كانـت تلـك هـي وهيبـة، يبـدو أنهـا لـم تغـفُ لهـا عـينٌ ولا تغفـو لهـا أصـلًا.. لملمـت آلام أحشـائي معـي ولـم أجِبهـا إلا بهـزة إذعـان من رأسي، تحركـت إلى البـاب، مـا أن مـررت مـن جوارهـا عـادت لحديثهـا القـوي قائلـة:

ــ»كُلهـا كام سـاعة وأكـون جنبـك، ابقـى ارتـاح لمـا أجيلـك.. انشـف يـا ضبـع!«.

اخترقــت أُذني كلِماتهــا وتقريعهــا لي، وتحركــت دون أن ألتفــت أو أتنفـس، وأنـا أقـترب مـن السـلالم هابطًـا سـمعت صوتهـا قائلـة:

ــ»جهـزي الأكل للضبـع، تخديـه وتروحـي توصليـه هنـاك؛ احنـا حريمنـا ((رجالـة)) لا بتخـاف مـن الليـل ولا المـوت«.

تراقـص قلـبي بـين ضلوعـي مـن كلِماتهـا لامـرأتي، اعترتـني السـعادة وأنــا أندفــع مُهــرولًا إلى موقعــي؛ امــرأتي ســوف تــأتي إلي تُغرقــني في حنينهـا وتُعيـد إليّ روحـي..

كلمـات وهيبـة لهـا هـي هـذا الدسـتور الـذي نعيـش عليـه وتعيـش عليـه كُل نسـائنا هُنـا؛ المـرأة لدينـا هُنـا عِـزة وشرف وعـرض.. المـرأة

عندنا ما أن تمُر إلا وتنحني لها الجباه إجلالًا واحترامًا.. المرأة هُنا تُصان لا يُمكن أن تُهان؛ لها رأيها المسموع في عائلتها وهي سيدة بيتها.. نحنُ رجالٌ أشداء فأمست نسائنا أشد منا.. حتى أننا في التعليم أثرنا بناتنا على ذكورنا؛ قد لا نهتم بالتعليم الجامعي لذكورنا ولكننا نُصر عليه لبناتنا.. المرأة عِماد المنزل، أم الأبناء ومربيتهُم، حبيبة زوجها وابنته.. المرأة عندنا حياة، ودونها الرقاب، وفي سبيل الحفاظ عليها تُراق الدماء وتُبذل رخيصة.. هذا ما يرسخُ بداخلنا وزكتّه ((وهيبة)) بنهم وقوة..

عُدتُ إلى موقعي أقبض على بُندقيتي وعيناي مُنفتحةً على اتساعها، قلبي يتراقص فرحًا، آذاني تتلهف لنبرتها الحنونة التي تُسعدها.. مرّت عليّ الدقائق أعوامًا حتى وصَلت إلى موقعي.. تصنعتُ الصدمة من قدومها، وما أن سمعت أقدامها خلفي انتصبت واقفًا أُشهر بُندقيتي في وجهها قائلًا: «اخشع مكانك!»

كُنت أهدف إلى رؤية الخوف في ردها، وهو ما لم أجده..! ما كان منها إلا أن تجاهلتني واجتازتني إلى موقع جلوسي وسكنت فيه؛ كأني خيالٌ من العدم لم تلحظه ولم تسمعهُ حتى.. أصابتني الصدمة من قوتها بالوُجوم التام والتصلُب في مكاني، جهزت الطعام وأردفت بذات النبرة الميتة دون أن تلتفت إليّ قائلة:

ـ«هتفضل واقف عندك؟ الأكل هنا مش عندك.. كُل عشان آخد الصحون وأمشي».

علمت الآن لكم كان سكيني باردًا في ذبحها؛ اقتربت منها وأمسكت بمرفقها من الخلف، أنهضتها وأدرت وجهها إليّ، كانت دموعها المُتلألئة على وجنتيها أشد ألمًا من طعني بسكينٍ بارد في سويداء قلبي!! كيف أُرضيها بعدما ذبحتها! قبلت جبهتها وأنا أرتجي منها نظرةً واحدة تُخبرني بها أن غفرتُ لك! ما أن لامست شِفاهي جبهتها ارتمت في صدري تنتحب.. آلامها لم تُشعرها بصرخاتها مُنتحبة ولا بضرب صدري بقبضتي يديها وهي تدفن رأسها في صدري.. كُله كان أقل وطأةً عندي من نظرة القهر التي رأيتها في عينيها ما أن أدرتها إليّ!

انتهت من نحيبها وبكائها واستكانت في صدري، أمسكت بكتفيها بيدي وأبعدتها قليلًا وأردفت بصوتٍ حانٍ:

ـ«يعلم الله إني لما قولت اللي قولته، قولتُه لأني راجلك وعرضك عرضي، وعشان أنا رَاجلِك كُنت بأدب نفسي؛ مش قصدي أوجعك ولا أهينك.. وإن كُنتي قبلتي مهرك مني؛ لازم تعرفي إني كمان شايفك مراتي وبنتي وأمي وأختي، عرضك عرضي.. وعهد عليَّ أخلي راسك مرفوعة طول ما أنا حي».

سكنت جوارحها وعاد حنينها لنبرتها يقتُلني بقولها:

ـ«لما قولتلي اللي قولته الصُبح، حسيت إني خسرت حياتي باللي حصل بينا؛ ولتاني مرة ترجعلي حياتي.. رجعتهالي أول مرة بحق أخويه، ودلوقتي بكلامك اللي رديت بي روحي».

كَفّت عن الحديث وهربت من بين يدي تتبعها عيناي، اندفعت إلى إحدى البنادق وأمسكت بها من فوهتها تتدلى منها؛ فهي لا تعلم شيئًا عن السلاح قط! عادت لتقف أمامي وبصوتها الحاني أردفت:

ـ«علمني أمسك البندقية!».

انفتحت عيناي على اتساعِها مشدوهًا من ما تفعله، سألتها مُتعجبًا:

ـ«ليه يا سماح؟!»

أجابتني بثقةٍ وصدقٍ اخترقا صدري وهي تصُب نظرها على عيناي قائلة:

ـ«انت رجعتلي روحي مرتين، علمني يا صلاح.. عُمري من غيرك ملوش معنى، عايزة أحميك!».

قبضت على البندقية بيدي من يدها ووضعتها أرضًا، رفعت جبهتي وأنا أمُسك برأسها من الخلف، أدنيتها مني لأطبع على جبهتها قُبلة العشق..

إن ما تُحاول فعله هو أقصى ما لم تتمناه يومًا؛ ما أرادت قتلًا ولا تعلُم إمساك سلاحٍ مثل وهيبة؛ كُل ما جاهدت في إظهاره هو عشقٌ لا حدود له، هي تُضحي بكُل ما تملك.. ضحت بأغلى ما لديها بدايةً، وحياتها وكرامتها، والآن لا يعنيها فناءها في سبيل أن تطمئن أنها لن تخسرني..

أما أنا فما كان لي أن أقبل؛ هي الوردة البيضاء الغريبة في غابة برية، إن غابتنا هُنا لم ولن تكُن فيها المرأة بضعفها أبدًا، هي امرأة تمتاز بما ميزها الله به.. الضعف! ما كُنت لأدفعها نحو خسارة ما ميزها الله بها، وهو ما أسرتني به؛ ولذلك هززت رأسي رفضًا وأجبتها:

ــ«لأ يا سماح، انتي لا عُمرك كُنتِ ولا هتكوني زي باقي الحريم؛ مكانك في بيتي مش شايلة بُندقية!».

تململت وأجابتني:

ــ«أنا أصلًا بخاف، لكن خوفي تضيع مني هو اللي خلاني أقولك كدا؛ أنا عارفة إنك راجلي بس خايفة تضيع مني».

ــ«اياكي تخافي طول ما أنا حي».

ــ«طيب تعالى ناكُل، أنا كمان من امبارح من غير أكل».

جلسنا أرضًا نطعم ما لم أميز طعمه ولا نوعه، كُنتُ مُنتشيًا بالحُب الذي يحرق قلبي حرقًا.. ما أن فرغنا من طعامنا وصلت وهيبة، لم نُشعُر بمرور الوقت من نشوة اللقاء. وصلت وكُنا فرغنا ولم تفرغ أفواهنا بعدُ من آخر ما بها من طعام، بادرت بقوتها المعهودة قولًا:

ــ«ارجعي على البيت يا سماح، الصُبح تجهزي الفطار للرجالة مع نرجس، حسان هو اللي ينزلُه، وتجيبي الفطار لصلاح هنا وانا هرجع معاكي.. على البيت على طول».

تلقت الأوامر منها وغابت دون أدنى تعليق..

كان هُنالك حاجزٌ كبيرٌ بيني وبين وهيبة، أنا أفهمه من تجاهي؛ فهي زوجة أخي الأكبر ولديها من القوة ما عمّق هذا الحاجز.. لكن ما لم أفهمه أن هذا الحاجز هو بينها وبين الجميع، حتى سماح وهي امرأة مثلها، كُنت أشعُر أن هذا الحاجز بينهُم أكبر منه بيني وبينها.. قد تكون تلك السبعة أيام فُرصةً لأتفهم فيها هذا الحاجز المُرتفع لما تختفي خلفه.. أمسكت ببُندقيتها وهي تتأكد من جاهزيتها، حاولت بدء الحديث قائلًا:

ـ«ارجعي على البيت يا وهيبة، أنا هنا».

عمِدت إلى بُندقيتها تُكمل التأكُد من جاهزيتها، تجاهلت حديثي وسألتني دون النظر إليّ:

ـ«في كام طلقة هنا معاك؟».

ـ«في تلات زنكايات، وثلاث بنادق غير بُندقيتي وبُندقيتك».

ـ«كويس، غفل شوية، قربنا على نُص الليل؛ كُلها ساعة وتقوم على رصاص المنايعة».

ـ«طيب ارجعي وأنا صاحي».

تركت البُندقية من يدها ورمقتني بقوة وأردفت:

ـ«انـت ضبـع صحيـح، لكـن لازم تنـام عشـان تقـدر تُقـف عـلى رجلـك.. اوعـى تكـون فاكـر إن في حـد مـن الرجالـه هنـا هيُقـف معـاك، الحكايـة أنـا وانـت بس! اسـمع يـا صـلاح، احنـا واقفـين قُـدام المنايعة لا عشـان التـار ولا عشـان خايفـين منهُـم؛ احنـا واقفـين قُدامهـم عشـان نبقـى كُبـار البنداريـة كُلهـا؛ عشـان كـدا احنـا واقفـين لوحدنـا، ولـو المنايعـة كسرتنـا عُمرنـا مـا هنكـون كُبـار، فهمـت يـا صـلاح؟!».

هـززت رأسي إذعانًا لحديثها وبسـطت جسـدي أفـترش الأرض، رقدت أرضًـا عـلى جانـبي الأيسر يحمـل مرفقـي الأيـسر رأسي، أحتضـن بُندقيتي بيـدي اليُمـنى، أغلقـت عينـاي ثـم عُـدت أختلـس النظـر منهـا أُراقبهـا..

لـم تغفـل لهـا عـين، لـم ألمـح خوفًـا منهـا قـط، تقبـض عـلى بُندقيتهـا بقـوة وكأنهـا قطعـةً مـن جسـدها، وتلتفـت بـين الفينـة والأُخـرى تنظُـر مهبـط القـوارب وتمسـح عيناهـا أرض المنايعـة مسح رادارٍ شـديد الحساسـية والدقـة..

غبـت عـن الوعـي ولا أعلـم كـم مـن الوقـت، إلى أن اقتلعـني مـن نومـي هـذا الصـوت المألـوف لأُذني؛ هـذا الصـوت الـذي كُنـت انتظـره.. أخـيرًا نهـض وحـشٌ مـن غفلتـه حسـبتهُ ميتًـا وفقـدت الأمـل في اسـيتقاظه؛ نهضـت المنايعـة بأكملهـا رافعـةً رايـة الثـأر لقتلاهـا..

أطبقـت يـدي عـلى بُندقيـتي ناهضًـا عـلى رُكبـتي منحنيًـا أرضًـا؛ لأسـمع صـوت وهيبـة مـن جـواري تُطالبـني بالصمـت والصبر.. أطلـق المنايعـة العنـان لبنادقهـم بشراهـة، كانـت طلقاتهـم كُلهـا تنصـب

علينـا مـن أرضهُـم وهـم بأحـواض القمـح القريبـة منـا.. جحيـمٌ مُسـتعر، بحـرٌ هائـج تتابـع موجاتـه العاتيـة.. لـم نُطلـق رصاصـةً واحـدة خـلال النصـف سـاعة الأولى مـن ثورتهـم؛ أراد المنايعـة التأكُـد مـن ألا يقـف مـن يمنعهُـم؛ صمتنـا واسـتكانتنا ورسـوخنا في أماكننـا بـلا حِـراك كان دافعًـا لتوهمهُـم بـألا يوجـد عائـقٌ يمنعهُـم عـن التقـدُم.. مـا أن خـرج أربعـة رجـالٍ منهـم يتسـللون مـن حقـل القمـح تجـاه أرضنـا.. أسـقطت وهيبـة منهـم اثنـين برصاصتـين لا ثالثـة لهُمـا، وأسـقطت الآخريـن بخزانـةٍ واحـدة وأنـا أميـل ببُندقيـتي عـلى جانبهـا قاصـدًا تمزيـق جسـدهما.. لـم يعلـم مـن خلفهـم مـن أيـن أتـت الرصاصـات لتُسـقط أربعـةً منهـم مُجـددًا..

***

المعلـوم والمؤكـد عندنـا أن القاتـل لا يقتُـل مـن لـهُ ثـأرٌ عنـده، يمنعـهُ فقـط لكـن لا يقتُلـه؛ أمـا نحـنُ فرسـخنا لمبـدأ مـا أن تلعـب مـع الشـيطان سـوف يحرقـك بنـاره..

ثـار جنونهـم في إطـلاق النـار وصرخاتهـم تصـلُ إلينـا.. ((شـياطين))! هـم لا يعلمـون أيـن هـؤلاء الشـياطين الـذي أسـقطوا أبنائهـم الأربعـة أمـام نواظرهـم، رغـم مـا مهـدوا لـه مـن إطـلاقٍ مُكثـفٍ للنـار؛ لـم يعتقـدوا قـط أننـا بـشرًا! كانـوا يظنوننـا شـياطين تتخفـى!

قتـلي لأطفالهـم والقضـاء عـلى نسـلهم بالكامـل، واقتحامـي لأرضهـم وقتـل قاتـل عمـران وأخيه، قتـل أربعةً مـن أبنائهـم المُرابطين

في بدايـة الأمـر بأرضهـم، وكان آخـر مـا شـده عقولهُـم إسـقاطنا أربعـةً مـن أبنائهـم أمـام أعيُنهـم..

بعـد هـذا التمهيـد الكفيـل بإبـادة أيـة روحٍ أمامهـم؛ لـم نتفـوه بكلمـة واحـدة لا أنـا ولا وهيبـة! كان صمتنـا هـو أقـوى سـلاح لنـا أمامهُـم، وهـو مـا قتلهُـم؛ جُنـت عقولهـم وبنادقهُـم إطلاقًـا للنـار تجـاه أرضنـا بـلا انقطـاع.. معركـةٌ حربيـة كاملـة لا تنقطـع، ولـم تُحسـم نهايتهـا بعـد..

مـرّ أكـثر مـن سـاعةٍ كاملـة عـلى إطلاقهـم للنـار بـلا توقـف، ثـم هـدأ قليـلًا وكأن هُنالـك تقسـيمًا للمُهاجمـين قـد تـم بداخلهُـم.. تفهمـت خُطتهُـم مـن فـوري؛ حقًـا لقـد ولـدت ضبعًـا! وخـزت وهيبـة في كتفهـا بسـبابتي؛ اسـتدارت إليّ برأسـها سـائلةً بعينيهـا عمـا أُريـد؛ همسـت بصـوتٍ بالـكاد سـمعَتهُ:

ـ«قسموا بعضُهم، جايين من البحر؛ احمي ضهري!».

هـزت رأسـها تفهُمًـا.. اسـتدرت زاحفًـا عـلى رُكبـتي ناظـرًا النهـر مُنتظـرًا قدومهُـم.. صـدق توقعـي لـم تمُـرّ دقائـق معـدودة حـتى تهـادى قـارب عليـه ثلاثـةٌ منهُـم.. هبـط اثنـان وبقـي ثالثهُـم يؤمـن ظهورهـم؛ أسـقطّهما صرعـى مـا أن لامسـت أقدامهمـا أرضنـا.. ثـم اسـتدرت مـن الخلـف بعيـدًا مـن موقعـي وبـادرت ثالثهـم مـن أمـام موقعـي قادمًـا مـن اتجـاه المـنزل حـتى لا يُكشـف موقعنا..مـا أن أطلقـت النـار تجاهـه رفـع يديـه تسـليمًا! بالأسـاس مـا كُنـت أبتغـي

قتلـه؛ إن قتلتـهُ مـن يحمـل جُثـث الاثنـين أمـام القـارب ويرحـل بهمـا! اقتربـت منـه وأنـا أُمـزق الجثتـين أمامـه ببُندُقيـتي، صرخـت فيـه آمُـره بالهبـوط مـن القـارب وبـأن يُلقـي كُل مـا معـهُ مـن سـلاح؛ لـبى الأمـر مـن فـورهِ وهـو يترجـى قائـلًا:

ــ«سيبني المرة دي».

ــ«خُدهُـم معـاك وسـيب السـلاح، المـرة دي هسـيبك بـس أمـا ترجـع للمنايعـة قولُهـم الضبـع مـش هيخـلي منكُـم واحـد حـي.. ليـل نهـار قاعـد لُكـم».

هـز رأسـهُ إذعانًـا مُكـررًا حديـثي، ثـم تـرك بنادقهُـم الثلاثـة مـكان الجُثتـين وعـشر خزائـن، وحمـل الجُثتـين إلى القـارب وعـاد بهمـا..

حملـت البنـادق الثلاثـة عـلى كتفـي وعُـدت بهـم إلى مقعـدي بجـوار وهيبـة الـتي لـم تلفـظ بحـرف! وعُـدت لأخـذ الخزائـن، ومـا أن عُـدت كان الوُجـوم قـد ضرب المنايعـة.. توقـف إطلاقهُـم للنـار، بـدا لنـا أنهُـم انسـحبوا عـلى أثـر فقدهـم سـتة مـن أبنائهـم، يبـدو أنهـم تأكـدوا مـن فشـل اختراقهـم لنـا.. إلا أننـا كُنـا عـلى يقـين مـن أنهـم سـوف يُعيـدون الكّـرة، ابتسـمت بقـوة والتفتـت إليّ قائلـة:

ــ«أنـا عارفـة إنـك ضبـع يـا صـلاح، لكـن كان لازم تنـام شـوية بردو».

كانـت تلـك هـي فُرصـتي الذهبيـة لاخـتراق هـذا الجـدار العـازل حولهـا، ابتسـمتُ لهـا سـائلًا:

ـ«يمكن أكون ضبع؛ لكن انتي اللي محيراني يا بنت عمي، عُمري ما شوفتك واحنا في الجزيرة بتمسكي بُندقية ولا كُنتِ شديدة كدا.. إيه اللي غيرك؟».

شردت للحظات وكأنها تستجمع شجاعتها وذاكرتها وتتخذ قرارها، ثم أسهبت في الحديث وعيناها لا تغيب عن أرض المنايعة، ولا تُفارق بُندقيتها يدها قائلة:

ـ«الست يا صلاح قلبها مش لحم ودم، قلبها جمرة نار.. إذا خرجت تحرق الأرض باللي عليها!

لما كُنا في الجزيرة كُنت يتيمة، وأمي خدامة في بيت عمك، وأنا شغاله في أرضه شُغل الرجالة، وبعدين محمود ابن عمك حرك جمرة النار في قلبي لما قالي إنهُ عايز يتجوزني وعمك قال لأ؛ إزاي يجوز ابنهُ البكري لخدامه عندهم! أنا لا كُنت شيفاه جوز ولا راجل حتى، قلبي كانت ناره تبرد وتنطفي بس أول ما أشوف عبد التواب؛ راجل رغم فقره عُمره ما وطّى راسُه.. هو اللي علمني أمسك البُندقية وعلمني أكون عصية عُمر ما حد يكسرني! راجل طلع من قلبي النار ووعدني بحقي من البندارية كُلها.. مش بس خلاني شديدة لا يا صلاح، أول مرة أحس إني ست من حقها يكون عندها راجلها، وكان عهد بيني وبينُه يفضل في ضهري وأفضل في ضهرُه طول العُمر وناخُد حقنا من البندارية كُلها!».

عـادت إلى صمتهـا خلـف هـذا الحاجـز العـالي تُخفـي آلامًـا نـزف لهـا قلـبي مـا أن أفصحـت بهـا.. يختفـي خلـف هـذا الحاجـز العـالي مـن القسـوة والشـدة قهـرٌ عميـق في نفـس تلـك المـرآة! قهرهـا الزمـن بدفعهـا لأعمـال الرجـال وعمـل أمهـا خادمـة.. لـم يقـف القهـر لهـا عنـد الزمـن؛ إن أكـثر مـا قهرهـا وذبحهـا بـدمٍ بـاردٍ هـو مـا قالـه عمـي لهـا بعـد طلـب ابنـه الـزواج بهـا! لـم يرفُـض وحسـب؛ امتـد في ذبحهـا بقهرهـا بمـا ليـس لهـا فيـه يـد! فقرهـا هـو مـا قهرهـا، الفقـر والظلـم هـو مـا دفـع ثلاثتنـا إلى مـا صرنـا إليـه، مـا أعـاد إليهـا قوتهـا وحياتهـا هـو ذاتـه مـا أبدلـني وحولـني مـن ذلـك الضعيـف إلى ضبـعٍ ينهـش أعدائـهُ نهشًـا بـلا رحمـة! عبـد التـواب.. دائمًـا مـا تبـدأ حكايتنـا منـه، لا أعلـم هـل ستنتهي إليـه أيضًـا؟!

انتهـت الليلـة وأشرقـت الشـمس، غفـوت في نومـي وأنـا أفكـر في حديثهـا كثـيرًا.. مـا دفعـني لهـذا النـوم العميـق انسـحاب المنايعـة؛ يبـدو أنهـم اكتفـوا بدمـاء تلـك الليلـة، وأصابهُـم اليـأس مـن مُحاولات اختراقنـا الفاشـلة فيهـا، كمـا أنهـا كانـت ليلـةً استنزفتهُم كثـيرًا؛ فقـدوا فيهـا أرواحًـا وسـلاحًا وذخـيرةً، لـم يربحـوا شـيئًا مـن ليلتهـم تلـك؛ بـل زادت وعمّقـت مـن جُرحهـم..

اسـتيقظت عـلى وخـزٍ بكتفـي مـن وهيبـة ولـم ألحـظ في البدايـة وجـود سـماح.. بادرتـني وهيبـة بقولهـا:

ـ»أنـا لازم أرجـع عـلى البيـت بالنهـار أجهـز أكل الرجالـة وأشـوف اللـي محتاجينُـه.. حسـان الوصلـة بيـني وبينـك لـو احتجـت حاجـة منك هبعتهولـك عـلى طـول.. الفطـار عنـدك وسـماح هترجـع بالصحـون و ترجعلـك تـاني بالغـدا، والعشـاء هكـون معـاك.. المنايعـة عُمرهـم مـا هيقربـوا منـا غـير بالليـل لكـن احنـا لازم نِحـذر منهـم.. فاهـم يـا ضبـع!«.

ـ»فاهم يا بنت عمي«.

رحلـت ولـم يبقـى سـوايَ و سـماح.. دبـرت لـكُل شيءٍ قـد يـدور في هـذا الأسـبوع..

جلسـت سـماح إلى جـواري وفـردت الطعـام وهـي ترمقـني بعينـين يغلبهمـا الإعجـاب والدهشـة، وبقيـت صامتـة حـتى سـألتها:

ـ»في إيه مالك؟«.

تحدثت بحماسة كبيرة انطلق لها عنان لسانها:

ـ»احنـا هنتجـنن هنـاك؛ محـدش مصـدق إزاي انـت ووهيبـة بـس وقفتـوا المنايعـة وقتلتـوا منهـم كمـان!«

ـ»أمال لو عرفتي اللي حصل؟!«.

أمسكت بيدي تمنعي الطعام تترجى قائلة:

ـ»إيه اللي حصل؟ احكيلي يا صلاح«.

تركت الطعام و سردت عليها كُل ما حدث في الليلة الماضية، فيما كانت تسمع بترقُّب شديد ، مشدوهةً بما أسردهُ لها.. ما أن انتهيت بدا خوفها جليًا على وجهها وتبعهُ سؤالها:

ـ»وهم هيسكتوا على كدا؟«.

تعالت ضحكاتي الواثقة وأجبتها:

ـ»إيه اللي يقدروا يعملوه؟! ولا حاجة! أنا اللي هعمل يا سماح؛ المنايعة لازم تتشال من على الأرض خالص«.

كُنت واقفًا أنظر للمعركة المُقبلة، استدرت لها قائلًا:

ـ»قومي دلوقتي ارجعي على البيت، والعصر هاتي الأكل وامشي.. الأسبوع ده إياكي تقربي مني هنا أو تُخرجي من البيت«.

هزت رأسها إذعانًا وحملت الصحون الفارغة وعادت، غابت دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة.. لم أتمكن من فهم صمتها؛ هل هو خوفٌ من ما قد يفعلهُ المنايعة؟ هل هو خوفٌ عليّ؟ هل هو خوفٌ مني ومما سوف أفعلهُ؟ كيف لها أن تعلم ما لم أعلمه ويُخيفها لتلك الدرجة التي قادتها إلى هذا الوُجُوم القاتل!! هل بدا من حديثي ما أرعبها مني حتى أنها حينما عادت عصرًا وضعت الطعام ورحلت دون حديث! ولم أدعُها إليه.. إلا أن ذات النظرة المُرتعبة ما تزال تتملكها..

أتى عليّ الليل وأتت معهُ وهيبة مُسرعة..

فمـا أن غابـت الشـمس عـاد الجنـون إلى المنايعـة، هـم لـم يتقدمـوا شـبرًا مُنـذُ الليلـة الماضيـة طيلـة أيـام وليـالي الأسـبوع؛ إلا أن جنونهـم كان يحـل كُل ليلـة مـا أن تغيـب الشـمس؛ يُمطـرون أرضنـا برصاصاتهـم يقتلـون أي كائـنٍ حـيٍّ أمامهُم.. ذئـاب، كلاب، هـررة.. كُل شيءٍ يتنفـس! إلا أنـا ووهيبـة؛ كُنـا صيـادي المـوت ليـلًا نمنـع تقدُمهـم بصمتنـا، لا نُبادلهـم إطـلاق النـار ولكـن صمتنـا وتأكُدهـم مـن وجودنـا يمنعهُـم مـن التقـدُم، ويسـتنزفهُم!

انقضـت آخـر ليـالي الأسـبوع وطلـع فجـر اليـوم الثامـن.. تملكـني شـعورٌ قاتـلٌ بالقلـق الـذي لـم ألحظـه عـلى وهيبـة خـلال مُجـاورتي في الليـالي السـبعة الطويلـة؛ تملكـني القلـق مـن تأخُـر عـودة عبـد التـواب! كُنـت انتظـره طيلـة الأيـام والليـالي الماضيـة وعينـايَ لا تغيـب عـن مـرسى القـوارب..

عـادت وهيبـة إلى المـنزل في هـذا الصبـاح.. مـا أن وصلـت سـماح إليّ بالإفطـار دون كلمـةٍ رحلـت وهيبـة وتركتنـا.. لـم يكُـن صمتهـا أقـل مـن صمـت سـماح طيلـة الأيـام الماضيـة، هـي تُنفـذ مـا طلبتـهُ منهـا في طاعـة تامـة.. كـسرت حاجـز الصمـت والقلـق بسـؤالها بعـد رحيـل وهيبـة:

ـ«إيه أخبار الرجالة والأرض؟».

ـ«كُلهم خايفين؛ محدش عارف إيه اللي هيحصل».

ـ«وانتي؟ خايفة؟»

رمقتـني بنظـرةٍ طويلـة تبعتهـا بإيمـاءة التأكيـد مـن رأسـها، أمسـكت بكتفهـا برفـق واسـتطردت:

ــ«إيـاكِ تخـافي طــول مــا أنــا حــيّ، عبــد التــواب عــلى وصــول، وهيخلــص كُل ده».

ــ«وانت يا صلاح، هتخلص بعد المنايعة؟».

ــ«تُقصدي إيه؟».

ــ«انـت بـدأت طريـق الـدم يـا صـلاح، وانـت لوحـدك الـلي تقـدر توقفـه.. لكـن هتقـدر توقفـه بعـد المنايعـة؟!».

تلألأت دموعها على وجنتيها، ألقت ما يؤلمها أمامي ورحلت..

لـم أملـك إجابـةً لهـا في تلـك اللحظـات؛ لـم أكُـن أعلـم مـا أنـا مُقبـلٌ عليـه بعـد..

اشـتدت شـمس الظهـيرة وأنـا مُرابـطٌ في مـكاني.. هـل تأخـرت عـليّ سـماح بالغـداء؟ لـم أكُـن أبحـث عـن الطعـام؛ كُنـت أحتـاج لهـا لتؤنـس روحـي.. هـل هـي غاضبـة؟ حزينـة؟ مريضـة؟

كُلهـا هواجـس آلمتـني حـتى دفعتـني للتفكـير في تـرك موقعـي والعـودة باحثًـا عنهـا في ثنايـا هـذا المـنزل.. قـادني التفكـير والتوتـر إلى التيبُـس مـكاني وقتًـا طويـلًا.. خفـت كثـيرًا حـرارة الشـمس وحدّتهـا.. لـم يتبـقَ إلا سـاعات قليلـة وأعـود إلى الجحيـم..

شدهني صوتٌ قويٌ قادم من خلفي؛ وقع أقدامٍ ثقيلة لا أعلم أهي ثقيلة لثقل صاحبها أم أن صاحبها يحمل شيئًا ثقيلًا! هل هي سماح؟ لم يكُن الصوت يُخيفني فهو قادمٌ من أرضنا.. نهضت أُدقق النظر.. وما أن وقعت عيناي على أصحاب الأقدام إلا وانفتحت عيناي على اتساعها، تهللت أساريري وأنا أُهرول أحتضن عبد التواب بقوة؛ عاد ابن عمي وكَبيرنا، عاد من يحمل عني هذا الجحيم المُستعر ويُنهيه.. ربت على أكتافي بعد أن وضع صُندوقًا كان يحملهُ أرضًا، كان من خلفه حسان يحمل بنادقَ جديدة وضعها وعاد مُسرعًا تجاه أرضنا..

جلسنا مُتجاورين أمام الصندوق والبنادق الجديدة، بادرته قولًا والابتسامة لا تُفارق تقاسيم وجهي:

ـ«حمد الله على السلامة، إيه اللي أخرك كدا؟ ورجعت منين؟ أنا عيني على البحر من لما مشيت، رجعت منين؟».

ـ«الحكاية كانت سهلة في الاتفاق والسلاح، وكمان اتفقت هناك على المرة الجاية.. اللي كان طويل طريقنا واحنا راجعين؛ لا كُنا نقدر نرجع من البحر ولا من الطريق العمومي، احنا رجعنا من الجبل».

ـ«الجبل!».

ـ«أيوه من الجبل! أرجع بالسلاح ده كُله ازاي من البحر ولا من الطريق! يا صلاح السلاح اللي رجعت بيه مخزن الجبل ميقدرش يشيل نُصه حتى».

ـــ»هو كتير كدا؟!«.

ـــ»أوي يا صلاح«.

ربت على يدي بقوة وأردف:

ـــ»احنا خلاص يا صلاح بدأنا طريقنا عشان نملك كُل حاجه، مفيش قُدمنا غير الأرض دي«.

أشار بيده تجاه أرض المنايعة وعاد لحديثه:

ـــ»والليلة أنا وانت بس هنشيلها من على الأرض.. ولا حتى وهيبة هتكون معانا، أنا وانت بس.. السبع والضبع«.

أنهى حديثه وفتح الصندوق، كان يزخر بقنابل يدوية.. أخذ يشرح لي كيف تعمل وقُدرتها الدامية على التدمير، وفكك أمامي البنادق الجديدة وهي بنادق ((جرينوف)) روسية الصُنع ذات قُدرة مهيبة على إطلاق النار والتدمير..

كان حسان قد عاد إلينا بالذخيرة للبنادق الجديدة، زخرنا بُندقيتين إحداهما لي والأخرى له.. وصلت وهيبة أيضًا قبل حلول الليل، تمركزت في موقعنا ومعها حسان.. كان يقتصر دورهما على تأمين أرضنا فقط، لم يتورط في المذبحة سوانا..

قبل أن يُخيم الظلام كُنا قد حملنا البُندقيتين وعددٍ كبيرٍ من القنابل وغُصنا في أرض المنايعة.. اجتزنا حقل القمح كاملًا، وأصبحت دورُهم أمامنا ونحن نُرابط في حقلهم ننتظر جمعهُم

وتقدُمهـم.. أنزلـت السـماء سـتائرها تُخفينـا..

بـدأ الجمـع يجتمـع أمامنـا قُرابـة عـشرة أشـخاص، أمسـكت بُندقيتي وأنـا عـلى شـفا إطـلاق النـار وخـزني عبـد التـواب مُشـيرًا بالصـبر.. لحظـات وبـدأ جمعهُـم في التحـرك تجاهنـا، نظـرت لـه مشـدوهًا!! هـل جُـن؟! سـوف يترُكهـم يقتربـون منـا، مـا الـذي يُرتـب لـه؟!

مـا أن اقتربـوا يفصلنـا عنهُـم عـشرون مـترًا.. ظهـر مـن خلفهـم خمسـة أشـخاص؛ فهمـت لـمَ أراد مـني الصـبر.. إن أطلقـت النـار عليهـم في البدايـة؛ كانـوا ليلتفـوا علينـا مـن خلفهـم..

قبـل أن تُصبـح المسـافة بيننـا وبينهُـم خمسـة عـشر مـترًا ألقـى أولى القنابـل تجاههـم؛ اهـتزت الأرض لانفجارهـا، كمـا اهـتز مـن خلفهـم لوقـوع رجالهـم صرعـى.. كانـت تلـك بدايـة المعركـة!

اندفعنـا مـن الحقـل تجـاه مـن بعدهُـم نُمـزق أجسـادهم برصاصاتنـا، لـم أسـمع إلا صرخـةً واحـدة هـي: ((الضبـع))!!.

قبـل أن نصـل لأول مـنزل لهـم وكان يعلـوه شـخصٌ لـم يُمكـن مـن إطـلاق طلقـةٍ واحـدة تجاهنـا؛ كُنـا قـد ألقينـا قنابلنـا عـلى المـنزل الـذي تهـدم عـلى مـن فيـه، اندفعنـا يقودنـا الشـيطان.. مـنزلًا تلـو الآخـر نهدمـه ونُمـزق مـن فيـه دون أن نُلـقِ بـالًا..

ما أن دمرنا آخر منازلهُم العشرة رأيت آخر من في المنايعة، وكان رجُلًا أربعينيًا؛ ما أن لمحنا اهتزت يداه وبُندقيته بيديه.. لا أعلم ما الذي نشر الرُعب فيه حتى منعه من الدفاع عن نفسه؛ هل رأى فينا ملك الموت وعلم نهايته المحتومة؟! لا أعلم!.

إلا أننا في تلك الليلة لم نرحم أحدًا؛ كانت الرحمة أبعد ما تكون عنا، كانت المسافة بين الأرض والسماء أقرب منها إلينا، حتى جُدران المنازل لم تلقَ منا رحمةً؛ هدمنا كُل شيء!.

مُحيت المنايعة أرضًا ومنازلًا وشيوخًا وشبابًا ونساءً وأطفالًا.. مُحيت عن الأرض محيًا!.

تأكدنا من هلاك الجميع على أيدينا؛ عُدنا إلى أول منازلهم وأنا أنظُر الجثث الخمس الصريعة أرضًا؛ رأيت وجه هذا الشاب الذي حمل قتيلاه مُنذُ ثمانية أيامٍ ليلًا، تركتهُ وقتها لكني لم أترُكه اليوم؛ ما كُنت لأفعل!

يبدو أن الدم يُثير الكثير من الأشياء في النفس، مشهد الدماء التي تُغطي الجُثث.. الدماء كانت تُغطي كُل شيءٍ هنا.. المنازل اختلط رمادها بدماء من فيها.. رمال الأرض وأتربتها امتزجت بدماء القتلى فوقها.. طمس لون الدماء الأحمر الداكن كُل جمالٍ في تلك الأرض.. طمس لون الزرع الأخضر، طمس المباني المُتهدمة.. حتى السماء تحولت إلى شفقٍ أحمر دامٍ؛ طمست الدماء كُل تجلٍّ بالجمال في تلك الليلة..

لـم أكُـن أتخيـل أني مِمَـن تُثـار أنفسـهم بالـدم؛ فقـد كُنـت مُثـارًا بقـوة، أقتُـل بنهـم وشراهـة.. ميزتُ الآن الصرخـة الـتي سَـمِعتها وهي: ((الضبـع))! بالتأكيـد كانـت صـادرة مـن هـذا الشـاب الغـارق في دمائـه تطمُـس معالمـه؛ أنـا مـن أخـبره هـذا الاسـم.. لـم أكُـن أعلـم أن هـذا الاسـم سـوف ينتـشر بتلـك القـوة! قبـل بـزوغ الفجـر كُنـا قـد جمعنـا جُثثهـم جميعًـا وقُمنـا بدفنهـم في مقابـر الجبـل.

***

٧

..٧٣ قبيلة..

في اليـوم التـالي كُنـا قـد بدأنـا في إزالـة آثـار المنـازل المُتهدمـة ولـم أفهـم لـمَ! حـتى عـصر هـذا اليـوم ونحـنُ في أرض المنايعـة وكُنـت أقـف بجـوار عبـد التـواب وسـألته:

ـ»احنا هنعمل إيه في الأرض دي؟«.

أشار لآخر أرضهم المُطلة على الطريق وأردف:

ــ «الأرض دي هــي الــلي بتمســك الطريــق العمومــي، وكمــان بتمســك مدخــل الأرض الجديــدة بعــد الجبــل.. في ضهرهــا ناحيــة الأرض الجديــدة هنبــني بيــوت عشــان ولاد عمنــا يتجــوزوا ويعيشــوا فيهــا، همــا والــلي هيجــوا بعدهــم.. أرض المنايعــة هنعملهــا مزرعــة خيــل وجنايــن فاكهــة، وأرضنــا هتبقــى جنايــن فاكهــة، إلا الأرض الــلي في غــرب البيــت دي هتبقــى جنينــة مــوز بــس، والزراعــة كُلهــا هتبقــى في الأرض الجديــدة.. المُهــم دلوقــتي اننــا نُحصــد الأرض دي ونحــرق الأفيــون الــلي كان مــزروع في قلــب الغيطــان».

هززت رأسي قبولًا، ولكنهُ شعر بأني أُريد شيئًا وأُخفيه فسألني:

ــ»شكلك عايز تقول حاجة.. في إيه؟«.

تأكـدت الآن أن روائـح الـدم مـا تـزال عالقـة في أنفـي تسـتثيرني، كيـف أطلُـب طلـبي هـذا في هـذا التوقيـت وبعـد كُل هـذه الدمـاء! لـم أشـعُر إلا وأنـا أقـول:

ــ»أنا عايز أتجوز سماح«.

تعالت ضحكاته بقوة وأردف:

ــ»سبحان الله! صدقت وهيبة«.

تعجبـت مـن ضحكاتـه وكذلـك مـن اسـم وهيبـة! مـا دخلهـا في طلـبي! سـألته مُضطربًـا:

ــ»بتضحك ليه؟ ومالها وهيبة؟!«.

ــ»أول مـا وصلـت عـلى البيـت وبعـد مـا خلصـت نقـل السـلاح قالتـلي أول مـا تخلـص مـن المنايعـة عايزيـن نجـوز صـلاح لسـماح.. مـش عـارف ليـه، لكـن شـكلها كانـت شـايفة حاجـة أنـا مـش عارفهـا«.

اضطربـت كثـيرًا ولـم أُجبـه، هـل علِمـت شـيئًا ممـا حـدث بيـني وبينهـا؟ هـل أخبرتهـا سـماح بـشيء؟ لمّـا طـال صمـتي ربـت عـلى كتفـي وأردف:

ــ»عـلى العمـوم فاضـل كام يـوم عـلى الخميـس، وفرحـك هيكـون الخميـس.. هنبعـت نعـزم كُل ولاد عمـك في الجزيـرة وفي الصعيـد

كُلـه، وحـتى ولاد عمنـا في مـصر وسـينا والبحـر الأحمـر ومـرسى مطـروح والواحـات؛ فرحـك لازم البنداريـة كُلهـا تحلـف بيـه».

تركـت عبـد التـواب وأبنـاء عمنـا معـه ينهمكـون في أعمالهـم، وعُـدت إلى منزلنـا إلى غُرفـتي أبـدل ملابـسي، خرجـت إلى المطبـخ أبحـث عـن سـماح في المطبـخ، وكانـت تقـوم بالطبـخ مـع وهيبـة ونرجـس، مـا أن دلفـت إلى المطبـخ رحبـت بي وهيبـة بقـوة قائلـة:

ـ«مرحب يا ضبع، جعان؟».

ـ«لا يا بنت عمي مش جعان، لكن عايزك في كلمتين».

نفضـت يدهـا مـن دم الخـضراوات الـتي ذبحتهـا بسـكينها، نظفتهـا تحـت خريـر المـاء مـن صنبـوره، وأعـيُن نرجـس تراقبنـا بقلـق لـم يكُـن أقـل مـن القلـق والغضـب والغـيرة في عيـني سـماح؛ لكـن مـا كان لإحداهمـا أن تجـرؤ عـلى السـؤال؛ خشـيةً مـني تـارة، وخشـية وهيبـة تـارة أخـرى، دنـت مـني وأردفـت بصـوتٍ مُرتفـع:

ـ«تعالى معايا الأوضة عندي يا صلاح».

تقدمَـت وأنـا أتبعهـا حـتى فتحـت بـاب غُرفتهـا، الـتي لـم تطأهـا قدمـي مُنـذُ قامـت بفرشـها؛ غرفـة نـومٍ كبـيرة وكنبـة كبـيرة، مـرآةٌ كبـيرة أيضًـا.. اقتادتـني إلى شرفـة الغرفـة المُطلـة عـلى واجهـة المـنزل وأجلسـتني عـلى كنبـةٍ خشـبية فيهـا، وجلسـت عـلى مثيلتهـا أمامـي ترمقـني بنظراتهـا تدعـوني للحديـث، لـم أتمالـك شـجاعتي أمامهـا ولا

أعلـم لـمَ! لهـا مهابـةٌ تفرضهـا في حضورهـا بشـكلٍ غريـب، هـزت رأسـها يمنـةً ويـسرةً وأردفـت ضاحكـة:

ـ»قول يا صلاح اللي عندك«.

خـرج صـوتي ضعيفًـا مُضطربًـا يـكاد يُسـمع وأنـا أبتعـد عـن عينيهـا بعيـني:

ـ»يا بنت عمي أنا عايز أتجوز سماح، وكُنت عايزك تقوليلها«.

تعالت ضحكاتها وأردفت:

ـ»هو ده اللي عايز تقوله يا ضبع«.

ـ»أيوه«.

نهضت واقتربت مني وأردفت:

ـ»حاضر يا صلاح، دقيقة واحدة«.

غابـت مـن أمامـي ولا أعلـم مـا يـدور برأسـها، لـم تمُـر دقائـق حـتى عـادت ومـن خلفهـا سـماح، اسـتدارت تواجههـا وأردفـت:

ـ»صـلاح عايـز يتجـوزك، هـو قـالي كـدا؛ لكـن ابـن عمـي فاكـر إني معرفـش الـلي حصـل بينكُـم«.

انتصبت واقفًا فزِعًا من حديثها!

اقتربت مني وأردفت في قوة:

ـ«اسمع يا صلاح، مفيش ست في الدنيا مُمكن تحكي حاجة زي اللي حصلت بينكم لحد في الدنيا أبدًا؛ لكن الحاجة الوحيدة اللي انتوا نسيتوها إن انا لا بنام ولا عيني بتغفل! أنا عملت مش شايفة لأني عارفة إنك هتتجوزها، ومتأكدة إنك عارف إن عرضها هو عرضك، ولأني عارفة إنك راجل زي عبد التواب؛ صحيح أنا وعبد التواب غيركم، ومحصلش بينا حاجة زي اللي حصلت بينكم؛ لكن أول ما تجوزنا وحصل بينا، كُنت زي سماح بالظبط وهي راجعالي مكسوفة وفرحانة وشها منور.. أنا سبقتكم وقولت لعبد التواب إنكم هتتجوزوا، وعلى العموم مبروك».

التفتت تنظُر لسماح التي كانت تتصبب عرقًا، وعادت تقترب مني وبلهجتها وهيبتها أردفت بقوة:

ـ«لكن اسمع يا صلاح، لو فكرت في يوم تعايرها باللي حصل ولا فكرت تكسر نفسها بيه؛ انت لوحدك عارف مين هي وهيبة وإني أقدر أشيلك من على الأرض شيل!».

اقتربت منها تحتضنها بذراعها ورفعت جبهتها بيدها واستطردت:

ـ«أنا عارفة انتي عملتي كدا ليه، لكن إذا كُنتي فاهمة إن ملكيش حد في الدنيا بعد أخوكي غيرُه؛ اصحي أنا ضهرك! ولو ظلمك بإيدي أخلع قلبه! ارفعي راسك، أنا عارفة إن صلاح راجل، وهيحافظ عليكي وهيصون عرضك اللي هو عرضه، وده السبب الوحيد اللي خلاني لا أموتك ولا أموته.. أنا لو شكيت للحظة إنهُ

ممكـن ميصونـش عرضـك؛ كان زمانكـم انتـوا الاتنـين في قبُركـم!».

أنهـت حديثهـا بضحكاتهـا الـتي بـددت بهـا الخجـل فينـا وغـادرت الغرفـة..

كُنـت عـلى يقـين مـن ذكاء وهيبـة، لكـني لـم أتوقـع أن يصـل إلى هـذ الحـد، كمـا أن تحذيرهـا لي مـا هـو إلا طمـسٌ لهاجـسٍ قـد يـؤرق سـماح يومًـا، وطمانتهـا لهـا بأنهـا معهـا هـو راحـة لروحهـا أيضًـا.. كمـا أني كُنـت عـلى يقـين مـن أنهـا إن شـكت للحظـةٍ أني لـن أتزوجهـا مـا كانـت لتترُكنـا أحيـاء! أنـا أعلمهـا جيـدًا.. إن كان زوجهـا أسـدًا وأنـا ضبعًـا ؛ فهـي نمـرة بريـة تفتـك بمـن يعـترض طريقهـا أيًّـا مـن كان.. الأرض والعـرض همـا المحرمـات عندنـا، التلاعـب بهـم يقتلـك حتمًـا!.

اقتربـت مـن سـماح وأمسـكت بيدهـا وعُـدت بهـا إلى داخـل الغرفـة الفارغـة، شردت في عينيهـا كثـيرًا، لـم أشـعُر برغبـة في الحديـث ولا هـي كذلـك؛ اكتفينـا بلغـة العيـون.. قبلـت جبهتهـا وعُدنـا إلى المطبـخ وتتـورد وجوهنـا فرحًـا، هنأتنـا نرجـس بكثـيرٍ مـن الفـرح..

انهمكـت في التجهـيز لزواجنـا في الأيـام القليلـة، فيمـا انهمـك عبـد التـواب ومحمـود في دعـوة كافـة أبنـاء البنداريـة وأبنـاء عمومتنـا وأصهارنـا وكافـة العائـلات والقبائـل، ولـم يغفلـوا الانتهـاء مـن أرض المنايعـة الـتي قُـضي عـلى كُل نبتـةٍ فيهـا قبـل ليلـة زفـافي..

كان يومًـا حافـلًا مـن بدايتـه غريبًـا عـليّ.. مُنـذُ الصبـاح الباكـر وعـشرات الطباخـين والجزاريـن ينحـرون عجـولًا ويحتلـون المطبـخ

بالـدور الأول.. الأرض أمـام المـنزل تـم تزيينهـا بالكشـافات الملونـة والرايـات الخـضراء، وفُرشـت جميعهـا بسـجادٍ ووسـادات عربيـة تجهـيزًا لاسـتقبال الضيـوف، رغـم هـذا الحضـور القـوي والجلبـة بالأسـفل؛ لـم أعـثُر عـلى سـماح مُطلقًـا! كأنهـا اختفـت!

صعـدت باحثًـا عنهـا وعلمـت أنهـا في حصـن وهيبـة، والـتي أعادتـني للأسـفل مُعلقـةً الأمـر بـأن النسـاء سـوف تمـلأ الـدور الأعـلى.. مـا كُنـت لأقـف أكـثر أمـام عنادهـا؛ هـي لـن تسـمح لي بالبقـاء ولا بالمـرور! رحلـت عـلى طلبهـا بالعـودة عـصرًا لأُبـدل جلبـابي بغُرفـتي..

كُنـتُ مشـدوهًا مـن هـذا الإعـداد الكبـير وكـم العجـول الـتي نُحـرت، والطباخـين والمُطربـين حـتى عـثرت عـلى عبـد التـواب وهـو يتأكـد مـن إعـداد الطعـام بنفسـه، احتضنـني بقـوة وخرجنـا أمـام المـنزل وسـألته:

ـ«ليه ده كله يا عبد التواب؟! ده كتير أوي!».

التفت إليّ وأطرق قليلًا ثم أردف:

ـ«يـا صـلاح احنـا بنجـوزك صحيـح، لكـن كمـان بنقـول احنـا موجوديـن!»

ـ«مش فاهم يا ابن عمي».

ـ«حكايـة المنايعـة بقـت في كُل حتـة، احنـا النهـاردة بنقـول للدنيـا كُلهـا مـين كبـار البنداريـة عـلى الأرض.. أنـا لا دعيـت واحـد مـن الكُبـار

في البندارية ولا هدعي، دعيت على الفرح كُل فقير حقه مهضوم فيهُم، لكن مفيش كبير على البندارية غيرنا النهاردة، على الأقل هنا؛ فهمت يا صلاح؟»

أومأت برأسي تفهُمًا، هذا هو الحلم الذي ما فعلنا ما فعلناه إلا له.. عبد التواب يستغل كُل شيءٍ لتحقيق هذا الحُلم.. ما كان بحاجة لأن يُخبرني أنهُ سوف يستميل كُل من يحضر من فقراء البندارية على القدوم هنا، والعيش في كنفنا، خاصةً وهو يتكئ الآن على حالة الرهبة والدهشة التي أثارت الصعيد كُله وكُل المُتصلين بالمنايعة؛ إن ما قمنا به ذاع بقوةٍ، وغُزلت حوله أساطير وحكايات! وبرغم الخرفات التي أُشيعت عني بأني ضبعٌ ينهش جثث مهاجميه، وأن الرصاص لا يخترق أجسادنا بفعل حجابٍ أحضره عبد التواب من السودان؛ لم يصل أحدهم من بعيد أو قريب عن الحقيقة التي فاقت توقعاتهم وأساطيرهم..

عصر هذا اليوم عُدت إلى الطابق العلوي للمنزل وكان صاخبًا، لا أعلم من هؤلاء النسوة ولا من أين أتين، بينما كانت عيني تُتابع الصخب والجلبة بين المطبخ والزغاريد والدخول والخروج من حصن وهيبة.. بادرتني بوقوفها أمامي قائلة:

ـ «تعالى».

اقتادتني خلفها إلى غُرفتي وكانت قد أغلقتها بمفتاحٍ في يدها.. فتحت الباب تُشير إليّ بالدخول، ما أن دلفت لداخل الغرفة أغلقت

البـاب عـليّ وسـمعت إغلاقـه بالمفتـاح.. اسـتدرت لأتفاجـأ بالألـوان الزاهيـة الـتي تبـدل بهـا فـرش الغرفـة، والسـتائر الزاهيـة.. فتحـت الخزانـة وصُعقـت مـن اكتظاظهـا بملابـس سـماح، مـتى نُقلـت؟ وأيـن ملابسي؟ هـذا الـدولاب الكبـير لـم يعُـد لي فيـه سـوى ضلفـة واحـدة عـلى طرفـه؛ يـا لضعـف الرجُـل هنـا!

اسـتدرت ناظـرًا للفـراش وكان عليـه جلبـابٌ جديـدٌ لونـه أبيـض، مُفصّـلًا بتفصيلـة الصعيـد ((الجلبـاب البلـدي))، وبجـواره شـالٌ كبـيرٌ أبيـض اللـون لأصنـع منـه عمامـتي الكبـيرة، الـتي نمتـاز بهـا وبأنهـا حلقـةً فـوق الأخـرى فـوق الأخـرى.. وكذلـك عبـاءةٌ سـوداء..

شرعـت في ارتـداء ملابـسي وإحـكام عمامـتي ووضعـت عبـاءتي ثـم اقتربـت مـن البـاب، ولكـن كيـف أمُـر منـه وهـو مُغلـقٌ مـن الخـارج! يبـد لي أني مـا أن أطـرق البـاب سـوف يسـمعني أحدهـم بالخـارج ويسـتدعي وهيبـة.. هـي أحـلام!

كيـف سيسـمع مـن بالخـارج طـرقي للبـاب مـن تلـك الجلبـة والصخـب! هـي محاولـة أقـوم بهـا، وفي جميـع الأحـوال إن فشِـلت سـوف يبحثـون عـني بالتأكيـد إن وصـل المـأذون بالأسـفل؛ اقتربـت مـن البـاب وطرقتـه.. شـدهني صـوت المفتـاح وهـو يفتـح البـاب؛ كانـت وهيبـة تنتظـر بجـواره مـن الخـارج حـتى انتهـي.. مـا أن رأتـني رفعـت زغاريدهـا وكذلـك النسـاء مـن حولهـا وأنـا أهبـط.. حـتى عـثرت عـلى عبـد التـواب أمـام المـنزل يبحـث عـني..

ما أن وقعت عيناه عليّ اقتادني للمأذون، وكان الشهود على عقد الزواج حسان ومحمود، وكان هو وكيلًا عن سماح..

حلّ الليل وبدأ توافد الضيوف من أبناء عمومتنا ومن القبائل والعائلات التي دعاها عبد التواب، حشدًا مهيبًا! ارتفعت أدخنة الشواء للحم والطعام، وصل المُطرب وفرقته؛ تعالت أصوات الفرح وعبد التواب لا يكل من الطواف على الجميع لم يترك أحدًا لم يُحادثه..

شرع المُطرب في الغناء في مدح جمع القبائل؛ ثلاث وسبعون قبيلة مُجتمعة على فرحي.. تعالى المدح للبندارية قلب القبائل، كان عبد التواب حقًا كبيرهم في هذا اليوم، أُطلق الكثير من الأعيرة النارية تهليلًا وتعبيرًا عن السعادة وترحيبًا أحيانًا..

صحبني عبد التواب إلى المنزل وصعد بي مُخترقًا جمع النساء حيث كانت وهيبة في استقبالنا على طرف السُلم.. لم أرَ سماح أين هي.. اقتادني إلى غرفتي وأغلقوا الباب بمفتاحه..

استدرت لأرى ملاكًا تَزَيَّن بالبياض يُشع نورًا، جالسًا على فراشي..

اقتربت منها وخلعت عباءتي، عينايَ مذهولة بجمالها؛ أصابني الصمت كثيرًا وأنا أقف على حالي؛ لا أعلم من أين تؤكل الكتف.. حتى بادرتني قائلة:

ــ«كلت؟»

لـم أكُـن جوعانًـا، ولكـن إجابـتي قـد تُحـرك الميـاه الراكـدة، وقـد تُنشـط الحديـث بيننـا؛ أجبتهـا:

ــ«لأ، وجعان أوي».

نهضت واقفةً وأردفت:

ــ«طيب أقعد، الأكل هناك على ما أغير».

اتجهـت إلى طاولـة مُسـتديرة قوائمهـا قصـيرة عليهـا الطعـام، خلعـت عمامـتي، ودون أن ألتفـت إليهـا رفعـت صـوتي قائـلًا:

ــ«تعالي عشان تاكلي معايا».

ــ«حاضر».

سـمعت إجابتهـا ومـا هـي سـوى لحظـات جلسـت أمامـي.. اتسـعت حدقتـا عيـني؛ هـذا الشـعر المُنسـاب والـذي أميزه بدقـة الآن عـلى الضـوء.. قميـص نومهـا الزاهـي.. جسـدٌ يتفجـر أنوثـة.. خَجِلت بشـدة مـني ووضعـت رأسـها أرضًـا سـائلة في نبرتهـا الـتي تقتُلـني:

ــ«أول مرة تشوفني؟».

طرقت الطاولة بقبضتي بقوة صارخًا:

ــ«أول إيـه وآخـر إيـه! يـا بنـتي أنـا أول مـرة أشـوف سـت أساسًـا، مفيـش الجمـال ده أبـدًا».

ــ»طيب بالراحة«.

ــ»تعالي يا سماح«.

نهضت بخفة لتجلس إلى جواري.. لم أقرب الطعام في تلك الليلة؛ فلقد علمت من أين تؤكل الكتف.. رغم ما أحسسته في لقائنا الأول من جمالٍ ورغبةٍ؛ لم يقترب ولا من بعيد من ما أحسسته في تلك الليلة.. لم يكُن هناك خوفٌ، وأنا أعتصر شفاها ولا وأنا أضُمها إلى صدري؛ تبددت كافة الحواجز..

هو اللقاء الذي لم يتوقف حتى خارت قوانا، لم تعُد تتحمل أكثر ولم يعُد لدي الطاقة أكثر..

هو اللقاء الأقرب إلى الارتواء من نبعٍ صافٍ عذبٍ بعد أن جف حلقك في سيرٍ طويلٍ بصحراء مُقفرة..

هو اللقاء الذي انصهرت فيه أرواحنا وأجسادنا بلهيب العشق..

هو اللقاء الذي ينهار فيه أكبر حاجز بين المعشوقين.. مهما كان العشق كبيرًا بين شخصين يظل التعري حاجزًا صُلبًا يعترض هذا العشق ويُعيقه.. الآن فقط سقط هذا الحاجز بيننا..

رغم أنهُ ليس أول تعرٍّ بيننا، لكنهُ يبقى التعري الآمن، لا يشوبه خوف ولا إحساسٌ بسرقة ما هو ليس لك..

الآن فقط يختبئ كُلٌّ منا في جسد الآخر، يحتمي به من الخوف، يتستر العاشق في جسد معشوقه.. لم أشعُر بأمانٍ قط وأنا عارٍ

إلا الآن في أحضانِهـا؛ حـتى وأبـوابي مُوصـدة عـليّ، لـم أكُـن أشـعُر بالأمـان..

ظلـت أصـوات الأغـاني والأفـراح حـتى الصبـاح تصحبهـا أصـوات الأعـيرة الناريـة..

***

٨

..غاب الأمان..

مـرّت تسـعة أشـهُر عـلى تلـك الليلـة الصيفيـة، هـي التسـعة أشـهُر الـتي تبـدل فيهـا كُل شيء..

نَأّيـت بروحـي عـن بُندقيـتي، غـادرت يـدي إلى مخـزن السـلاح بالجبـل.. لـم تكُـن روحـي تحتـاج للبُندقيـة لتسـتمد منهـا الأمـان؛ كُنت أسـتمده مـن ذلـك المـلاك الـبريء؛ سـماح الـتي لـم تكُـن قـادرة يومًـا عـلى حمايـة نفسـها، كانـت مصـدر الأمـان لي ودافعـي لـترك بُندقيـتي، بـل حـتى كانـت مصـدر الأمـان لمـن كُـنـت سـوف أصرعهُـم إن بقيـت تلـك البُندقيـة الملعونـة في يـدي..

كانـت أمـاني وأمـان للبـشر مـن غـدري وبطـشي، قيـدت الضبـع وسـجنته، حـررت بداخـلي إنسـانًا يـرى الجمـال في الحيـاة والـزرع الأخـضر.. حـتى أنهـا كانـت مصـدرًا لسـعادة وبهجـة الجميـع..

مـا أن مـرّ عـلى زواجنـا خمسـة أشـهُر وضعـت وهيبـة ابنهـا الأول.. لا أعلـم كيـف كانـت تُخفـي حملهـا عنـا، وكيـف لـم تتألـم ولـم يبـدُ

عليهـا! أسـموا الطفـل صـلاح تيمُنًـا بي..

وقبـل مُـضي شـهر عـلى تلـك الليلـة، وضعـت نرجـس مولودهـا الأول، وأسـموه محمـد، هـذا هـو الاسـم الـذي أصر عليـه محمـود بقـوة تخليـدًا لأبيـه..

لـم تكُـن السـعادة في التسـعة أشـهُر مُقتـصرة عـلى المـنزل؛ امتـدت تظـل الأرض الـتي اتسـعت بقـوة.. تبدلـت زراعـات المنايعـة إلى جنـان فواكـه، وكذلـك أرضنـا وأرض الجبـل، فسُرعـان مـا انتـشرت الألـوان الخـضراء المُبهجـة تلتهـم اصفـرار الرمـال الصحراويـة المُقفـرة.. لـم تكُـن الأرض وحدهـا مـا حظـي بالسـعادة والأمـل منهـا؛ البنـاء كان لـهُ نصيـبٌ أيضًـا، تعـددت الجبائـر في أرضنـا وعـلى أطـراف الأرض الجديدة شُـيدت منـازل البنداريـة كمـا خطـط لهـا عبـد التـواب..

كمـا تضاعفـت أعـداد أبنـاء العـم لدينـا؛ بـدأوا بخمسـة عـشر رجُـلًا وهُـم الآن قرابـة الثلاثمئـة..

مُنـذُ ليلـة زواجـي بذلـك المـلاك الطاهـر لـم يتوقـف توافـد العديد مِمَـن يـرون فينـا كبرائهـم.. حـتى إن الأمـر لـم يقـف عنـد هـذا الحـد؛ فقـد أسرع عبـد التـواب في ترسـيخ حيـاة هـؤلاء القادمـين الجُـدد بتزويجهـم.. عكـف عـلى إمدادهـم بالمـال للبنـاء والـزواج، وتسـليم كُلٍ منهـم بُندقيـةً..

أنشـئت مزرعـة الخيـل عـلى أرض المنايعـة القديمـة أيضًـا، وكذلـك العديـد مـن حظائـر الماشـية والأغنـام عـلى أرض الجبـل الجديـدة..

هـي الأرض الـتي كُتبـت لهـا الحيـاة بعـد القضـاء عـلى المنايعـة بشـهرٍ واحـد، تشـيدت بعـده محطـة رفـع ميـاه لتسـقي الأرض العطشـة، وسُجلت عقـود بيـع الأرض مـن المحافظـة لهـا باسـم عبـد التـواب..

هـي الأرض الـتي تتسـع كُل يـومٍ وتنتـشر فيهـا الزراعـة تلتهـم رمالها الجـرداء، حـتى البنـاء قـد طـال منزلنا..

مـا أن حملـت سـماح ونرجـس؛ أصرت وهيبـة عـلى بنـاء مـنزل لـكُلّ منـا مُنفـردًا فبقيـت هـي في المـنزل القديـم مـع عبـد التـواب، وشـيدنا منزلـين بـذات المسـاحة والتصميـم أمـام منزلهـا يمنـةً ويسـرةً.. فمـن يقـف في السـاحة الكبـيرة والقـادم مـن خـارج الأرض، أيـًا مـا كان طريقه النيـل أو الطريـق الجديـد مُخترقًـا أرض المنايعـة القديمـة.. أصبـح مُحـاصرًا أمامـه مـنزل عبـد التـواب وعـن يمينـه مـنزلي وعـن يسـاره مـنزل محمـود..

كان إصرار وهيبـة عـلى هـذا التقسـيم هـو التوسـعة عـلى الأطفـال القادمـين مُسـتقبلًا..

حـتى مـرسى المراكـب لـم يكُـن بعيـدًا عـن حظـه مـن السـعادة؛ تـم نقلـه تمامًـا وتجهـيزه ليكـون أمـام منازلنـا مُبـاشرةً..

الـشيء الوحيـد الـذي لـم يتغـير ولـم يتبـدل هـو مخـزن السـلاح في الجبـل.. لـم أقربـه طيلـة التسـعة أشـهُر، فـرغ وامتـلأ عـدة مـرات، ولـم يشـغلني ولـم أقربـه..

رسخ عبد التواب تجارة الدم بقوة؛ حتى إن رحلاته للسودان تكررت في التسعة أشهُر أكثر من خمس مرات، ولم أعُد فيها إلى بُندقيتي قط!

كُنت آمنًا في أحضان سماح، مُنشغلًا باتساع الأرض وتبديل كُل شيء.. إن كان عبد التواب من رسم مكان كُل شيءٍ هُنا.. منازل البندارية، مزرعة الخيل، مرسى المراكب، أرض الجبل، حظائر الماشية.. فأنا من فعلها بيده..

لم تنقطع الأفراح عنا طيلة التسعة أشهُر..

أما عبد التواب فكان مُنشغلًا بتجارة الدم، يُنميها ويقويها بشره؛ يُهرول تجاه حلمه، يغيب أشهُرًا عن الأرض في متابعة تجارته وتوطيد علاقته بالعائلات والقبائل..

وأما محمود فلا أعلم ما كان يشغله، لم يكُن يُشاركني في الأرض ولا يُشارك عبد التواب في تجارة السلاح..

لم يكُن يعنيني شيئًا سوى السعادة والأمان الذين أحياهم.. أما الآن في تلك الليلة أنا أجلس بالدور الأول من منزل وهيبة يقتلني الخوف والقلق؛ فسماح بالأعلى تلد ومعها وهيبة ونرجس، وأنا هنا وحدي لا أثر لمحمود ولا لعبد التواب!

صرخاتها التي تخترق الجُدران تشُق طريقها إلى صدري تُمزقه تمزيقًا.. أُمسك برأسي بيدي أجاهد كتمان صرخاتها التي تُمزقني..

لحظـةً انقطـع فيهـا الصـوت، عـم السـكون والوُجُـوم المـنزلَ الصاخـب؛ لـم أكُـن أعلـم أن الصمت أشـد ألمًا مـن صرخاتهـا إلا الآن!!

اندفعـت للأعـلى أجتـاز السـلم في لحظـات، لـم أجـرؤ عـلى الدخول لهـا بغرفـة وهيبة..

انفـرج البـاب شـيئًا فشـيئًا، وظهـرت وهيبـة تحمـل طفـلي مُلطخًـا بالدمـاء في لفـةً مـن القمـاش، كانـت تتجـه بـه إلى الحمـام تُنظفـه..

لـم تُصـدم لرؤيـتي ولـم تفـرح أيضًـا، كان لهـا وجـهٌ ميتٌ لـم أفهـم منـهُ شـيئًا! إلا أن سـعادتي كانـت غامـرة لرؤيـة طفـلي، سـألتها مُتهللـةٌ أسـاريري أطـير فرحًـا:

ــ»ولد ولا بنت يا وهيبة؟«

ــ»بنت«.

لـم أحـزن لأنهـا فتـاة؛ فلطالمـا تمنيـت أن تلـد لي سـماح فتـاةً تُشـبهها..

إلا أن إجابتهـا كانـت بنـبرةٍ غريبـة! لـم تقـف حـتى لأُكمـل أسـئلتي، اندفعـت إلى داخـل الغرفـة الـتي كان بهـا كثـيرٌ مـن النسـاء.. مـا أن دلفـت إلى الداخـل رحـل الجميـع، وآخـر الراحلـين كانـت نرجـس..

جميعهـم يحملـون الأسى والحـزن عـلى وجُوههـم؛ هـي بالتأكيـد الحـسرة والحسـد والغـيرة.. مـن منهـم هـرول لهـا زوجهـا لحظـة وضعهـا! مـن منهـم لهـا زوجٌ يعشـقها مثلمـا أعشـق سـماح!

كانـت عـلى الفـراش بوجـهٍ مُتـوردٍ باسـمًا، طفلـة وضعـت لتوهـا طفلـة، أعيُنهـا مُغمضـة، مـلاكٌ نائـمٌ يرتـاح بعـد عنـاء..

أمسكت يدهـا البضـة الدافئة، وتحدثـت حانيًا فرِحًا بشـدة قائلًا لها:

ــ«أنـا قولتلـك عايـز بنـت، وربنـا اداني بنـت.. إن شـاء الله نخليهـا شـبه أمهـا؛ قمـر ينـور الدنيـا كُلهـا.. شـدي حيلـك انـتي وقومـي بسرعــة».

أنهيـت حديـثي وقبلـت يدهـا، شـعرت بصقيـعٍ في يدهـا حينمـا لامسـتها شـفتاي، لـمَ هـي بـاردة هكـذا!

تركـت يدهـا مـن بـين راحـتي يـدي فخـرت تتـدلى بجـوار الفـراش، غطـاءٌ مـن الجلـد يحمـل بداخلـه مـاء ثقيـل لا يقـوى عـلى حملـه!!.

تبدلـت ملامحـي ممـا يحـدُث! انتفضـت واقفًـا أبحـث عـن أحـدٍ أعلـم منـه لـمَ هـي مُرتخيـة إلى هـذا الحـد؟!

كانـت وهيبـة تقـف قُـرب البـاب تحمـل الطفلـة في يديهـا.. اندفعـت لهـا سـائلًا في لهفـة:

ــ«هي الست لما بتولد بتبرد كدا؟ ومفيهاش أعصاب خالص!»

ــ«إهدا يا صلاح!».

لم أسمع كلِماتها وأردفت مُتلهفًا:

ــ«أنا رايح أجيب بطانية أدفيها».

إندفعـت أخـترق بـاب الغرفـة.. ومـا أن اجتزتـه سـمعت صرخاتهـا إليّ تخـترق روحـي وجسـدي قائلـة:

ـ «سماح ماتت!! ماتت!!».

تصلبت قدماي في موقعها!

صقيعٌ وبردٌ قارصٌ أصاباني..

حبات عرق تتجمع على جبهتي..

اسـتدرت ببـطء أنظرهـا آمـلًا أن أكُـون في كابـوسٍ، وأن يكـون مـا سـمعته مـا هـو إلا هلوسـات مـن الخـوف!!

نخفض صوتي واضطرب وأنا أسالها:

ـ»سماح، ماتت؟».

ـ»ماتت الله يرحمها أول ما البنت نزلت للدنيا!».

كان هذا آخر ما سمعت منها..

بـدا لي أنهـا تتحـدث كثـيرًا ومـا كانـت تلـك الكلِمـات إلا البدايـة في حديثهـا..

صُمّت أُذني عن السمع؛ ما قالته هو النهاية!!.

أردت الـصراخ والنحيـب والتـأوه.. الهرولـة لجسـدها وحملـه.. أهـرول بـه في كُل مـكانً حـتى يعـود للحيـاة..

أردت صفعها مرارًا وتكرارًا حتى تعود للحياة!!.

أردت أن أفعل كُل ما لم أفعله في تلك اللحظة!

لـم انتبـه لحديـث وهيبـة ولـم يخـترق طبقـات الشـمع الغليظـة الـتي أصمـت أذنيَّ..

اسـتدرت هابطًـا.. لـو أنهـا سُـلحفاةً تتحـرك لكانـت أسرع مـني في خطـواتي.. أقدامـي ثقيلـة لا أسـتطيع رفعهـا عـن الأرض.. لـم أعُـد أرى بكفـاءة، مـا أرى سـوى خيـالات.. أرى مـن يعـترض طريقـي مـن البـشر أشـباحًا..

تملكـني الخـوف وسـيطر عـلى جوارحـي.. عُـدتُ إلى شـعوري ذاتـه وأنـا أغـادر الجزيـرة، كُل مـن حـولي يُحـاول نهـشي وقتـلي..

اقتادتـني غريـزتي إلى الهـرب إلى الوحيـدة الـتي تُعيـد إلي الأمـان.. رغـم فراقنـا طيلـة تسـعة أشـهُر عُـدت إليهـا مُجـددًا؛ ضممتهـا إلى صـدري أحتمـي وأختـبئ بهـا..

انفتحـت عينـاي عـلى اتسـاعها.. أطبقـت أسـناني بقـوة.. اسـتشرى داخــلي شـعورها الغاضـب، الإحسـاس بالأمـان والقـوة، رعشـتها المجنونـة الـتي تُثـيرني، رائحتهـا المُختلطـة بالدمـاء..

لـم أشـعُر إلا وهـي تُفـرغ مـا بداخلهـا مـن نـارٍ غاضبـة مـا أن التحـم زنادهـا بسـبابتي، نقتُـل الريـاح ونُسـقطها أرضًـا..

انهمرت مع رصاصاتها أنهار دموعي، تحفُر مجراها على صدغيَّ اليابسين..

لم اكُن أعلم أن كثيرًا من الوافدين الجُدد لم يسمعوا إطلاق رصاصةٍ واحدة؛ فزِع الجميع بالأسفل على صوت الرصاصات المجنونة..

خررت على رُكبتي أصرُخ للسماء:

«آآآه!!»

عادت إليّ ذاكرتي بوجوهٍ كثيرة.. عمي محمد بالجزيرة، محمود، عبد التواب، نرجس، وهيبة، سماح، عمران وهو غارقٌ في دمائه، أول ثلاثة أوجه قتلتهم من المنايعة، وجه قاتل عمران وأخيه، وجوه الستة عشر طفلًا مُلطخةٌ بدمائهم، وجوه أول أربعة حاولوا اجتياز أرضنا، وجوه الأثنين الذين قتلتهما على حافة النهر، وجه ثالثهم المُرتعب، صرختي فيه «الضبع قاعد لكم لحد ما يقتلكم»، وجوه من بقي منهم، وأبدتهم جميعًا في ليلةٍ واحدة.. عادت رائحة دمائهم جميعًا في أنفي تُثيرني، مشاهد الدماء تدفعني، وجهي الذي كان أكثر رُعبًا من وجه الشيطان..

عاد الضبع من جديد ولن يرحم أحدًا!

نهضت وقد جفت دموعي تمامًا، عاد إليّ وجه الضبع بتقاسيمه وبرغبته في الدماء..

اندفعـت إلى مخـزن السـلاح وأعـدت تذخـير بُندقيتـين، حملـت ((الخريطـة)) عـلى كتفـي، وهـي حقيبـة جلديـة تحمـل خزائـن البُندقيـة الآليـة المُذخـرة بالرصـاص..

كانت خطـواتي في الهبـوط قويـة ثابتـة لا تهـتز لهـا أقدامـي. وصلـت أمـام مـنزل وهيبـة، كان جمـعٌ كبـيرٌ مـن الخائفـين مـن صـوت الرصـاص قـد وصلـوا إلى مـنزل كبيرهـم؛ باحثـين عـن الأمـان واكتشـاف سـبب هـذه الطلقـات!

لـم ألحـظ وهيبـة الـتي كانـت تقـف في شـموخها المُعتـاد بشرفـة غرفتهـا، تحمـل عـلى ذراعيهـا ابنـتي وابنهـا..

هرول حسان تجاهي سائلًا:

ـ«في إيه يا صلاح؟!».

التفت إليه برأسي أرمقه بنظرةٍ كادت تحرقه، صارخًا فيه:

ـ«يا ضبع، فاهم؟ يا ضبع!»

أذعن بإيماءة رأسه قبولًا وأردف في خوف:

ـ«تمام يا ضبع».

رفعـت رأسي ناظـرًا إلى شرفـة الغرفـة الـتي ترقُـد داخلهـا مـن رحلـت، وهـي تصحـب معهـا الأمـان وآخـر وجـهٍ لإنسـان كان بداخـلي.. لـم أرَ سـوى نظـرة وهيبـة المُتحسـرة، وهـي النظـرة الـتي لـم ألحظهـا

في عينيهـا طيلـة حياتهـا.. هـل ملأتهـا الحـسرة عـلى رحيـل سـماح؟ أم تتحـسر عـلى إنسـانٍ رحـل وتبـدل بعـودة شـيطانه مُجـددًا؟

عُـدت بنظـري إلى حسـان رافعًـا صـوتي حـتى يسـمعه كُل مـن حـضر بقـولي:

ـ»مـن النهـاردة خـلاص.. احنـا كُبـار البنداريـة كُلهـا، كُبارهـم هناك في الجزيـرة كلامهـم يمـشي عليهـم؛ لكـن احنـا لأ! ومـن النهـاردة خلاص مفيـش نـوم! هاتـلي أشـد عشريـن راجـل مـن ولاد عمـك دلوقـتي!»

هـرول مـن أمامـي يُلـبي مـا أمرته بـه، بينمـا بقـي الجميع مشـدوهًا.. لا أعلـم مـن أيـن أتى محمـود وعبـد التـواب الـذي عـاد مـن البحـر! وصـل إليّ محمـود قبـل وصـول عبـد التـواب، اقـترب مـني قائـلًا:

ـ»في إيه يا صلاح؟ اهدا!».

بذات القوة التفت إليه قائلًا:

ـ»يا ضبع، فاهم؟!.

إذا كان كلامـي موصلـش عندك؛ اسـمعه مـني تاني.. مـن النهاردة احنا كبـار البنداريـة، ومفيش نـوم! وأي حد هيقف قدامي؛ نفس اللي عملته في المنايعـة هعملـه فيـه و في عيالـه وفي أهله كُلهم؛ هنهـش قلبه حيّ!».

أنهيـت حديـثي وحدقتـا عينـاي مُنفتحتـان عـلى اتسـاعهما.. كُنـت آمـلًا أن يعترضـني حـتى تهـدأ روحـي بدمائـه، وهـو مـا لـم يحـدث.. أذعـن أمامـي وخفـض رأسـه..

فيمـا اقـترب عبـد التـواب مـني ولـم يتفـوه بكلمـة واحـدة! ربـت عـلى كتفـي بقـوة ثـم وقـف عـلى يسـاري للخلـف قليـلًا..

وصـل حسـان ومـن خلفـه عـشرون شـابًا، وقـف أمامـي وهـم مـن خلفـه، تحـدث دون أن يلتقـط أنفاسـه المتقطعـة:

ـ»عشرين راجل زي ما أمرت يا ضبع».

تقدمت خطوتين منهم وارتفع صوتي وأنا أحدثهم:

ـ»اللي فيكُم ميعرفش؛ أحسن يعرف دلوقتي..

الضبـع، هـو الـلي واقـف قدامكـم، هـو الـلي نهـش لحـم المنايعـة، هـو الـلي حـرق أرضهـم وهمـا فيهـا، هـو الـلي الـدم أرخـص حاجـة في الدنيـا عنـده، هـو الـلي لـو حـد فيكـم عـصى أمـره ؛ هينهـش قلبـه حـيّ، ومراتـه مـن بعـده وعيالـه وكل الـلي يعـز عـلى قلبـه! مـن النهـاردة مفيـش كبـار للبنداريـة غـير كبيركـم ده!»

أشرت بيدي إلى عبد التواب الواقف خلفي واستطردت في قوة:

ـ»مـن النهـاردة كلام كبـار البنداريـة يمـشي عليهـم مـش علينـا، ومفيـش طلقـة واحـدة توصلهـم، لا مـن البحـر ولا مـن الجبـل ولا مـن أي حتـة! ومـن النهـاردة مفيـش نـوم.. عـشرة منكـم يتوزعـوا عـلى طـرف الأرض الجديـدة ناحيـة الجبـل، وخمسـة عـلى طـرف الأرض مـن ناحيـة الطريـق، وخمسـة منكـم في الجنينـة واسـطبل الخيـل.. وأنـا لوحـدي عـلى أرضنـا دي كُلهـا..

قبـل مـا الليـل يهـل كُلكـم عـلى مكانكـم، مفيـش حـد منكـم يقـرب مـن الـزرع ولا الأرض!»

نظرت إلى حسان وأردفت:

ــ»كُل واحــد منهــم ياخــد بندقيــة وخريطــة، حــد عايــز يرجــع للجزيـرة عنـد كبـاره؟ قبـل مـا حـد يقـول إنـه عايـز، الـلي هيقـول.. هيرجــع؛ لكــن عــلى ضهــره!».

أنهيـت حديـثي وأنـا أسـحب أجـزاء بندقيـتي تجاههـم أمـلًا في الدم؛ وهـو مـا لـم أجـده أيضًا!

لـم أكُـن أعلـم أن كُل مـن يسـمع اسـم الضبـع يُصـاب بتلـك الحالـة مـن الرُعـب والإذعان!

رحلــوا لتنفيــذ مــا أمــرت بــه.. اســتدرت إلى عبــد التــواب ناظــرًا وأردفــت:

ــ»مـن النهـاردة يـا كبـير الضبـع إيـدك الطويلـة، مفيـش كبـير غـيرك مـن النهـاردة».

ربت على كتفي باسمًا دون أن يُجيبني..

تقبّـل بيعـتي لـه، وهـي البيعـة الـتي أجـبرت الجميـع عليهـا في تلـك الليلـة ومـا تلاهـا مـن ليـالي..

عُدت للخلف قليلًا ورفعت صوتي مُجددًا:

ـ«اللي شايف إن له كبير في أي حته تاني يفضل واقف في مكانه، وأنا هوصله على ضهره لكبيره في أي حته يكون فيها، لو حتى في جهنم!».

تفهم الجميع أن تأخر أيّ أحدٍ منهم عن البيعة الآن سوف يُحقق بها أملي في البحث عن الدماء؛ تقدموا رجُلًا تلو الآخر يبايعون في كلمة واحدة: ((رجالتك يا كبير))!.

سابق محمود إلى البيعة ليكون أول المُبايعين.. انتهت البيعة وأنا أنظر لكبيرنا وأردفت:

ـ«نبدأ منين يا كبير؟».

ـ«اقفل كُل طريق يوصل منه سلاح لأي حته من غير علمنا يا ضبع، وأنا هعرف أمنع كُل طلقة جايه من بره، ومن بكرا هدعي كُل العائلات وأصهارنا في كُل حته وأعرفهم اللي حصل».

انسحبت من أمامه واتجهت إلى مكان أول لقاء بيني وبين الملاك الراحل، وهو المكان الذي تبدّل فأصبح مرسى مراكب.. أويت إلى شجرةٍ فيه أحتضن بُندقيتي، شردت عيناي في هذا النهر الجاري أمامي، لا أتذكر سوى تسعة أشهُر من السعادة والأمان، هو الأمان الذي غَاب عني وعن الجميع..

لن يأمن مني أحدٌ بعد اليوم؛ سأزرع الرُعب في قلوب الجميع!

لم أتحرك من مكاني طيلة الليلة، وحتى عندما بزغ فجر اليوم التالي لم يتحرك لي ساكنٌ إلا عندما وصلت إليَّ وهيبة.. لم تغفل

جفـوني ولـو لبرهـة، وقفـت أمامـي مُطرقـةًّ لـم تتحـدث.. كُنـت أعلـم مـا أتى بهـا، سـألتها:

ـ»خلاص كُل حاجه جاهزة؟«

أومـأت برأسـها تأكيـدًا، فنهضـت مـن مـكاني وتحركـت في خطـوات ثابتـة إلى المـنزل..

لـم ألتفـت لأرى وهيبـة الـتي تتبعـني، ولا إلى الحشـد الكبـير مـن الرجـال والنسـاء أمـام المـنزل..

وصلـت إلى منزلهـا.. دلفـت إلى داخـل المـنزل.. وقعـت عيـني عـلى النعـش يتوسـط المـنزل مُغطـى بمفـرشٍ أبيـض اللـون..

دلفت منه.. ركعت على رُكبتيَّ أمامه..

رفعـت طـرف المفـرش عنـد رأسـها.. لـم أرَ وجههـا! فقـد غطـاه الكفـن وقُيـد بربطـة مـن أعـلى رأسـها.. انخفضـت أقبـل رأسـها، ونهضـت واقفًـا أتلفـت حـولي.. مـن سـوف يحمـل معـي النعـش! وجـدت عبـد التـواب ووهيبـة وحدهـم..

نزعت بُندقيتي عني والخريطة وسلمتهم لوهيبة..

اتجهـت إلى النعـش أحملـه مـن جهـة رأسـها وحـدي مـن الأمـام، هـو عـلى كتفـي وأنـا أسـفله، تطـل رأسي بصعوبـة إلى طريقـي.. حملـهُ مـن الخلـف عبـد التـواب بـذات الطريقـة..

خرجنـا مـن المـنزل؛ هـرول إلينـا جميـع الرجـال راغبـين في حمـل النعـش عنـا؛ صرخـت فيهـم ألا يقربـه أحـد! لـم أشـأ أن يحملهـا معـي سـوى عبـد التـواب؛ هـو فقـط مـن أشـعر بالأمـان عـلى جسـدها وهـو يحملـه، هـو فقـط مـن يقيـني فيـه أنـهُ يحميهـا بروحـه..

ولو جاز لي أن أسمح لثالث فهي وهيبة فقط!

هـؤلاء مـن كُنـت آمـن عليهـا معهـم في حياتهـا، وهـم مـن آمـن عـلى جسـدها بعـد موتهـا معهم..

فُرشـت السـاحة بـين منازلنـا الثلاثـة بالحُـصر، وضعنـا النعـش عـلى أول السـاحة، وتوضـأ الجميـع مـن قِـرب الميـاه الـتي كانـت تحملهـا النسـاء قُـرب حديقـة البرتقـال.. عُدنـا جميعًـا وتقـدم للصـلاة عليهـا ((عبـد الرحمـن))، وهـو أحـد الوافديـن مـن البنداريـة، وكان مؤذنًـا للمسـجد في الجزيـرة..

شرح صلاة الجنازة، وبدأ بالتكبيرة ثم الأخرى حتى السلام.

عُدنـا أنـا وعبـد التـواب لحمل النعـش، حملنـاه إلى المقابـر بالجبل..

كُنـا قـد جمعنـا كُل جُثـث المنايعـة الرجـال في قـبر والنسـاء في قـبر بجـواره، وأحطناهـم بسـورٍ وبـابٍ حديـديّ أوصدنـاه بقفـلٍ كبـير..

كان قـبر عمـران ملاصقًـا للسـور الـذي يحتجـز بداخلـه قبـور المنايعـة، لا أعلـم مـن الـذي جهـز قـبر سـماح وحفـره، إلا أنـه كان مُلاصقًـا لقـبر أخيهـا!

أنزلنا النعش إلى جوار الحفرة، هبطت داخلها، فيما حمل عبد التواب جسدها من النعش وسلمه إليّ بالأسفل؛ حملت جسدها بين يدي ووضعته بقبرها.. حللت العُقد الرابطة لجسدها.. انخفضت إلى وجهها وكشفت عنه الكفن، هذا الوجه الطفولي الباسم! قبلت جبهتها ثم وضعت حفنتين من التراب على عينيها المُغلقتين، وأعدت غطاء وجهها بالكفن!

خرجت من القبر بيد عبد التواب الممدودة إليّ! بدأت إعادة التراب على جسدها حتى أغلق القبر، وبدأ بناء شاهد قبرها..

رحلنا عن القبر عائدين، لا أعلم ما الذي أصابني! لم أبكِ ولم أتألم! لم أهتز!

وضعتها في قبرها ورحلت مثل الجميع!

عُدنا إلى منزل عبد التواب وجلسنا في الدور الأول من منزلهم.. وُضع أمامي وأمام عبد التواب الإفطار؛ فدعاني للأكل، ولم أستجب!

وصلت وهيبة تحمل على ذراعها طفلًا، جلست جوار عبد التواب على مقرُبة مني، ثم نظرت إليّ قائلة:

ـ«مش عايز تشوف سماح الصغيرة؟».

فزِعت منها وانتفضت واقفًا أتراجع وأنا أومئ برأسي رفضًا في جنون!

حملت بندقيتي من أمامهم ورحلت إلى منزلي، هذا المنزل الكبير الذي لم تطأه قدمي مُنذ حملت سماح منه إلى غرفة وهيبة..

فقدت جُدرانه العالية رونقها، ما لهذا المنزل الذي كانت تملؤه ضحكاتنا مُصمتًا قاتما!

صعدت درجات السُلم لغُرفتنا، تلك الغرفة التي طالما أحسست فيها بالأمان... أمسى قلبي مقبوضًا بشدة ما أن دلفت إلى داخلها.. هذا الفراش الناعم المريح، ما الذي أصابه وحوله لجمرةً من النار والشوك لجسدي!!

افترشت الأرض بجسدي في وضع طفلٍ أحتضن بُندقيتي؛ فلست أشعُر بالأمان إلا وهي بين ذراعي!

***

٩

١٩٩٥

تحركت سيارتي تتقدم موكب من السيارات، كُلها سيارات دفعٍ رُباعيٍّ، لها مُحركات قوية تصلُح للعمل في الصحراء وفي أقصى الظروف..

كان يقود سيارتي حسان وأنا إلى جواره بالأمام، بيدي بُندقيتي التي لم تُفارقني طيلة الخمس عشر سنة المُنصرمة، هي تلك البُندقية التي لم تتوقف عن إطلاق النار طيلة تلك الفترة، ولم تقتُل أحدًا أيضًا؛ كان اسم الضبع كفيلًا أن يستسلم كُل من يعترض طريقي دون طلقةٍ واحدة!

إلا أنها لم تتوقف عن إطلاق الرصاص تنبيهًا بأن الشيطان هُنا، وتهليلًا وإرهابًا في كثير من الأحيان..

في السنوات المُنصرمة ترسخ اسم الضبع وانتشر نارًا في الهشيم، غُزلت حوله الكثير من الأساطير والخُرافات.. مُنذُ الليلة التي غاب فيها عني الأمان، غاب أيضًا عن كُل من اعترض طريقي!

تسير سيارتي ومن خلفها موكبٌ يضُم أكثر من مائة رجُل، وأكثر من ألفٍ يتوزعون على أرض الجبل و حدائق الفاكهة حول منزلنا فقط..

أرض الجبل هي الأرض التي فاقت الخيال؛ اتسعت بقوة وفاقت الخمسين ألف فدانٍ، كُلها زراعية.. وأراضٍ أكبر منها أو على الأقل توازيها في مُحافظات الجنوب.. قنا، أسوان، سوهاج، أسيوط.. وفي أقاصي غرب مصر.. الوادي الجديد، مرسى مطروح، الفيوم، السلوم.. وفي شرق مصر بالإسماعيلية، السويس.. وهي أملاكنا وإن تعددت أوراق ملكيتها الرسمية لآلاف من أبناء عمومتنا..

كُنا قد رسخنا لمبدأ تمليك الفقراء للأرض نُسدد حقها نقدًا، وكذلك نمدهم بالسلاح والتكاليف لتدوير الزراعة، وتتسلم منهم أموالنا على دفعات.. لا نشتد عليهم في جبايتها..

شرطٌ واحدٌ لم نتهاون فيه؛ هو أن الأرض لا يتم بيعها إلا لبنداري تحت أي ظرف!

ونحن الآن نتحرك تجاه ((بني بلال))، وهم أصهار لنا نشبت معركةً بينهم وبين أحد العائلات، يقطنون على حدود محافظة قنا ومحافظة سوهاج..

وصل الخبر إلينا فجرًا بينما عبد التواب ما يزال بالسودان ويفترض له أن يصل غدًا؛ لذلك أنا في طريقي إليهم لنصرتهم وتلبيةً لطلبهم منا بعونهم.. بنو بلال قائمون على زراعة أرضنا في تلك المنطقة..

أدركنـا قريـة بـني بـلال قبـل بـزوغ الشـمس ووصولهـا كبـد السـماء، مـا تـزال أصـوات الأعـيرة الناريـة ترتفـع حـتى وصلـت إليهـم بموكـبي عـلى أطـراف البلـدة؛ توقفـت الأعـيرة الناريـة تمامًـا!

كُنـت أسـمع وأرى هرولـة بـني بـلال رجـالًا وشـبابًا في طرقـات بلدتهم البسـيطة صارخـين: ((الضبـع)) وصل!.

التفت إلى حسان وأردفت:

ـ»أقف عند بيت كبير بني بلال«.

ـ»حاضر يا كَبير«.

أجابـني ووقـف في سـاحة في مُنتصـف البلـدة، أمـام مـنزل الحـاج إسـماعيل، وهـو كبـير بـني بـلال..

مـا أن توقفـت السـيارة أمـام جمـعٍ غفـيرٍ يقـف أمـام المـنزل مـن شـباب بـني بـلال؛ اندفعـت مـن السـيارة إلى خارجهـا، توقفـت كُل السـيارات خلفـي وهبـط رجـالي يحملـون بنادقهـم الآليـة وخرائطهـم، جيـشٌ يتحـرك خلفـي!

لـم يجـرؤ أحـدٌ عـلى الاقـتراب مـني مـن جمـع المشـدوهين، وأنـا أتسـمع همسـاتهم ((هـو ده الضبـع))، حـتى هبـط حسـان واقـترب مـني قائـلًا:

ـ»ده بيت الحاج إسماعيل يا كَبير«.

استمعت إليه واستدرت برأسي رافعًا صوتي إلى الجمع المشدوه وهم يحملون سلاحهم، ورفعت صوتي يخترق بني بلال قائلًا:

ــ«كُل واحد يرمي بندقيته هنا تحت رجلي، مفيش حد يرفع بندقية في بلد والضبع فيها».

عم الوُجوم الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، لم يتحرك أحدهم خُطوة! اتسعت حدقتا عيني، سحبت أجزاء بندقيتي، هرول رجالي خلفي يتبعوني.. أطلقت خزانةً كاملة في الهواء وعاد صُراخي من جديد:

ــ«كُل واحد يحط بندقيته تحت رجلي هنا!».

هرول تجاهي رجُلٌ كبيرٌ يخترق الجمع المشدوه، وقف أمامي ذاعنًا خافضًا رأسه وتحدث قبل أن يلتقط أنفاسه قائلًا:

ــ«حقك عليّا يا كَبير، ميعرفوش!».

استدار الرجُل إلى أهله صارخًا فيهم:

ــ«حطوا السلاح تحت رجل الكبير!».

تقدموا رجُلًا خلف الآخر يضعون بنادقهم أمامي.. لم أكُن أحتاج أن أعلم أن هذا الرجل الكبير هو الحاج إسماعيل، التفت له سائلًا:

ــ«دارك فين يا حاج إسماعيل؟».

ـ»هي دي يا كَبير«.

أشار بسبابته للمنزل الكبير على يساري، التفت إلى حسان ورفعت صوتي حتى يسمعه الجميع:

ـ السلاح كُله يدخل دار الحاج إسماعيل«.

لم يتعجب الحاج إسماعيل من كلِماتي، إلا أنها ذهلت جمع الشباب؛ لم يفهموا لمَ جمعت السلاح منهم ولمَ أعدتُه لكبيرهم !.

أما الحاج إسماعيل فكان على علم بعادات البندارية؛ طالما حل كبيرٌ منهم في نزاع لا تُرفع بُندقيةٌ في حضوره إلا بنادق رجاله! كما أنهُ لا يقبل أبدًا أن يُشعر من استنجد به بالإهانة؛ فلذلك يُجمع السلاح في منزل كبير العائلة التي طلبت حضورنا..

ما كُنا لنسمح لشابٍ طائش أن يُطلق رصاصةً في حضورنا؛ قد تصرع أحدًا فيُلصق دمه فينا! لم نفعل ذلك خوفًا من الدماء، وإنما فرضًا لهيبتنا..

ما أن تم جمع السلاح وتشوينه بواسطة حسان ومن معي، دلفنا إلى منزل الحاج إسماعيل..

كان الدور الأول ساحةً فارغة إلا من كنبٍ كثيرٍ بدوران المنزل، جلست في المنتصف في مواجهة باب المنزل الذي يقف عليه من الخارج عشرةٌ من رجالي، و باقي المائة يؤمنون المنزل والقرية، كل

شباب بني بلال تجلس في الساحة بالخارج، وجميع كِبارهم معي بداخل المنزل..

جلست على كنبةٍ منفردًا، وضعت بندقيتي بجواري ووقف حسان إلى جواري، التفت يسارًا ناظرًا للحاج إسماعيل الذي بادرني قائلًا:

ـ «شرفت بني بلال يا كَبير».

ـ «الكَبير مسافر؛ أنا هنا مكانه، إيه اللي حصل يا حاج إسماعيل؟».

أطرق قليلًا، انخفضت جبهته أرضًا حيث بدا الحديث ثقيلًا على نفسه، ثم تحدث في انكسار قائلًا:

ـ»المعركة دارت في الحوض الغربي على ري الأرض، وبعدين وقع منا تسعة».

اعتدلت في جلستي مُتأهبًا، قاطعتهُ سائلًا:

ـ «وهم وقع منهم كام واحد؟»

طأطأ رأسه أرضًا، ثم أردف وهو يهرب بعينيه أرضًا:

ـ أربعة!»

ـ «إزاي! وانتوا كُنتوا فين لما وقع منكم تسعة؟! انتوا محتاجين سلاح؟!».

عاد لحديثه هاربًا بعينيه أرضًا:

ــ«لا يا كَبير عندنا سلاح».

انتفضت واقفًا وأنا أنظرهم بعيني، انفجر غضبي في وجه تلك الوجوه المُذعنة:

ــ«أمال طالبين منا إيه!! سلاح وعندكم، دم وليكُم دم، مين اللي كسر نفسكُم كدا؟!».

ــ«يا كَبير، جلسة الصلح النهاردة، كُبار البلاد اللي حوالينا على وصول، قولنا لازم كُبارنا يكونوا هنا».

اندفعت إلى الرجُل أطبقت على تلابيبه صارخًا في وجهه أكاد أنزع رأسه بقبضتي قائلًا:

ــ«عايز كبيركم يقعد وانتوا مكسورين! ويتقال البندارية اتكسرت قدام شوية كلاب!! لا والله ما يحصل! في حاجة انتوا مش عايزين تقولوها، انطق إيه اللي مش عايز تقوله؟!».

استجمع الرجُل قوته وأردف بصعوبة وهو في قبضتي:

ــ«المعركة كانت بسبب أرضنا».

ــ«وبعدين؟ انطق!»

ــ«اللي مزروعة أفيون».

ما أن لفظ كلمته دفعته بيدي أرضًا!.

حـضرت شـياطين رأسي كُلهـا، كيـف أجلـس في مجلـسٍ وأصهارنـا مكسـورون مُطأطئـو الـرأس! وكيـف أدافـع عنهـم وإن عاقبناهـم عـلى زراعـة المخـدرات لقتلناهـم بأنفسـنا! وهـم يعلمـون أن المخـدرات مُحرمـة في شرع البنداريـة..

اندفعت للساحة أمام المنزل وصرخت بأعلى صوتي قائلًا:

ـ«حسـان، مـش عايـز عـود زرع واحـد في أرض بـني بـلال واقـف؛ احـرق الأرض كُلهـا!»

اسـتدرت ناظـرًا لإسـماعيل الـذي تبعـني للخـارج هـو وكبـار عائلتـه، أشرت لهـم بسـبابتي ورفعـت صـوتي قائـلًا:

ـ«وانتـوا تخلـوا الأرض والبيـوت قبـل مـا النـاس توصـل، لا ليكُـم قاعـدة هنـا ولا في محافظـة قنـا كُلهـا، اطلعـوا عـلى أسـوان، فاهـم؟».

ظفر الرجُل بقوله:

ـ«حاضر يا كَبير».

التفت إلى شبابهم المذهولين والغاضبين وعاد صراخي لهم:

ـ«رافعـين راسـكُم! وانتـوا تـراب، زرعتـوا مخـدرات مـن ورا ضهـر البنداريـة، ويارتيتكـم طلعتـوا رجالـه وعرفتـوا تحمـوا نفسـكم! والله لـو مـا وقـع منكـم تسـعة، وعيبـة في حـق البنداريـة؛ لموتكـم كُلكـم!»

استدرت لإسماعيل وأردفت:

ـ«لما يوصل كُبار البلاد قولهم كبيرنا لا بيقعد ولا هيقعد في مجلس ناسه فيه غلطانه، وقولهم إن الأرض من بكرا هيركبها البندارية».

دلفت إلى سيارتي صارخًا:

ـ«اطلع يا حسان، ورجالتنا لما تخلص تحصلنا».

اندفع إلى كُرسي قيادة السيارة.. رحلنا تاركين خلفنا رجالنا يحرقون ما زرعه أولاد بلال من مخدرات، وتاركين أولاد بلال قرية بأكملها تتأهب للرحيل خلال ساعات..

ما كُنت لأجلس في جلسة صُلحٍ والطرف الذي أمثله مكسورًا مُخطئًا؛ إن ما رسخناه من عادات وقواعد تسير علينا وعلى الجميع..

ما كُنا لننصُر مُخطئًا لأنه صهرنا فقط، ولا حتي من البندارية؛ لذلك البندارية الآن بفضل ما رسخناه من عادات وقواعد.. ما نملكه من قوة السلاح والمال هي الأكبر وذات الصيت الأوسع، إن الخمسة عشر عامًا الماضية تغير فيها كُل شيء!

لم يعُد كبار البندارية في الجزيرة فكبيرها هو عبد التواب.. وإن لم تعترف به الجزيرة ومن فيها، فإن عموم العائلات من كُل حدبٍ وصوب لم تعُد تعترف إلا بعبد التواب كبيرًا لهم!

كمـا أننـا عاقبنـا الجزيـرة بالكامـل، لـم نسـمح مُنـذُ الليلـة المشـهودة أن تصـل إليهـم قطعـة سـلاح واحـدة، كمـا أكدنـا عـلى جميـع العائـلات والتجـار بـألا يسـمحوا بامتلاكهـم طلقـة واحـدة، وإلا قطعنـا عنهـم نهـر سـلاحنا الـذي لا ينضـب، وهـو مـا كان لـه الأثـر الأكـبر في عـدم اقـتراب كبـار الجزيـرة منـا، بالإضافـة إلى خوفهـم مـن السـبع والضبـع.. كيـف خـرج مـن نسـل البنداريـة مُفترسـين مثلهـم!.

كمـا أننـا وفرنـا لهـم الحمايـة بنسـبهم لنـا؛ كُنـا نؤكـد أننـا نمنـع عنهـم السـلاح إلا أنهـم منـا وفي حمايتنـا، ومـن يقـترب مـن الجزيـرة سـوف نصـل إليـه أينمـا كان.. لـم نفعـل ذلـك حبًـا فيهـم وإنمـا كُنـا نرغـب في تأكيـد مبـدأ أننـا الكبـار الجُـدد وهـو مـا حـدث..

***

اقتربـت مـن أرض الجبـل، تلـك الأرض الـتي تبـدل فيهـا كُل شيء في الخمـس عـشرة سـنة.. تبـدل اسـطبل الخيـل إلى مزرعـة خيـل كاملـة تبيـع الخيـل العـربي إلى كل الـدول العربيـة، كمـا تبدلـت الحدائـق وازدادت جمـالًا وتنظيمًـا، كذلـك منـازل البنداريـة الـتي كـثُرت بشـدة..

أصبحـت هنـا مدينـة كاملـة منهـم، واتسـع الطريـق.. أنشـأنا مـدارس عـلى الطريـق ومستشـفى كبـير، كمـا تبدلـت زرائـب الماشـية، وأصبحـت أكـبر مزرعـة ماشـية في الجنـوب، وأنشـأنا مصنعًـا للألبـان والجـبن، وآخـر للحـوم، وآخـر لتخزيـن الخـضروات وتعبئتهـا..

أنشأنا دولتنا كاملة، حتى منازل ثلاثتنا أنا وعبد التواب ومحمود تزينت بألوانٍ مُبهجة.. كما أعدنا تجديد السور بين النهر وأرضنا، واتسع مرسى القوارب وتطور بقوة حتى أمسى مرسى كاملًا، كي تطور ما كُنا نركبه في البداية من جماله!

أمسى لدينا أسطول كامل من سيارات ((الجيب)) الدفع الرباعي.. إلا أننا لم نُغير عادتنا، فنمُر على منازل البندارية راكبين الخيل العربي.. نستعين بالجمال في حمل السلاح.. عمامتنا لا تتبدل لفَّتها.. جلابيبنا وطرازها البلدي لا يتغير أبدًا..

لكن ما تغير في تلك الخمس عشر سنةً وبقوة هو شخصياتنا؛ محمود الذي لم يُشاركنا قط في بناء دولتنا، كان يكتفي بالغموض في مواقفه والابتعاد عن كُل شيءٍ نفعله، حتى أننا من كثرة إهمالنا له نسيناه في كثيرٍ من الأحيان..

عبد التواب الذي أصبح أكثر قوة ونهم في بناء سلطته، لا يكل أو يمل أو يتوقف برهةً عن بناء سلطانه وسلطته على الجميع، حتى أمسى كبير البندارية كُلها، بل القبائل جميعها وكذلك العائلات.. إلا أكهال وشيوخ الجزيرة ما كان لهم أن يرضخوا لنا، ولم نحاول إرضاخهم بالقوة؛ نحنُ نحافظ على مبدأنا: البنداري لا يقتُل البنداري، يحميه حتى وإن اشتد النزاع بينهما..

وهيبـة.. لـم أفهـم يومًـا كيـف لهـا أن تُحافـظ عـلى شـخصيتها، ظلـت كمـا هـي بهيبتهـا وقوتهـا مـع الجميـع إلا أولادنـا؛ هـي الأم الحنـون لأبنائهـا صـلاح البكـري، ومحمـد، وابنـتي سـماح..

سـماح.. طفلـتي الـتي كُنـت أنهرهـا طيلـة طفولتهـا، أجاهـد بالابتعـاد عنهـا، لـم تكُـن تُشـبه أمهـا قـط في طفولتهـا، كانت استنسـاخًا مـن وجهـي المُرعـب! كُنـت أرتعـب منهـا، إلا أن وهيبـة مـن احتضنتهـا بقـوة وقامـت لهـا أمًـا ترعاهـا.. لكنهـا لـم تُرضعهـا قـط، كانـت تُرضعها نرجـس.. أصرت وهيبـة ألا تُرضعهـا، ولـم تُرضـع أيضًـا محمـدًا ابـن نرجـس، ولا عبـد الرحمـن الابـن الثـاني..

وعندمـا وضعـت وهيبـة ابنهـا محمـد، تبعهـا بأشـهرٍ وضـع نرجس ابنتهـا وهيبـة.. أسـموها عـلى اسـم خالتهـا تيمُنًـا بهـا، إلا أن وهيبـة أصرت أيضًـا عـلى عـدم إرضاعهـا.. لـم أفهـم السـبب! هـل كانـت ترغـب في قـصر إمـداد القـوة والبـأس عـلى أبنائهـا؟ برغـم ذلـك كانـت الأم الحقيقيـة لابنـتي سـماح ولابنـة أختهـا وهيبـة..

أمـا أنـا فحافظـت عـلى بـأسي وقـوتي ووعـدي.. مـا أن غـاب عـني الأمـان حـتى غيبتـه عـن كُل مـن وقـف بطريقـي؛ فدربـت كُل أبنـاء البنداريـة عـلى اسـتخدام السـلاح بالجبـل، حـتى أمـسى كُل واحـدٍ منهـم قناصًـا، إن أطلـق رصاصـةً يُصيـب ولا يُخطـئ أبـدًا هدفـه!

إلا أن مـا لـم أسـتطع أن أحافـظ عليـه هـو هـروبي مـن ابنـتي سـماح.. رغـم أنهـا لـم تدخـل بيـتي طيلـة اثـني عـشر عامًـا مـن عمرهـا

وهـي طفلـة؛ فهـي الآن معشـوقتي وأنـا معشـوقها، لا تنـام إلا في أحضـاني..

رغـم أنها لـم تكُـن تُشبه أمها قـط في طفولتهـا وكان شـبهها مـني يُخيفـني منهـا؛ فهـي مُنـذُ أن بلغـت الثانيـة عـشر مـن عُمرهـا تبدلـت تمامًـا.. تحولـت في تقاسـيم وجههـا وجسـدها وحركاتهـا وهمسـاتها إلى أمهـا، وهـو مـا دفعـني لقبولهـا وإدخالهـا إلى صـدري.. ومُنـذُ هـذا اليـوم لـم تُفـارق حِضـني إلا نهـارًا مـع وهيبـة بمنزلهـا، ومـا أن يحـل المسـاء تُهـرول إلى صـدري..

أمـا عـن بـاقي أولادنـا.. فـكان صـلاح الابـن الأكـبر لعبـد التـواب ووهيبـة، دائمًـا هـو الأقـرب إليّ رغـم أنـه لا يـزال ابـن السـتة عـشر عامًـا.. كان ضبعًـا مثـلي، وحنونًـا وماكـرًا لا تغفـل عينـاه مثـل وهيبـة، وقويًـا باطشًـا مثـل عبـد التـواب..

كان غيـورًا عـلى سـماح بالقـدر الـذي كان يجعلـني أغـار منـه، ففـي مـرةٍ قلـت لـه أمـام وهيبـة أنهـا ابنـتي أنـا! غضـب بقـوة مثـل أبيـه وتنـاسى أني عمـه وأني الضبـع، ووقـف أمامـي سـبعًا مُنتفضًـا مدافعًـا عـن رأيـه أو هكـذا كُنـت أظـن، صارخًـا غاضبًـا:

ــ«إن كُنـت انـت أبوهـا، أنـا أبوهـا وأخوهـا وضهرهـا، حـتى منـك انـت!».

فجّـر ألغامـه في وجهـي بقـوة أبيـه الـتي أعلمهـا، حرقـني بنظراتـه الغاضبـة وانسـحب خـارج المـنزل، كان هـذا الموقـف بالأمـس..

استدرت إلى وهيبـة، وكانـت كلِماتـه رغـم صعوبتهـا تُسـعدني ورسـمت ابتسـامةً قويـة عـلى وجهـي..

الآن أعلـم لـمَ كُنـت آمـن عـلى أمهـا مـع عبـد التـواب ووهيبـة.. لتلـك القـوة في حمايتهـم لهـا، والآن آمـن عـلى ابنـتي وهـي بجـوار صـلاح؛ فهـو أسـدٌ في وجـه مـن يقـترب منهـا بسـوء!

تعالت ضحكات وهيبة وأردفت:

ـ«يظهر يا صلاح لازم نبقى نسايب قريب».

ضحكـت في صمـت فرحًـا بهـذا الشـبل الـذي كاد يفتـك بحياتـه أمـام ضبعٍ مُخضرمٍ عـلى القتـل؛ دفاعًـا عـن محبوبتـه.. عـادت وهيبـة قائلة:

ـ«أول ما يرجع عبد التواب لينا قاعدة مع بعض».

أمـا محمـد الابـن الثـاني لعبـد التـواب ووهيبـة؛ فـكان دومًـا يُشـبه أمـه، ذكيًـا لماحًـا حنونًـا قويًـا لا يُظهـر قوتـه أبـدًا!.

أمـا أبنـاء محمـود ونرجـس كان جميعهـم وبـلا اسـتثناء ماكريـن متعالـين مثـل جدهـم ، حـتى هـذا الطفـل الأخـير ((علي))،لـم أرَ فيهم أطفـالًا أبـدًا! إلا ابنتهـم وهيبـة وحدهـا مـن تُشـبه خالتها اسـمًا وفعلًا.

***

١٠

..دمٌ وفتنة..

توقـف حسـان بالسـيارة أمـام مـنزل عبـد التـواب.. مـا أن فتحـت بـاب السـيارة ووطـأت قدمـاي الأرض جَزِعَـني صـوت عـدة رصاصـات مُتتابعـة في مـنزل عبـد التـواب!

اندفعـت إلى المـنزل بيـدي بُندقيـتي، دلفـت إلى المـنزل فشُـدِهت عينـاي وانفتحـت عـلى اتساعها مـن هـول مـا رأت!! جُثـة محمـود مُلقـاة عـلى الأرض أمامـي، ووهيبـة تقبـض عـلى بُندقيتهـا بيدهـا في شـموخ أمامـه! مـا أن وقعـت عيناهـا عـليَّ بصقـت عـلى جُثـة محمـود، ثـم اقتربـت مـني وأردفـت بقـوة:

ـ»اجمـع رجالتـك واطلـع عـلى طريـق الجبـل.. عبـد التـواب عـلى وصـول هنـاك ،والكلـب بلـغ عنـه.. الحقـه قبـل كمـين الحكومـة!».

هرولـت خارجًـا وكان حسـان مـا يـزال مشـدوهًا إلى جـوار السـيارة، صرخـت فيـه:

ـ»اجمع كُل الرجالة بسرعة!».

ألقيت جُملتي واندفعت إلى داخل السيارة، قادها بجنون ونحن نجمع كُل من يُقابلنا في البندارية بسلاحه كاملًا في طريقنا إلى طريق الجبل، وهو الطريق الخلفي لتجارة السلاح، هو الطريق الذي تحميه الجبال.. ما أن تصل إلى محافظة قنا، لا تجتازه سيارة؛ ولذلك نعتمد على نقل السلاح فيه على الجمال، حتى تصل إلى المخزن في الجبل لدينا.. هو طريقٌ آمن؛ إلا أنهُ مكشوف من قبل الوصول إلى بوابة الجبل، ومن يؤمن هذا الطريق المكشوف أحد أبناء عمومتنا وهم الجمّالين، وتلك المنطقة بين أسوان وقنا هم أدرى بها وبصحرائها، هم ذئاب تلك المنطقة، ويدينون لنا بالولاء الكامل والطاعة والحب أيضًا..

ما فهمته من حديث وهيبة هو أن الكمين بالتأكيد سوف يكون في مدخل طريق الجبل، سترابط الحكومة على بدايته لتلتقط القادم من الأرض المكشوفة..

وصلنا إلى أول الطريق الخلفي لأرض الجبل، وهو الطريق المؤدي إلى طريق الجبل، وكان خلفي أكثر من خمسين سيارة فيهم أكثر من مائتي رجُلٍ مُدججين بالسلاح..

وبمجرد وصولنا إلى أول طريق الجبل التقينا الجمالين، وهم يرابطون أمام طريق الجبل من ناحيتنا لتأمينه، هبطت من السيارة مُسرعًا؛ هرول إليّ الجمالون يحملون سلاحهم، بادرني أحدهم في قلق مُتحدثًا وهو يلهث:

ــ«خير يا كَبير في حاجة؟».

ــ«في كمين الحكومة عاملاه على أول طريق الجبل من الناحية التانية؛ والكبير راجع بسلاح كتير، لازم نلحقه ونخليه يغير الطريق!».

أشار إليّ بالتوقف، واستدار لمن معه وأردف:

ــ«بالجمل زي الريح توصل النجع، بلغ الحاج عمران باللي سمعته، قوله يحجز الكَبير والسلاح في الشونة، ويقابلنا بالرجالة كُلها على أول الجبل.. لازم الحكومة تعرف إن دي أرضنا!».

هرول الرجُل إلى جمله يجتاز به طريق الشاطئ المكشوف من خلف الجبل، وهو الطريق الموازي للجبال والمكشوف للبحر، وأيضًا الطريق غير المُمهد.. استدار إليّ وأردف:

ــ«كُله تمام يا كَبير، لا هيوصلوا للكَبير ولا للسلاح».

أشرت إليه بسبابتي مُحذرًا وأنا أقول:

ــ«لازم الحكومة تتكسر!».

هز رأسه تأكيدًا وأجابني:

ــ«يبقى نزل رجالتك من عربياتهُم، ويلا على الجمال».

هبط جميع من معي من سياراتهم.. بقي نصفهم مع الثمانية الباقية من الجمالين يؤمنون رجوعنا.. ركبنا جمالهم أتقدمهم ومن

خلفي ((الجمال))، هذا هو اسم الرجُل الذي يقودنا بين الجبال الوعرة والضيقة، والتي في كثيرٍ من أحيانها لا تسمح بمرور جملين مُتجاورين، كان يُسرع قدر المُستطاع بنا حتى نصل مُبكرين..

وأنا على ظهر الجمل بدأت أسئلة عديدة في رأسي.. كيف لوهيبة أن تكتشف خيانة محمود؟ وكيف لها أن تقتله؟ وأين الأولاد؟ لم أرى أحدًا منهم! ما هو السر الذي أجهله؟

وما الذي دفع محمود إلى خيانتنا؟ هل ما يزال على عهده القديم من حبه لوهيبة! وكيف له أن يعتقد أن بخيانتنا قد يفوز بها وهي أمٌ لأولاد عبد التواب؟!.

هنالك سرٌ أجهله الآن، إلا أني سأكتشفه بالتأكيد ما أن أعود..

أشار الجمال لنا بالوقوف والصمت التام.. ثم دقق النظر..

كان بيننا وبين بداية الجبل من الطرف الآخر قرابة مائتي مترًا؛ فأشار لنا بالهبوط واعتلاء صخور الجبل..

اعتلينا الجبال من الداخل نحتمي بصخورها، تقدمت مع ((الجمال)) كثيرًا في اعتلاء الجبل حتى أصبحت الصورة خارج الجبل كاملةً لنا؛ احتلت الحكومة مقدمة طريق الجبل، وهم أكثر من مائة فردٍ، لكن لم أرَ سياراتهم؛ انتابني القلق وأنا أسأله:

ـ«مُتأكد إن راجلك وصل ولحق الكَبير؟».

التفت إليّ باسمًا وأردف:

ـ«يا كَبير احنا وصلنا واحنا بنتحرك ببطء، ولسه الكبير موصلش.. أكيد هو وصل ولحق الكَبير متقلقش، الكبير لازم يعدي على الجمالية ويطلعوا معاه وقبله يأمنوا الطريق.. لكن هو إيه اللي حصل المرة دي؟! دي عُمرها ما حصلت قبل كدا!».

لم أجِبه على سؤاله، وإنما اطمأن قلبي لحديثه.. نحن الآن نسورٌ في الأعلى ننظُر إلى فريستنا، وهي تظن أنها تصنع كمينًا لنا!.

مرّت قرابة الساعة، واشتدت حرارة الجبل بقوة.. لكن ما كانت تُقلقنا الحرارة، فنحنُ اعتدنا عليها.. أما فريستنا فكُنا نراهم يتضورون عطشًا، ويشربون كثيرًا من المياه.. دققنا النظر وكذلك هم، بدرت أمامنا وأمامهم من بعيدٍ مجموعة من السيارات تقترب من مدخل الجبل، توقفت السيارات أمام مدخل الجبل، هبط عبد التواب من السيارة في المقدمة، وأشار لمن معه في السيارات بالهبوط..

دقائق ووصل الجمّالون يفرغون السيارات ويحملون صناديقها على الجمال، اندفعت الفريسة تجاه مُفترسها؛ فلم تحتمل الحكومة أن ترى أكثر! ترك الجميع موقعه في مدخل الجبل واندفعوا تجاه عبد التواب يطلقون النار في الهواء.. في تلك اللحظة اندفعنا نحن أيضًا لاحتلال موقعهم في مدخل الجبل، أصبحت الرؤية أفضل بكثير ونحن نحاصرهم من الخلف ونسمع ونرى ما يدور بالأسفل على بعد عشرات الأمتار منا..

اندفـع أحـد الضبـاط تجـاه عبـد التـواب الـذي لـم يهـتز للحظـة وهـو يـصرخ فيـه:

ــ»سلم نفسك يا عبد التواب، احنا محاصرين الجبل كله«.

تعالـت ضحـكات عبـد التـواب بقـوة كالمجنـون، فيمـا شـدُه مـن حولـه.. تمالـك جأشـه وأردف في قـوة:

ــ»محاصرين مين يا باشا؟!«.

ــ»محاصرينك انت وهنحرز السلاح ده كله وانت معاه«.

رفع صوته بقوةٍ أكبر وأجابه:

ــ»طيب اسمع يا باشا، انت معاك عساكر غلابة، ارجع بيهم«.

أشهر مسدسه ووضعه على رأسه وأردف:

ــ»أرجع مين انت اتجننت!«.

أزاح عبـد التـواب فوهـة المسـدس مـن رأسـه ببـطء، وأردف بأعـلى صوتـه وهـو يفتـح ذراعيـه عـلى اتسـاعهما قائـلًا:

ــ»أنـا ملـك الجبـل ده والصعيـد كلـه، اسـمع صـوت عربيـات الحكومـة وهـي بتولـع!«.

أشـار بيـده لمكانٍ بعيدٍ، كان هـذا هـو المـكان الـذي أخفـت فيـه الحكومـة سـياراتهم.. وبدأنـا نسـمع انفجاراتهـا وتصاعـدت أدخنتهـا واللهيـب منهـا إلى عنـان السـماء وهـي تحـترق؛ شُـده الضبـاط وهـم

ينظـرون تجـاه سـياراتهم المحترقـة.. قاطعهـم صـوت عبـد التـواب الصـارخ وهـو يُشـير إلى الطريـق الـذي قـدم منـه قائـلًا:

ــ»ودول رجالتي«.

كان هنالـك أعـدادٌ كبـيرة مـن السـيارات تُراقـب الوضـع مـن بعيـد، وجمـالٌ تحمـل رجـالًا كُلهـم مُدججـون بالسـلاح.. اسـتدار لـه الضابـط غاضبًـا مشـدوهًا يطبـق عـلى مسدسـه يُريـد قتلـه، قاطعـه بإشـارته لـه بالرفـض، ثـم عـاد إلى صراخـه وكأنـهُ يأمـرني، وأشـار إلى أحـد الضبـاط وصرخ:

ــ»يا ضبع، رصاصة في رجل الباشا«.

لـم أكُـن أحتـاج لأكـثر مـن أمـره، رصاصـة واحـدة مـن مـكاني اسـتقرت في قـدم مـن أشـار عليـه، ليخـر في دمـه أرضًـا يتـأوه مـن الألـم.. حـاول أحـد الضبـاط رد الرصاصـة لمصدرهـا المجهـول لكنـه فشـل..

بـدا قائـد الحملـة وكأنـهُ تفهـم أنـهُ فريسـة بـين أنيـاب مُفترسـها؛ صرخ في كُل مـن معـه مُستسـلمًا:

ــ»اوعى حد يضرب طلقة، كله يوقف ضرب النار!«.

وضع بندقيته بجواره واقترب من عبد التواب وأردف:

ــ»اليوم يومك يا كَبير، لكن بكرا لينا، صدقني بكرا لينا!«.

أشار له أن يستدير وأردف:

ــ«أنـا حرقـت نـص عربياتكـم بـس، لازم ترجعـوا بـردوا.. أنـا لـو خليتـك ترجـع يبقـى عشـان العسـاكر الـلي معـاك دي بـس! الحكومـة طـول عمرهـا ناسيانا، إيـه الـلي فكرهـا بينـا! يـا حـضرة الظابـط أحسـن للحكومـة متشـوفناش ولا احنـا نشـوفها؛ لـو الحكومـة شـافتنا لازم تشـيل همنـا، وإذا احنـا شـفناها هناخـد منهـا حقنـا!».

ربت على كتفه وعاد لحديثه:

ــ«ارجع يا باشا».

طأطأ رأسه قهرًا، ثم أمر رجاله بالرحيل..

لـم نتحـرك مـن أماكننـا، أنهـى الجمالـون تحميـل الجمـال وتحركـوا بهـا إلى داخـل الجبـل يتقدمهـم عبـد التـواب.. هبطـت وهبـط مـن معـي و((الجمـال)) إلى جمالنـا، التقيـت عبـد التـواب بالأحضـان وهـو يربـت عـلى كتفـي:

ــ«تسلم يا ضبع».

لـم يكُـن لدينـا الوقـت أو المجـال للحديـث؛ فاكتفيـت بابتسـامةٍ في وجهـه..

تحركنـا عائديـن، وصلنـا وكان رجالنـا في انتظارنـا ..هبطـتُ وكذلـك عبـد التـواب، وبـادر الحديـث إلى الجمـال قائـلًا:

ـ«سلم الجمال للحمير».

الحمير هي من يقود الجمال إلى مخزن سلاحنا بالجبل..

لم نسمح لأحدٍ خارج البندارية بمعرفة مخزن السلاح، حسان وقرابة العشرين شخصًا هم من نثق بهم فحسب..

أما الحمير، فللحمار قدرةٌ كبيرة على حفظ الطريق وهو ما فعلناه، عوّدنا الحمير على الطريق من المخزن إلى بداية طريق الجبل، فيقوم الجمالون بربط كُل جملٍ بحمارٍ يقوده، ويركب حسان على آخر جمل ليتأكد أنه لا يتبعه أحد، وما أن يصل إلى المخزن يعود على رأس أول جمل يقود من خلفه الجمال؛ ليُسلمها للجمالين على طرف الجبل.

تحرك حسان بالجمال ودلف عبد التواب إلى سيارتي يجلس بالأمام، وتوجهت أنا لقيادة السيارة.. تحركنا ورجالنا من خلفنا، فنظرت له، ولم أعلم من أين أبدأ، وكيف سأخبره بما حدث، نظر إلى وهز رأسه وأردف:

ـ«رغم إنك ضبع، لكن قلبك قلب قطة على البندارية، محرم على نفسك وعلينا دمهم، واحنا دمنا عليهم أهون من دم الحمامة!».

ـ«تقصد إيه يا عبد التواب؟»

شرد قليـلًا وهو ينظر من شباك السيارة، ثم تحدث وهـو ينظر منه:

ــ«محمود ابن عمك خانًا ووهيبة قتلته، صح؟».

ذهلني معرفته بالأمر ولم أجبه، إلا أنهُ عاد للحديث قائلًا:

ــ«محمـود فكـر إن أنـا عبيـط وعيـني غفلـت عنـه، وميعرفـش إن عيـني عليـه فـين مـا يـروح! محمـود ابـن عمـك اخواتـه في الجزيـرة لا هضمـوا حقـه ولا حاجـه، هـو اتفـق معاهـم إنـه يرتـب لحـد الوقـت الـلي يخلـص عليـا فيـه ويقعـد مـكاني.. اشـترى سـلاح مـن السـودان، وهـو فاهـم إني مـش عـارف، وعديتـه بيـه للجزيـرة وأنـا عامـل مـش عـارف، أنـا رميـت الطعـم وعرفتـه معـاد وصـولي المـرة دي، وجهـزت لهـا كُل حاجـة، وعرفـت وهيبـة تتـصرف ازاي.. هـو جـري عـلى الحكومـة بلـغ عـني، لكـن مكانـش يعـرف إن عـين وهيبـة عليـه وأنـا بعيـد.. عـلى العمـوم يـا ضبـع جـه وقـت ((الجزيـرة))!».

لم أجِبه بكلمةٍ واحدة!.

وصلنـا للمـنزل، هبطنـا ودلفنـا إليـه، فيمـا كانـت وهيبـة بانتظارنـا.. فمـا أن اقتربنـا منهـا بـادرت بقولهـا:

ــ«حمد الله على سلامتكم».

ــ«الله يسلمك يا حاجة».

جلـس ثلاثتنـا في صالـون الـدور الأول يتوسـطنا عبـد التـواب عـلى كرسـيه، وأنـا عـلى يمينـه ووهيبـة عـلى يسـاره، بادرهـا سـائلًا:

ـ «نرجس عرفت؟».

ـ«نرجس خدت ولادها وجوزها ورجعت على الجزيرة».

لم يُصدم من الأمر، فيما أصابني حديثها بالفزع وسألتها:

ـ»خـدت جثـة محمـود وولادهـا ورجعـت الجزيـرة ازاي؟»

ـ»خدت النبتة الشيطاني، لكن بنتي فضلت معايا».

ـ»يعني إيه؟!».

ـ»وهيبة بنتها فوق في حضني، أنا أمها!».

ربت عبد التواب على كتفي قائلًا:

ـ»روح ارتاح يا صلاح».

نهضـت بصعوبـة وقبـل أن أصل للبـاب التفـت إليّ وهيبـة وقالت لي:

ـ»صـلاح، عبـد التـواب رجـع، وانـا بقولـك قدامـه أهوه إن شـاء الله سـماح لصلاح».

أومـأت بـرأسي إيجابًـا، وفي رأسي ألـف سـؤال.. مـا الـذي حـدث ولا أعلمـه!!.

وصلت إلى منزلي وأنا أنظر إلى منزل محمود الخاوي..

طـوال حيـاتي المُخضبـة بالدمـاء، لـم أقبـل يومًـا بسـفك دم البنداريـة! رغـم علمـي أن قلبهـم أشـد قسـوةً مـن حجـر الجبـل، لـم

أقبل باستباحة دمائهم! وهم أيضًا وإن عادونا علنًا لم يخزوننا يومًا بالخيانة..

حافظنا دائمًا على ورقة توت نتستر خلفها في عدائنا، واليوم سقطت ورقة التوت! هم بادءونا بالخيانة؛ فكان ردنا أقسى وأسرع من ما يظنون، بالقتل!

كيف تحول صراعنا إلى النهاية بتلك السرعة؟! هو السؤال الذي لم أجد له إجابة!

دلفت إلى منزلي والتفكير يقتلني..

حين دلفت إليه كان الأمر أغرب! كانت ابنتي تجلس مقابلةً الباب تحتضن ركبتيها وتضمهما إلى صدرها؛ فتخفي وجهها في أقدامها..

ما أن فتحت الباب اندفعت إلى صدري تبكي بشدة وتنتفض خوفًا! وضعت بندقيتي بجوار الباب، وضممتها إلى صدري وأنا أربت على ظهرها، ثم سألتها في قلق:

ـ «مالك يا بنتي؟»

لم تُجِبني ولم تتوقف عن البكاء وهي ترتعش خوفًا؛ فاقتدتها إلى كنبةٍ إلى يسار الباب، جلست وأجلستها إلى جواري.. أبعدتها عن صدري قليلًا وأردفت:

ـ»أنا جنبك يا بنتي، فهميني في إيه؟»

جففـت دموعهـا بأناملهـا، واسـتجمعت رباطـة جأشـها بصعوبـة.. اسـتغرق الأمـر دقائقًـا مـن الصمـت حـتى أسـهبت في سرد قصتهـا..

مُنـذُ قرابـة العـشرة أيـام.. كُنـا في الصبـاح الباكـر وكُنـت أقـوم بتحضـير الإفطـار مـع خالـتيٍ وهيبـة بالمطبـخ، دلفـت إلينـا ((وهيبـة)) ابنـة عمـي محمـود، وكنـا دومًـا نناديهـا وهبـة، قبلـت خالـتي وقبلتـني.. هـي تصغُـر محمـد ابـن خالـتي بأشـهر، وتصغـرني أنـا وصـلاح بثلاثـة أعـوام، تُشـبه خالـتي كثـيرًا في هيئتهـا القويـة رغـم صغـر عُمرِهـا، وكذلـك في ذكائهـا الشـديد.. ولـم نكُـن نعلـم حـتى هـذا اليـوم أنهـا مثلهـا لا تغفـو لهـا عـين.. بادرتهـا خالـتي سـائلة:

ــ»إيه اللي أخرك كدا يا وهبة؟«

ــ»نمت متأخر«.

قاطعتهم وأنا أسئلها ضاحكة:

ــ»ليه يا وهبة؟ كُنتي بتعملي إيه واتأخرتي؟!«.

أومأت برأسها رفضًا وأجابتني:

ــ»مش أنا يا سماح، ده أبويه وأمي هما اللي كانوا بيتخانقوا«.

ــ»طيـب طلعـوا الفطـار بـرا لعمكـم عبـد التـواب يفطـر عشـان يمـشي هـو وصـلاح ومحمـد، وبعديـن نتكلـم«.

قمت مع وهبة بوضع الفطار لعمي وأولاده، وسرعان ما انتهوا منه ورحلوا..

عُدنا إلى المطبخ ونحن نُعيد الأواني الفارغة، كانت خالتي ما تزال بالمطبخ تنتظرنا.. ما أن انتهينا من تنظيف الأطباق كانت قد انتهت من إعداد إفطارنا.. الحليب وبعض الفطائر.. حملتهم وخرجت بهم إلى الصالون ونحن خلفها..

جلست خالتي وأنا على يمينها ووهيبة على يسارها، وبدأنا في تناول الإفطار..

سألت وهبة مجددًا قائلة:

ـ«أبوكي وأمك كانوا بيتخانقوا ليه؟».

ـ«مش عارفة والله يا خالتي، أنا كُنت في الأوضة بتاعتي وبعدين سمعتهم وأمي بتقول:

ـ«نرجع الجزيرة، اخواتك هناك وأرضك هناك، ليك إيه هنا؟ كل حاجة هنا في إيد عبد التواب!».

فقالها:

ـ «دلوقتي بس، لكن قريب كُل حاجة هتبقى في إيدي».

ـ«يا محمود أوعى تلعب بالنار، انت عارف لو حد عرف إنك كذبت زمان، وإنك متفق مع إخواتك على كُل ده، ممكن يحصل إيه؟».

صرخ فيها:

ـ»هيحصل إيه! وبعدين أنا مرتب كُل حاجة، ترتيب ١٦ سنة عشان آخد تار أبويه، عيزاني أضيعه دلوقتي؟!».

ـ»وانت متأكد يعني إن هو اللي قتله! وبعدين الجزيرة كُلها عارفة إنه مات مُش اتقتل «.

ـ»لكن أنا بس اللي عارف إن أبويه اتقتل بطلقة في صدره، ومتأكد إن هو اللي قتله عشان ياخد السلاح ويعمل كَبير!».

أنهت وهبة حديثها المُبهم والذي لم أفهم ولا هي منه شيئًا، نظرت إل خالتي قائلة:

ـ»بس يا خالتي، وأنا مش عارفة هما ليه كانوا بيتخانقوا، وجزيرة إيه اللي أمي عايزة ترجع لها؟».

تبدلت ملامح خالتي، تجلّى الغضب على ملامح وجهها، وكانت نبرتها عكس ما يبدو عليها حينما قالت:

ـ»متشغليش بالك، وإياكي تحكيلهم حاجة أو تسألي حد فيهم؛ مشاكل الكبار هم اللي يحلوها، أنا بناتي لا بتتدخل في مشاكل الكبار ولا ليهم دعوة بيها، مفهوم؟».

تفهمنا حديثها، وإن لم تكُن لهجتها حادة؛ فنحنُ نعلم متى يكُن حديثها تحذيرًا يجب علينا طاعته..

هـي معنـا دائمًـا الأم الحنـون، دومًـا تبتسـم في وجهنـا ولا نلمـح غضبهـا كثـيرًا.. هـي أمٌ لي ولوهبـة.. رغـم أن والـدة وهبـة حيـة فإنهـا لـم تكُـن تـرى فيهـا تلـك الأم الـتي تراهـا في خالـتي وهيبـة..

أمـا أنـا فهـي أمـي بالفطـرة؛ هـي مـن حملتـني وأنـا رضيعـة، وهـي مـن عكفـت عـلى تربيـتي.. هـي مـن تضمـني عـلى صدرهـا وتصفـف لي شـعري، وهـي مـن علمتـني مـا هـو صحيـحٌ ومـا هـو خطـأ.. هـي مـن أصرت عـلى تعليمـي مثلمـا أصرت عـلى تعليـم أولادهـا صـلاح ومحمـد، وكذلـك أصرت عـلى تعليـم وهبـة.. لذلـك هـي أمـي وأعشـقها..

دارت الأيـام بـلا أي اختـلاف، مـا مـرّ يومـين عـلى حديـث وهبـة حتى سـافر عمـي عبـد التـواب، لـم نعلـم إلى أيـن يذهـب ولا مـتى يعـود!.

في تلـك المـرة كان عمـي حسـان دائـم القـدوم إلى المـنزل، يجلـس مـع خالـتي ويتحـدث في همـسٍ، ويفـرغ مـا في جعبتـه ويرحـل.. ظـل الأمـر عـلى هـذه الحـال كثـيرًا حـتى الأمـس!.

بعـد أن رحلـت ومعـك عمـي حسـان، ذهبـت كعـادتي إلى خالـتي، وصلـت إليهـا فرأيـت صـلاح ومحمـد يرتديـان ملابسـهما باكـرًا.. فأخبرتـني خالـتي أنهمـا ذاهبـان بصحبـة أبنـاء عمـي محمـود إلى أسـيوط لـشراء أقمشـة لملابسـهم..

سـألتها عـن وهبـة؛ فأجابتـني أنهـا سـوف تذهـب معهـم، عُـدت لأسألها ولـمَ لا أذهـب أنـا أيضًـا معهـم؟ اسـتدارت إليّ ونحـن نراقـب تحركهـم مـن أمـام المـنزل، ضمتـني إلى كنفهـا وأجابتـني قائلـة:

ـ»انـتي يـا سـماح.. أنـا مقـدرش أبعـد عنـك، كلهـم يمشـوا لكـن انـتي لأ!».

غمرتـني السـعادة بشـدة؛ شـعرت أن لي مكانـةٌ كبـيرة لديهـا، وإن أصرت عـلى بقـائي رغـم رحيـل الجميـع..

انطلقـت معهـا إلى تجهـيز الغـداء بالمطبـخ، تركتـني فـترةً مـن الوقـت وعـادت، كانـت قـد تبدلـت تمامًـا.. عـادت وهـي تحمـل بُندقيـة في يدهـا، وأشـارت إليّ بسـبابتها تُحـذرني ألا أخـرُج مـن المطبـخ أيًـا مـا كانـت الأسـباب والدوافـع!.

رحلـت وبـدأ الخـوف و القلـق يتملكـني، ولـم أجـرؤ عـلى مُغـادرة المطبـخ، إلا أنـني أخرجـت رأسي مـن البـاب أبحـث عنهـا وعـن مـا يـدور..

كانـت تقـف بينهـا وبـين بـاب المـنزل مـن الداخـل قرابـة العـشرة أمتـار.. لحظـات وأنـا أترقبهـا حـتى دلـف إلى المـنزل عمـي محمـود، وقـف أمامهـا يفصلهـم قرابـة الثلاثـة أمتـار، بادرتـه قائلـة:

ـ»مرحب يا ابن عمي».

ـ»مرحب يا حاجة، واقفة ببندقيتك ليه كدا؟!».

ـ»أبـدًا يـا ابـن عمـي، عرفـت إن فيـه كلـب كَل عيشـنا وملحنـا وخانّـا!».

بدا ثابتًا في رده عليها قائلًا:

ـ«مين ده يا حاجة؟!».

بدت أكثر تحفُزًا وقوة، أجابته:

ـ«واحد فكر إنه بعيد عن عنينا، افتكر إنه ضحك علينا زمان لما قال إن اخواته أخدوا حقه في ورثه من أبوه، وخالف كلامنا وبعتلهم سلاح، لأ وراح بلغ عن كبيرنا الحكومة، كان فاكر نفسه ممكن ياخد مكانه! لكن ازاي كلب يحل محل سبع، الكلب يفضل كلب، والسبع يفضل سبع!».

انفجر غضبه وصرخ فيها قائلًا:

ـ«لا أنا عُمري كُنت كلب، ولا جوزك عُمره كان سبع، الكلب هو اللي ياكل في طبق عمه ويقتله عشان يسرقه! أنا برتب لليوم ده من ١٦ سنة، كُل اللي انتوا عايشين فيه ده من خيري أنا؛ أنا اللي سيبتكم تبيعوا سلاحي وتبنوا بيوت وتشتروا أراضي، أنا اللي عرفت جوزك منين يجيب سلاح وازاي يبيعه! جوزك اللي سرقك مني، والنهاردة انتي بتقولي الكلب يفضل كلب والسبع يفضل سبع.. صحيح لكن الكلب يبقى جوزك، مش أنا!!».

كانت تلك هي إحدى المرات النادرة التي أرى فيها ضحكاتها الصافية، التي تخرُج من قلبها وتملأ بها الدنيا، أنهت ضحكاتها بإيماءة الرفض من رأسها وأردفت:

ـ«دلوقـتي بـس أنـا ممكـن أريحـك وأعرفـك ليـه انـت كلـب وهـو سـبع؛ زمـان لمـا قولـت للسـبع لازم عمـك يتقتـل، رد عليـا وقـالي:

ــ«لأ يـا وهيبـة، حـتى لـو هـو أكل حـق أبويـه يفضـل عمـي، دمـه حـرام عليّـا يـا وهيبـة!».

اقتربت منه مترًا آخر وبدت أكثر حزمًا وقوة وأردفت:

ـ«لكـن أنـا، لا هـو عمـي ولا دمـه حـرام عليـا.. أنـا اللي قتلـت أبوك؛ لأنـه كان كلـب زيـك بالظبـط!. انتـوا الاتنـين عيشـيتكم عـلى الدنيـا حـرام! هـو افتكـر إن بفلوسـه يقـدر يشـتري ويبيـع في النـاس، وانـت طـول عمـرك كلـب يلحـس جزمتـه؛ لا عُمـرك كُنـت سـبع ولا هتكـون!».

عادت للخلف و في أقل من لحظة واحدة صرعته برصاصتها!.

خرّ صريعًا!.

فزعـتُ إلى الخلـف، وأمسـكت فمـي بكلـتي يـدي أجمـح صرخـة كانـت لتخـترق الجـدران؛ كيـف لتلـك الأم الحنـون أن تقتـل عمـي بهـذا الـدم البـارد!! لـم تـتردد لحظـة في قتلـه! كانـت في قوتهـا أشـد مـن الجبـال! لـم أتخيـل يومًـا أنهـا بهـذا الجـبروت والبطـش....

***

١١

..عهد الدم..

خُتمت آذاني وأصابها الصمم، لم أعُد أسمع شيئًا! لا أعلم أهذا الصمم نتيجة صوت الرصاصة، أم من الفزع الذي أصابني!

تقوقعت أرضًا بجوار الباب وأنا انتحب وأبكي بحرارة، حتى همهماتي بالبكاء ما كُنت لأسمح لها بأن ترتفع.. لمَ هان الدم إلى هذا الحد! كيف يُستباح الدم الذي حرمه الله إلى هذا الحد! أقتلته حقًا أم أني في كابوسٍ يجب أن أستيقظ منه!؟

صرت ألطُم وجهي بقوة يمنةً ويسرةً عسى أن أستيقظ من هذا الحلم! بعد عدة لطمات نزفت دمًا على إثرها من فمي، استيقظت على كابوس الواقع.. بالفعل قتلت عمي، أنا لست نائمة!!.

عادت إلى داخل المطبخ، وعاد إلى سمعي.. وقفت تبحث عني بعينيها، بينما أنا أسفل قدميها أرتعد رُعبًا.. استدارت على صوت همهمتي ففزِعت لرؤية الدماء على وجهي، صرخت في وجهي قائلة:

ـ»بنتي!!«.

ركعت على رُكبتيها أمامي، وأمسكت فمي بيدها وجففت الدم بشالها، ضمت رأسي إلى صدرها وسألتني بخوفٍ جعلني أتشكك في أن تلك الحانية الخائفة من قطرات دمٍ على وجهي، هي قاتلة عمي من لحظات، قائلة:

ـ«إيه اللي حصل يا بنتي؟».

ابتعدت عن صدرها قليلًا وأجبتها وأنا أرتعد:

ـ«اتخضيت من الصوت واتخبطت».

لم أكُن قد رأيت الدمع في عينيها قط! طيلة حياتي لم أرَ هذا الدمع الذي يتلألأ في عينيها وهي تحتضنني وتقبل جبهتي..

هدأت جوارحي بضمّها لي، استكانت روحي الغاضبة، وعاد إليّ الأمان وتبدد خوفي.. لم أفهم كيف يتبدد خوفي في أحضان من أرتعد خوفًا منها، هُناك شيءٌ لم أفهمه! رغم خوفي لم أكرهها؛ بل أحببتها أكثر وأنا في أحضانها.. هي أم.. ولكن كيف لها أن تقتل!!.

جاهدت في منع نفسي من سؤالها، وبدا أنها تشعر بسؤالي بداخلي؛ فأجابتني عليه ورأسي على صدرها وهي تربت على أكتافي، قائلة:

ـ«أنا عارفة انتي خايفة من إيه، لكن يا بنتي في وقت بيكون لازم تعملي حاجات صعبة.. كُل حاجة في الدنيا ممكن نسامح فيها

إلا الخيانـة؛ الخيانـة يـا سـماح يعـني حـد يدبحـك بسـكينه بـاردة، يقطـع بيهـا روحـك؛ هـو ده الـلي عملـه عمـك!».

أخرجت رأسي من صدرها، ولم أتردد في سؤالي:

ـ«طيب يا أمي، وخالتي نرجس؟ وأولاد عمي؟ ووهبة؟!».

أومـأت برأسـها إيجابًـا وكأنهـا كانـت تتوقـع سـؤالي، أجابتـني بثقـةٍ قائلـة:

ـ«خَالتِـك نرجـس عايـزة ترجـع الجزيـرة، غصـب عنهـا طـول عمرهـا وهـي كـدا؛ لا بيهمهـا حـد ولا بتهمهـا حاجـة! كتـير زمـان كُنـت أبقـى بـصرخ جوايـا مـن الوجـع وأنـا بشـتغل شـغل الرجالـة عشـان هـي تنـام وترتـاح، وأولاد عمـك كُلهـم زي أمهـم.. لكـن وهبـة دي بنـتي أنـا، زيـك بالظبـط عُمرهـا مـا تبعـد عـني!».

فَزِعـني صـوت صُراخٍ وعويـل! أشـارت خالـتي إليّ بالبقـاء مـكاني، وخرجـت تبحـث عـن مصـدره.. كانـت تعلـم موعـد عـودة خالـتي نرجـس وأولادهـا، بالتأكيـد هـذا النحيـب والعويـل صـادرٌ منهـا!.

نهضـت أراقـب مـن بـاب المطبـخ وعيـنيّ تتابـع خالـتي وهيبـة، كيـف لهـا أن تواجـه شـقيقتها، وهـي قاتلـة زوجهـا! وقفـت أمامهـا في قـوة وصلابـة وبادرتهـا قائلـة:

ـ«اقطعي النفس!».

أجابتها وهي راكعة على رُكبتيها أرضًا أمامها وقد أغرقت دموعها وجهها، واحمرت وجنتيها من لطماتها المتكررة عليهم، رفعت رأسها قائلة في انكسار:

ـ«قتلتي محمود يا وهيبة؟ قتلتي جوزي؟!!!».

ـ«قتلت كلب! خان الدم والعيش والملح! فكَر إنه يقدر يضحك علينا!! حنش وكان عايش في وسطنا وكان لازم أضرب راسه عشان يموت، لكن ديله لسه وقته مجاش! قومي يا ديل الحنش، لمي ولادك وخدي جثة الحنش بتاعك.. ارجعي للجزيرة اللي كنتي عايزة ترجعيلها! ارجعي خدامة عند ولاد محمد البنداري!!».

نهضت أمامها وهي تُجفف دموعها بشالها.. أطبقت قبضة يدها وشدت على أسنانها.. هزت رأسها رفضًا وألقت عهدها لشقيقتها قائلة:

ـ«طول عُمرك وانتي الكبيرة، اللي لازم تتحب ولازم تتطاع!! حتى جوزي اللي حبيته كان بيحبك، وقتلتيه! لكن لأ يا وهيبة، عهد عليَّ بدم جوزي، عهد عليَّ بالقهر اللي في قلبي لرجع الجزيرة وأحاربك انتي وجوزك وأولادك! وعمري ما أرتاح إلا وانتي وجوزك وأولادك غرقانين في دمكم!!».

ألقت عهد الدم في وجه شقيقتها واستدارت لترحل، أوقفتها صرخة خالتي قائلة:

ـ»وهبة، وهبة!«.

هرولـت وهبـة إليهـا قادمـة مـن الخـارج باكيـة، ارتمـت في أحضـان خالتهـا وأمهـا الـتي عكفـت عـلى تربيتهـا طيلـة حياتهـا وهـي تبـكي قائلة:

ـ»أبويه مات يا أمي!«.

ربتت على كتفها بقوة ونظرت لها قائلة:

ـ»اسـمعي يـا وهبـة، أمـك واخواتـك راجعـين عـلى الجزيـرة، مـش هيقعـدوا معانـا تـاني.. ترجعـي معاهـم ولا تقعـدي معايـا هنـا؟«.

أجابتها بلا تردُد:

ـ»لا، أقعد معاكي!«.

استدارت خالتي نرجس باسمةً بحسرة، وأردفت لشقيقتها:

ـ»أصـلًا دي عُمرهـا مـا كانـت بنـتي، طـول عُمرهـا بنتـك، وعهـد عـليَّ لاكـسر قلبهـا زي مـا كـسرتي قلـبي!«.

خَتَمَت حديثها وهي تطبق على قبضة يدها ورحلت..

رحلـت وأنـا عـلى يقـين أنهـا لـن ترحـم أحـدًا منـا في انتقامِهـا.. تملكـني الخـوف مـن حديثهـا، لـم أعُـد أعلـم عـلى مـاذا أخـاف أخـاف عـلى خالـتي وهـي في مكانـة أمـي؟ أم أخـاف عـلى عمـي عبـد التـواب أم عـلى وهبـة؟ أم عـلى محمـد ابـن خالـتي أم عـلى أبي؟! لـم أعُـد أعلـم سـوى أني يجـب أن أحيـا بالخـوف مثـل أمـي!.

أنهـت ابنـتي سرد مـا حـدث لهـا وهـي تنتحـب بشـدة.. تأكـدت الآن أنهـا فعـلًا مثـل أمهـا، لـن تهـدأ جوارحهـا إلا إذا ضممتهـا؛ ضممتهـا إلى صـدري وأردفـت:

ــ»بس أهم واحد لازم تخافي عليه انتي نسيتيه خالص!«.

أخرجت رأسها من صدري، وسألتني مذهولة:

ــ»مين يا بابا؟!«.

ــ»صلاح!«.

لمعــت عيناهــا واحمــرت وجنتاهــا وانخفضــت جبهتهــا، ثــم أجابتــني:

ــ»ما انا قولت إني خايفة عليك«.

تعالت ضحكاتي وأردفت:

ــ»لأ يا روح أبوكي، أنا قصدي صلاح ابن عمك«.

صمتت تمامًا.. هي ابنتي بخجل أمها.. عُدت للحديث:

ــ»عـلى العمـوم النهـاردة عمـك عبـد التـواب وخالتـك وهيبـة طلبـوكي مـني لصـلاح، وأنـا موافـق.. انـتي بقـى ردي عـلى خالتـك بكـرا بنفسـك«.

تبـدل حالهـا وتهللـت أسـاريرها، وارتمـت في صـدري تهـرب مـن نظـراتي لهــا.. كانــت ســعادتي بخطبتهــا أكــثر مــن ســعادتها، لكــن

سـعادتي مـا كانـت لتبـدو عـلى وجهـي؛ قُتلـت سـعادتي بخطبـة ابنـتي الوحيـدة بداخـلي بإثـر سردهـا لقصـة كُنـتُ أجهلهـا، بـل الحـق لـم أكُـن أتخيلهـا!.

محمـود هـو ابـن عمـي، وطيلـة حياتـه ومعرفـتي لـه لـم أتخيـل يومًـا أن يكـون لديـه مثـل هـذا المكـر! مـا قالـه عبـد التـواب ومـا سردته سـماح لا يـدُل إلا عـلى أنـه رتـب لـكُل شيءٍ مُنـذُ وصولـه إلينـا! حـتى أنـهُ أكـد لي أن أشـقائه منعـوا عنـه إرثـه، أكان كُلـه كذِبًـا!! وضحكاتـه في وجهنـا، كذِبًـا!! مقتـل أبيـه.. لـم يعلـم أحـدٌ في الجزيـرة كُلهـا إلا أنـهُ تُـوفي، اليـوم أكتشـف أنـهُ قُتـل! وعـلى يـد وهيبـة!.

وهيبـة جاهـدت لثأرهـا منـه بقتلـه، إنـهُ أهانهـا وأهـان كرامتِهـا، لكنهـا كعادتهـا لا تـترُك ثأرهـا أبـدًا!

والآن وبعـد كشـف المسـتور؛ بالتأكيـد سـوف يتجـدد نزيـف الـدم مـن جديـد، ولكـن في تلـك المـرة هـو دمٌ بنـداري خالـص! وأنـا لـن أُلطـخ يـدي بـدم البنداريـة أبـدًا، وجميعهـم يعلمـون ذلـك مُنـذُ البدايـة؛ فقانـوني هـو تحريـم الـدم البنـداري! بـل سـأجاهد لمنـع تجـدد نزيـف الـدم..

***

١٢

مرّ عامان جاهدت فيهما ووفقت لمنع تجدُّد نزيف الدمِ حتى اليوم، لكن عهد الدم كان أقوى مني قَبَصَني أخيرا لينفذ سهمه..

بدأ اليوم.. وهو أسعد أيام حياتي.. اليوم زفاف ابنتي على صلاح، تأخر هذا الزواج عامين مُنذُ أن طُلبت يدها مني؛ فقد أصرت وهيبة ألا يتم الزواج إلا بعد دخول ابنتي وأولادها إلى الجامعة.. لا أعلم من أين لها بتلك الفكرة فنحنُ لم نتعلم! إلا أنها أصرت بكُل قوة على ذلك، ولم تكتفِ بالأمر لابنتي وأبنائها؛ بل أصرت عليه ورسختهُ مبدأً لأبناء البندارية كافة.. أكدت على تعليم بناتنا حتى الجامعة، أما رجالنا فإن أراد أحدهم الاكتفاء بالتعليم الثانوي فلم تكن تعترض..

كانت تهتم بنسائنا بطريقةٍ مُبالغٍ فيها! ترى أن المرأة هي عماد منازلنا، وهي الحقيقة.. كما أنها لم تكُن تسمح لأحدٍ أن يهين ابنته أو زوجته! ومن هذا تعيس الحظ الذي يسوقه قدره الأسود إليها عن طريق شكوى من زوجته أو ابنته.. هي ملجأ كُل نساء البندارية والمدافعة عنهن، هي صاحبة الفضل الأول والأخير بعد الله في نهوض نسائنا.. تلك حقيقة لا يُنكرها إلا جاحد!

فهذا ما أخر هذا اليوم عامين كاملين..

كُل يـومٍ في العامـين كُنـت أؤكـد لوهيبـة وعبـد التـواب حُرمـة الـدم البنـداري، إلى أن انتزعـت منهـم قـرارًا بأننـا لـن نُبـادر بهـذا الـدم مُطلقًـا! وراقبـت هـذا القـرار طيلـة العامـين..

حـتى جـاء يـوم سـعدي.. دُعيت إلينـا اليـوم آلاف مـن البـشر مـن كُل حـدبٍ وصـوب.. نُحـرت عـشرات العجـول والجمـال والخـراف.. انـصرم النهـار بـين الطبـخ والترحيـب وإطعـام الحاضريـن وكتابـة عقـد الـزواج..

غابـت الشـمس وتعالـت أدخنـة شـواء اللحـم ووصـل المُغـني وفرقتـه.. امتـلأت السـاحة بـين مـنزلي ومـنزل عبـد التـواب وبيـت الضيافـة، وبيـت الضيافـة مـا كان مـنزل محمـود مـن قبـل، تحـول إلى مقـرٍ للضيافـة وفـض الـنزاع والتشـاور مـع القبائـل والعائـلات..

كانـت ابنـتي وخالتهـا وكافـة النسـاء تمـلأن مـنزلي، وقطعـةً مـن الحديقـة بجـواره أقمنـا فيهـا سرادقًـا مُحاطًـا بأقمشـة الخيـام الثقيلـة لتكُـن النسـاء بداخلـه..

تعالـت أصـوات الأعـيرة الناريـة بقـوة مـع قـدوم صـلاح عـلى فرسـه العـربي وبجـواره أخـاه محمـد عـلى فرسـه..

هـذا عشـق أولاد عبـد التـواب؛ يرتبطـون بقـوة بالخيـول العربيـة، إلا أن محمـدًا كان الأكـثر ارتباطًـا بهـا؛ فمُنـذُ كان في العـاشرة مـن عمـره

كان يُشـارك في السـباق الـذي نُقيمـه كُل عـام.. يركـب فرسـه ((بحـر)) ـ وبحـر هـو فـرس محمـد ـ وهـو الآن ربـاع، فـرس أبيـض عـربي أصيـل يـسُر الناظـر، لـهُ جلجلـة بديعـة تطـرب لهـا الآذان.. ولا يسـبقه فـرسٌ ولا يلحـق بـه فـرس! أسـماه بحـرًا تكريمًـا لـه كمـا أطلـق رسـول الله ((البحـر)) عـلى الخيـل..

تعالـت أصـوات المُغـني وعـزف الموسـيقى، هبـط صـلاح عـن فرسـه وجلـس بيـني وبـين أبيـه في الصـدر، ظهورنـا لمنزلهـم وأمامنـا الجمـع الغفـير مـن الحاضريـن.. فيمـا اختـال أخـاه بفرسـه الـذي تراقـص عـلى وقـع الموسـيقى.. تعالـت ضحكاتنـا وابتسـاماتنا الصافيـة..

لكـم كُنـت أتمـنى أن تكـون زوجـتي حيّـة اليـوم ليسـعد قلبهـا بهـذا الفـرح الـذي يـكاد يطـير له قلـبي.. دمعـت عيني مـا أن ذكرتهـا؛ فأخفيت دمعـي بإطـلاقي للنـار بقوة من بندقيـتي حتى فرِغت وسـط تهليل الجمع.. فرِغـت بندقيـتي وأنـا أقف أمـام عبد التـواب وصـلاح الجالسـين خلفي..

اسـتدرت لهـم ولـم تنتبـه أذني بعـد للجلبـة؛ فكُنـت أظـن الجلبـة تهليـلًا وفرحًـا..

صعقـني دم صـلاح الـذي أغـرق جلبابـه الأبيـض خلفـي وأبيـه يحتضنـه!! ألقيـت بندقيـتي أرضًـا وهرعـت إليهـم فزِعًـا وأنـا أصرُخ عـلى حسـان!.

هـبّ عبـد التـواب واقفًـا وهـو يُطلـق النـار.. عـم الوُجـوم الجمـعَ الغفـير..

هـرول إليّ محمـد وهـو يـصرُخ سـائلًا مـاذا حـدث؟! لـم أجِبـه فأنـا لا أعلـم مـاذا حـدث، ولكـني مـا زلـت أصرُخ عـلى حسـان الـذي وصـل مرعوبًـا لا يعلـم مـاذا جـرى!

لكـن عبـد التـواب لـم يكُـن بخوفنـا أو بفزعنـا؛ يـبدو أنـهُ يعلـم مـا الـذي حـدث!.

هـرول مبتعـدًا عنـا باتجـاه اسـطبل الخيـل وتبعـه رجالنـا.. مـا كُنـت لأنشـغل عـن دم صـلاح في يـدي؛ لـم يطـرأ في رأسي سـوى صراخـي لحسـان بالهرولـة في إحضـار طبيـبٍ بالسيارة ولـو بالقـوة! ولكـن كيـف أوقـف الـدم مـن جُرحـه، غـزارة الـدم جعلتـني لا أعلـم مصـدره..

شـعرت بوخـزة قويـة في كتفـي مـن الخلـف؛ التفـتُّ أنظـر صاحـب الوخـزة فكانـت وهيبـة، وعـلى وجهها عبـوسٌ وغضـبٌ ترمقـني بنظـرة تـكاد تخترقـني، وكأنهـا تُحملـني الذنـب!.

شـقّت جلبـاب ابنهـا عـن صـدره وهـي تُفتـش عـن الجُـرح.. بـدا في كتِفـه.. نظـرت إلى الأرض يمنـةً ويـسرةً حـتى وقعـت عيناهـا عـلى بندقيـتي؛ هرعـت لهـا وأعـادت تذخيرهـا وأفرغتهـا في الهـواء.. ثـم وضعـت ماسـورة البندقيـة المُشـتعلة بجرحـه وهـو يـصرخ ألمًـا.. تلـك هـي الطريقـة الوحيدة لوقـف النزيف مؤقتًـا! اسـتدارت إليّ وهي تصرخ:

ـ«اطلع بجوز بنتك على بيته!».

لم أتردد في حمله على ذراعي ومن خلفي أخيه.. صعدت به إلى منزلي أخترق جمع النساء الصارخ، وهرعت به إلى غرفتي ووضعته على الفراش وهو غائبٌ عن الوعي تمامًا! ما أن وضعته اندفعت إلى الغرفة تلك الملاك في فستان زواجها الأبيض تصرُخ وتنتحب.. هرعت إلى الفراش تحتضن زوجها الغائب عن الوعي، بينما أنا وشقيقه ما زلنا مشدوهين! لا نصرخ ولا نبكي! تتملكنا الرغبة في الاطمئنان عليه، ومعرفة من أطلق عليه الرصاص!.

لم تمُر لحظات حتى كانت وهيبة تقتحم الغرفة ومن خلفها وهبة، كانت كُل ملامح وهيبة تؤكد أنها لن تسمح لليلة أن تمُر دون حق ابنها؛ لا تصرُخ ولا تبكي! عادت إليها ملامحها التي أعرفها جيدًا، والتي أخشاها.. صرخت قائلة:

ـ «خدي بنت عمك واطلعوا برا!».

اندفعت وهبة لتصحب سماح من أحضان زوجها الدامية؛ صرخت فيهم قائلة:

ـ «خلوني جنبه!».

عادت وهيبة لقوتها المعهودة قائلة:

ـ «هي كلمة واحدة، برا الأوضة!».

فهمت ابنتي أنهُ لا مجال للاعتراض؛ نهضت بعد أن تبدل لون فستانها الأبيض الملائكي إلى الأحمر الداكن الشيطاني، ثم رحلت من الغرفة والقهر يملؤها تقتادها وهبة..

أغلقت وهيبة الباب خلفهما واقتربت مني تحرقني بنظراتها.. أشهرت سبابتها في وجهي وكانت نبرتها أقرب إلى صوت بندقيتي في إطلاقها الرصاص قائلة:

ــ«انت ليك سنتين كُنت بتقول بلاش دم، بلاش نبدأ بيه؛ لحد ما الدم وصل لسريرك! شوف جوز بنتك وابنك وابن أخوك، هو ده الواد اللي انت ربيته بإيدك، ضربوه بالنار في يوم فرحه وانت واقف!! شوف القهر اللي بنتك فيه وجوزها بيموت!!».

حاولت الدفاع عن نفسي ولكنها أشارت إليّ بالصمت وأردفت:

ــ«خلاص.. انت حرمت على نفسك دم البندارية، لكن أنا لأ! دم ابني هيرجع!».

بدا لي أنها لن تتراجع؛ كيف أمنعها عن حق ابنها ، قَبَضني مشهد الدم عن الجهاد أكثر في منعه.. سمعنا دقات على الباب ودلف حسان ومعه الطبيب.. هرع الطبيب في مداواة جُرح صلاح وهو يُمجد في من كوى الجُرح بالنار.. انتزع الرصاصة من كتفه، وبمجرد أن انتهى اندفع إلى الغرفة عبد التواب، سمع مثلنا من الطبيب أن الأمر قد استقر، ولن يُصيب الشاب الراقد شيء.. هي فقط عدة أيام وسيعود مثلما كان..

رحل الطبيب ومعه حسان فيما بادرت وهيبة بسؤال زوجها:

ـ«مين منهم ؟».

ـ«محمد».

ـ«موتّه ولا لسه؟».

ـ«مات».

ـ«الليلة يا عبد التواب الجزيرة كُلها تكون جمرة نار! الليلة!».

هـز رأسـه إيجابًـا ثـم رحل.. لـم أفهـم شـيئًا وكذلـك محمـد ابنهم، والـذي مـا زال محافظًـا عـلى صمتـه.. اسـتدارت إليّ وهيبـة سـائلة:

ـ«عارف مين اللي ضرب جوز بنتك بالنار؟!».

أومأت برأسي نفيًا؛ فأردفت:

ـ«محمد ابن نرجس، البكري!».

دَحَضَـت كُل مـا كان يُمكـن فعلـه، كُل مـا كان يُمكـن قولـه دفاعًـا عـن الدم!.

قهرتـني بحديثهـا وكأنهـا سـكبت عـلى رأسي نـارًا، أشـعلت جسـدي حـتى أخمـص قدمـي، صُمـتُ تمامًـا عـن الحديـث في تلـك الليلـة.. لـم أُجِيـب ابنـتي المقهـورة عـلى أسـألتها المؤلمـة والمُكـررة: لـمَ أرادت خالـتي قتـل صـلاح؟! مـا ذنبنـا فيمـا تلطخـت بـهِ أيديكـم مـن دم؟! ألـم تكتفـوا دِمائًـا؟!.

لـم أسـتطع أن أُجيبهـا! بـدا لي هـذا المـنزل الكبـير المتسـع أصغـر مـن جُحـر ثعبـان وأضيـق مـن صدفـة سُـلحفاة عـلى جسـدها؛ اندفعت إلى خـارج المـنزل حـتى وصلـت إلى مـرسى المراكـب، وجلسـت أسـفل ذات الشـجرة الـتي كُنـت أجلس عندهـا يـوم وفـاة سـماح.. تداعـت إليّ الذكريـات والآلام، ولـم أشـعُر لكـم بكيـت وأنـا وحيـدٌ في تلـك الليلـة! كُل مـا أذكُـره أن جلسـتي وبـكائي اسـتمرا حـتى ظهـرت خيـوط النهـار..

غفـوت قليـلًا، ولكـن انتزعـني مـن غفـوتي قـدوم حسـان، الـذي عـاد مـع عبـد التـواب مـن رحلـة الشـيطان في إخضـاع الجزيـرة..

نفـذ عبـد التـواب مـا أرادته وهيبـة بالتمـام.. جمـع كل رجالنـا طالبًا الـدم مـن الجزيـرة، طالبًـا إخضاعهـا إلى الكبـير! لـم تكُـن الجزيـرة خضعـت لـه بعـد كُل تلـك السـنوات؛ وهـو ما تسـنّى لـه في تلـك الليلة!.

بوصولـه إلى الجزيـرة أحـرق كُل عـودٍ أخـضرٍ يقـف في أرضهـا، لـم تقـاوم الجزيـرة الأسـد الغاضـب؛ تُـرك لـه فعـل مـا يُريـد.. فـكان الجميـع بهـا يعلـم أنـه لا يُمكـن مقاومتـه، والأحـرى أنهـم كانـوا ينتظـرون هـذا اليوم! حـتى ذهـب إليهـم طالبًا منهـم الثأر تـبرأوا من ابنهـم! تـبرأوا مـن دفعهـم لـه لقتـل صـلاح، وتـبرأوا مـن دمـه أيضًـا!.

خضعت الجزيرة بكاملها لكبيرها دون دم..

كُنـت أعلـم أنهـم في الجزيـرة ليسـوا عاجزيـن عـن قتالنـا، لكنهـم أرادوا قتالنـا بالدهـاء؛ حـتى أن نرجـس تزوجـت مـن حمـاد شـقيق زوجهـا!.

عـاد عبـد التـواب دون أن يحصُـل عـلى مـا يُريـد.. مـا كان يسـعى لإخضـاع الجزيـرة لـه، مـا كانـت تعنينـا بالأسـاس؛ فهـي تحيـا عـلى بقايا تراثنـا، والكبـير الفعـلي عـلى الأرض وأمـام الجميـع هـو عبـد التـواب! وإن لـم يعترفـوا بـه عيانًـا..

عـاد دون أن يحصُـل عـلى الـدم! هـذا مـا كان يسـعى إليـه هـو ووهيبـة في تلـك الليلـة..

بـدا لي أن الـدم البنـداري مُحـرمٌ حقًـا! فـإن لـم أمنعـه أنـا سـوف يُمنـع عـن مـن يُريـد سـفكه رغمًـا عنـه..

لكنـي كُنـت أعلـم أن المعركـة لـم ولـن تنتـهِ بتلـك الليلـة؛ إنمـا هي بـدأت فقـط! عهـد الـدم كان أقـوى مـن أن تكـسره رحمـة أو حـب.. لكـن مـا كان يُشـعرني بالأمـل أنـهُ مـا تـزال لدينـا قلوبًـا حيـة تنبـض، لـم يغضـب الله عـلى أرضنـا بعـد، لـم تمُـت كُل القلـوب لدينـا.. حـتى قلـبي، هـذا القلـب العـاصي، هـذا القلـب الـذي لـم يـرِق للدمـاء الـتي أرقتُهـا يومًـا..

مُنـذُ أن غابـت سـماح عنـه فقـد شـهوته في الـدم حـتى وإن سـعيت لهـا بجسـدي وعقـلي!.

تأكـدت اليـوم أني مـا كُنـت لأعـود إلى سـفك الـدم مـن جديـد.. هل فقـد الضبـع بداخـلي شـهيته إلى القتـل؟! أم أصبـح الإنسـان بداخـلي أكـبر منـه فأخضـع هـذا الوحـش النائـم! مـتى يمـوت هـذا الضبـع بداخـلي! مـتى ألحـق بسـماح! كيـف أن يجتمـع شـيطانٌ بمـلاكٍ أمـام

الله؛ أنا سافك الدم القاتل، أنا ذراع الشيطان، بل أنا الشيطان ذاته.. لن ألتقِها أبدًا! لن تصل رحمة الله إلى قاتلٍ مثلي أبدًا! لن أنجُ من العقاب! وإن نجوت منه الآن، سوف أقبع في قعر جهنم بالتأكيد وحيدًا ألقى مصيري وجزائي وحدي..

انتظار المجهول أفضل بكثيرٍ من انتظار المعلوم.. أعلم مصيري وانتظر.. الآن فقط علمت لمَ خشي المسحور الاقتراب مني مُنذُ أكثر من عشرين عامًا، الآن فقط علمت لمَ كان هذا النهر غاضبًا هائجًا يُريد طردي من داخله!! أنا شيطانٌ ملعونٌ لن يرحمه الله! أسير على الأرض مُتيقنًا من موقعي في قعر الجحيم!

عندما يفقد الإنسان الأمل.. يتحول إلى لعنةٍ تسير على الأرض ....

***

١٣

٢٠٠٥

..سيدي عابد..

اصطف موكب سياراتنا في الساحة بانتظار إشارة التحرُك..

زحف الموكب للأمام ما أن وطأت قدم عبد التواب السيارة، جلس إلى جواري بالخلف وأمامنا حسان يجلس إلى جوار السائق..

تغير كُل شيءٍ هُنا مُجددًا! قرابة السبع سنوات على زواج ابنتي وحادثة يوم زفافها كانت كفيلة بكُل هذا التغيُر..

تبدل منزل محمود القديم المواجه لمنزلي، تحول إلى مقرٍ لمجلس العائلات والقبائل، فيه تُحل جميع الخلافات، وفيه تُعقد جلسات القبائل والعائلات كافة؛ فهو أقرب ما يكون إلى قصر الحُكم، بل هو حقيقةً قصرٌ لحُكم العائلات والقبائل؛ فقد يصدُر فيه أمرٌ يُعمم على جميع القبائل والعائلات.. في حين قد تُصدر الحكومة العديد من القرارات ولا يلتفت لها أحد!

قـوة هـذا المـنزل في سـلطته، وهـي العـادات والتقاليـد الـتي رسـخنا أكـبر قـدرٍ منهـا، فـأي أمـرٍ يصـدُر مـن داخـل جـدران هـذا المـنزل يلقى القبـول والأثـر في نفـوس الجميـع؛ لتوافقـه مـع عاداتـه ومُعتقداتـه..

أمـا الحكومـة فـلا تـرى سـوى قوانينهـا وسـلطتها في قوتهـا.. وهنـا لا قـوة لهـم مُطلقًـا! إلا أننـا نعلـم مكانهـم ولا نتحداهـم، وهـم بالمُقابـل يعلمـون قوتنـا ومكاننـا ويهابوننـا..

ومـنزلي أيضًـا أصابـه العجـز والقفـر بعـد رحيـل الضـوء عنـه.. برحيـل مـن تُـضيء حيـاتي بعـد وفـاة أمهـا فارقـني النـوم تمامًـا، وأصبح مـنزلي مُظلمًـا أكـثر مـن الظلمـة في قلـبي مـن الوحـدة..

كُل ليلـةٍ أبيتهـا في مـنزلي لا تغفـو لي عـين! مـا أن أضـع رأسي عـلى فـراشي أسـمع صرخـات وبـكاء كُل من سـفكت دمـه يومًـا، أرى وجُوههم المُلطخـة بالدمـاء وهـم يهرولون خلفـي رافعين راية القصـاص؛ فيهرب النـوم مـني وتنتابـني القشـعريرة والخـوف مـن مصـيرٍ محتـومٍ أعلمـه..

حـتى زوج ابنـتي تبـدل تمامًا؛ فلـم يعُد هـذا الشـاب الطائش،أضبح يُشـبه أبيـه في قوتـه وأمـه في دهائهـا ومكرهـا.. أنهـى دراسـته الجامعيـة مـن كليـة الزراعـة وأنهتهـا ابنـتي مـن كليـة التجـارة.. هـو الآن يُديـر كُل شـبرٍ نملكـه مـن الأرض، وكُل مـزارع الماشـية ومصانـع الألبـان والتغليـف والتعبئـة والجـبن..

كذلـك تبـدل أخـاه.. مـا أن تخـرج مـن كليـة الحقـوق تـزوج مـن وهبـة، الـتي درسـت معـه في ذات الكليـة.. رغـم أنـه ليـس زوج ابنـتي،

فإنهُ الأقرب إليّ.. هو يعشق الخيول العربية الأصيلة مثلي، لم يُفوت يومًا سِباقًا للخيل ولم يخسر سِباقًا.. قد يرجع الفضل لفرسه ((بحر))، هو الآن في عُمر الحادية عشر في أوج قوته، تتبقى لهُ ثلاثة أعوام حتى يبدأ في الضعف والوهن. خرج من نسله هو و((مهجة)) التي زوجناها له فرسةً تفوق أبيها قوةً وأمها جمالًا، هي الآن عُمرها عامين، وأسماها محمد ((وهبة)).. هي فرسةٌ بيضاء بالكامل مثل أبيها؛ إلا أنها ورثت عن أمها غُرتها السوداء التي زادتها جمالًا..

أما عن مالكها فهو أيضًا يُدير كافة المصانع والمزارع مع أخيه وبشكلٍ أجدر.. أخاه مُنهمكٌ في الزراعة، وكذلك هو وريث تجارة الدم مع أبيه ومعي..

أما أمهم وهيبة فهي الوحيدة التي على عهدها، لا يُغيرها الزمان أبدًا، لا يُحرك فيها قيد أنمُلة!

أما زوجها الجالس إلى جواري الآن في صمت، فهو الآن أحد أعضاء مجلس الشعب ولهُ علاقات قوية بكُل من في الحُكم من الحكومة.. يُشاع عنه أنهُ من يُدير المحافظة بالكامل، لكن ذلك للجهلة فقط! أما الحقيقة فهو يُدير الصعيد وأطراف البلاد بالكامل.. سيناء .. السلوم .. مرسى مطروح .. الوادي الجديد .. الفيوم.. كُل قطعةً من الأرض يقف عليها ابنٌ للقبائل أو لإحدى العائلات يدين بالولاء له..

ونحـنُ اليـوم نتحـرك إلى مُحافظـة أسـيوط؛ لإنهـاء خصومـةٍ ثأريـة بـين قريتـين، بالأسـاس نحـنُ نتجـه لدعـم نجـع سـلومة؛ تلـك الخصومـة الـتي دامـت لأكـثر مـن ثلاثـين عامًـا آن لهـا الآوان أن تنتهـي.. إن مـا يشـدهُني في تلـك الخصومـة برغـم إمدادنـا سـلومة بقـدرٍ مـن السـلاح الـكافي لإبـادة ((بهجـة))، وهـي القريـة الـتي تُعاديـه عـن بكـرة أبيهـا؛ لـم يسـتطع كـسر شـوكتها! لا أعلـم كيـف لتلـك القريـة أن تصمُـد كُل هـذا الوقـت في وجـه هـذا الإعصـار! ومـا يُذهلـني أكـثر أن أعـداد القتـلى مـن الجانبـين مُتسـاوية، حـتى أن سـلومة عجـز عـن كسرهـم! كُلمـا قتـل منهـم فـردًا قتلـوا مـن عائلتـه فـردًا..

في كُل الأحـوال سـوف يُكشـف الأمـر بعـد لحظـات؛ فلقـد قاربنـا على ((بهجـة)).. وقـد اشـترطوا أن يكُـون الصلـح عـلى أرضهـم، وهـو حقهـم لأن المعركـة لـم تبـدأ منهـم، وهـو مـا لا يلقـى أثـرًا طيبًـا في نفـس عبـد التـواب.. إلا أنـهُ وعـد سـلومة أن يكـون بجـواره في جلسـة الصُلـح..

نحـنُ نتحـرك في موكـبٍ كبـيرٍ يقـارب الثلاثـين سـيارة برجالنـا مُدججين بالسـلاح، حـتى طريقـة حركتنـا تبدلـت! لـم نعـد نتخـذ الطريـق السـحري بالصحـراء وبـين الجبـال عـلى مشـارف قنـا حـتى أسـيوط، الآن نسـير عـلى الطـرق الرئيسـية بواسـطة علاقـات كَبيرنـا..

اقترنبـا مـن نجـع سـلومة؛ فمـا كان لـه أن يتحـرك إلى قريـة بهجـة منفـردًا، كمـا أن موعـد الجلسـة في الظهـيرة ومـا يـزال باقيًـا عـلى الظهـيرة سـاعات قليلـة..

توقفت سياراتنا واندفع إلينا سلومة الذي لم يُبدله الزمان، مُخترقًا زحام النجع المُحتشد عن بكرة أبيه.. رحب بنا وأطلقت الأعيرة النارية بكثافة تهليلًا لقدومنا. دلفنا إلى منزلٍ كبيرٍ ننتظر به ريثما يجهز الطعام.. جلسنا وكُنت على يسار عبد التواب وعلى يمينه سلومة، سأله عبد التواب بقوة مشدوهًا:

ـ»نفسي أفهم، ازاي بالسلاح اللي أخدته مني ده كُله عجزت قدام بلد! يا سلومه انت أخدت مني سلاح يهد بلاد، مش بلد صُغيرة!!«.

طرق قليلًا وهو يهز رأسه يمنةً ويسرةً، وزفر غاضبًا ليقول:

ـ «الشيخ ((عابد))!«.

ـ»مين؟!«.

لم يتوقع أو يتقبل أو يتفهم! ما أن ظفر بسؤاله أسهب سلومة في سرد مُعجزات الإمام، هي تلك الكرامات والمُعجزات التي يقشعر لها بدنك كُلما سمعتها..

بدأ بقوله أن سيدي ((عابد)) هو ابن الشيخ الكبير صاحب المقام، وأنهُ من سُكان بهجة؛ صرخ قائلًا:

ـ»يمين بالله لو ما فيها الشيخ؛ لنسفتها من على الأرض نسف!«.

عاد إلى سرد الأساطير عن سيدي عابد، ومنها أنهُ كان يراه كُل يومٍ وهو يُرابط في الزراعة يستهدف أحدهم من بهجة؛

فيقف أمامه الشيخ عابد قائلًا له وهو يُشير له بسبابته:

ـ«وعزة الله ما أكون في بلد ورايتها تتنكس وتتغلب، وعزة الله ما هتاخد واحد إلا وأخدنا قدامه واحد!».

عاد إلى ذكر الأساطير عن الشيخ، ذكر أنه كُلما حاول قتله كانت يده تهتز ولا يتمكن من الضغط على الزناد حتى يغيب الشيخ عن نظره!.

زاد الأمر غرابة حينما قال أنهُ في إحدى المرات استجمع شجاعته وضغط على الزناد، إلا أن البندقية كانت فارغة! جُن جنونه وهو ينظر للخزنة الفارغة في يده؛ أسرع في تلقيم سلاحه بخزنةٍّ أخرى، وصعقه أن جميع خزائن البندقية معه فارغة! لم يستفق إلا والشيخ أمامه ضاحكًا قائلًا:

ـ«عايز تموتني يا سلومة؛ لكن ليا عُمر يا مغفل!».

قال أن جسده تيبس ولم يستطع الحركة، وظل يُتابع الشيخ وهو يرحل بعينيه حتى غاب عن نظره.. كانت تلك آخر مُحاولاته البائسة..

ولمّا غاب الشيخ عن نظره صعقه أن جميع خزائن بندقيته مُذخرة!! أقسم جهد أيمانه أنها كانت جميعها فارغة ولمّا رحل عادت مُذخرة!.

تأكدنا أن الشيخ ((عابد)) مثل أبيه أحد أولياء الله.. أثناء تناولنا الطعام لم يصمُت عن الحديث عنه، وعن آلاف البشر الذين يعولهم، وعن تجاراته المُتعددة في الزراعة والبناء والمصوغات والمشغولات الذهبية والسيارات، كما ذكر عائلة الإمام الكبيرة، وهي تلك العائلة التي لم تتورط يومًا في دماء! ظل يتحدث حتى تملكني شعورٌ غريب تجاه الشيخ الذي لم أرَه!

انتهى الطعام وبدأنا الحركة بسيارتنا وتحرك سلومة ومعه كبار النجع وكبار العائلات والوسطاء، كما علمنا أن في قرية بهجة الملاصقة لنجع سلومة عددٌ كبيرٌ من كبار ضباط المحافظة لحضور جلسة الصلح. وصلنا قرية بهجة أمام سرادقٍ كبيرٍ مكتظٍ بجمعٍ غفيرٍ من البشر من أهل القرية وكبار العائلات الوسيطة، التي ترعى الصلح وضباط الشرطة..

رحب الجميع بنا بحفاوة، وكُنا في صدر السرادق، وما أزال أحافظ على موقعي على يسار عبد التواب وسلومة عن يمينه.. نظر عبد التواب لأحد الضباط الكبار وسأله:

-»من سوف يتحدث باسم بهجة؟«.

أجابه:

-»الشيخ عابد، ولكنهُ يُصلي الظهر بالمسجد وسوف يصل خلال لحظات«.

كان أهل بهجة يبدون غاضبين رافضين لهذا الصلح؛ حتى أننا سمعنا صراخ كثيرٍ من أهالي المقتولين رافضين الصلح.. وهو الأمر المعتاد في كُل جلسات الصلح؛ ولذلك لا نُعيره أهمية. فما أن يتم الصلح ينتهي كُل شيء.. إلا أنهُ يُعطي إحساسًا بأن الأمر ليس بالهين عليهم!.

تعالت الصرخات الرافضة للصلح على أطراف السرادق، باءت مُحاولات الجميع تهدئة الوضع بالفشل، نظر إليّ عبد التواب يستيقن أني جاهزًا لأي طارئ؛ هززت رأسي تفهمًا، وتحفزت فأشرت بعيني لحسان الذي تفهم أني آمره أن يُحفز رجالنا بخارج السرادق.

لحظات وسمعنا صرخةً قوية قائلة: ((يا ولد))! جذب الصوت نظرنا، إلا أن ما شدهني أكثر كيف رضيت الأنفس الهائجة ما أن وقعت الأعيُن على صاحب الصوت! هذا هو ولي الله، ما أن تقع عينيك عليه تذكُر اسم الله! «اللّه أكبر» هي ما خرجت من فمي ما أن نظرته!

ربت بيده على الصدور الهائجة وهو يشق الزحام ببطء، لم تغِب الابتسامة عن وجهه ولو لبُرهة، انخفضت الجباه أمامه وسكنت الأرواح الهائجة لرؤياه، قبلت القلوب الغاضبة بما قبل به، وصل أمامنا ونظر إلى سلومة ضاحكًا وأردف:

ـ»مش قولتلك وعزة الله ما أكون في بلد وتتغلب، من غير كلام يقدم ولا يأخر قبلنا الصلح وعفا الله عما سلف».

استدار إلى أهل بهجة قائلًا:

ــ«انحروا الدبايح لضيوف بهجة».

أنهى حديثه وأنهى الجلسة قبل أن تبدأ، ثم جلس وكأنهُ وردة تفتحت لتوها، تطير حولها الفراشات والنحل بلا ملل أو كلل. لم يلتقط أنفاسه قط، لم أستطع حتى أن أميز وجهه من الزحام حوله، ولم أُحصِ عدد المُقبلين ليده! لم يكُن الأمر يروق عبد التواب بجواري وكان يتعجل الطعام؛ وهو عادة جلسات الصلح أن يقتسم المتخاصمون الطعام من طبقٍ واحدٍ حتى تنتهي المعركة و يعلن الصلح، وهو ما حدث.

وضع طبقٌ من اللحم على الطاولة أمامنا، ولكن من عساه أن يطعم أمام سلومة! وكأنه سمع سؤالي برأسي؛ وقف سيدي عابد أمامنا وأجابني قائلًا:

ــ«أنا يا صلاح اللي هاكل معاكم».

وزع اللحم على ثلاثتنا وقضم كُلٌ منا قطعةً في فمه، وهو أيضًا، ثم كففنا عن الطعام.

انتهت جلسة الصلح وبدأنا في الانصراف، وأثناء مرورنا لا أعلم ما أسر به الشيخ بعبد التواب في أذنه؛ إلا أنهُ لم يُعجب أبدًا بما قاله له، ذلك ما بدا لي من غضبه واندفاعه للخارج!

وما أن مررت به باسطًا يدي له أشرق في وجهي إشراقة يومٍ جديدٍ وأملًا في الغد، وأسرني بقوله في أذني هامسًا:

ـ«بكرا قابلني بعد صلاة الظهر في الجامع».

ربت على كتفي والتفت لمن يليني، تحركت بجسدي وبقيت روحي معه كأنما مسني مسٌّ سماويٌّ ساحرٌ! هدأت روحي وشُدهت مُخيلتي وعيني، صُمت أُذني عن كلام البشر؛ لم أسمع إلى سُخط عبد التواب ولعناته طيلة طريق العودة، لا أعلم فيمَ فكرت ولا أعلم كيف دُبر الأمر! لا أعلم سوى أني في تلك اللحظات كُنت هائمًا شاردًا في سيدي عابد.. كيف تهدأ الجوارح برؤياه!

تذكرت إحدى روايات سلومة عنه حينما قال أنهُ مُعتادٌ الاعتكاف بالجبل، وأنهُ أراد قتله في إحدى المرات وصعد الجبل خلفه فما أن اقترب منه بالجبل ليقتله هاجمته الذئاب، ولم ترتدع عنه إلا حينما صرخ فيها سيدي عابد بأن تعود! وصرخ في جُملة واحدة له من بعيد دون أن يقترب منه وهي: «نحنُ قومٌ نخاف الله؛ فيخافنا كُل شيء»! قالها ورحل تتبعه الذئاب ملازمته مثل كلابٍ وفيةٍ لسيدها..

وصلنا أرضنا ولم يكُن المنزل هدفي، شعُرت أن ما بي من أحاسيس لن تشعُر بها سوى الخيول؛ فاتجهت لاسطبل الخيل وجلست في حظيرة ((بحر)) التي لا يحدوها سقف، هي قطعة أرض مُحاطة بسياج خشبي وأرضها تملؤها الحشائش، وفي أحد أضلاعها

بـاب الاسـطبل. مـا أن شـعر ((بحـر)) بقـدوم أحـدٍ أصـدر صهيـلًا قويًا، هـو هـذا الفـرس العـربي الأصيـل الغيـور عـلى زوجتـه ((مهجـة)) وابنتـه ((وهبـة))، مـا أن وقعـت عينيـه عـليّ اقـترب مـني بعـد أن اطمئن مـن القـادم، احتضنتـه وكذلـك احتضنـت مهجـة ووهبـة اللتـين وصلتـا إليّ بعد((بحـر)).

تركتهـم وجلسـت عـلى أريكـةٍ خشـبية وروحـي تناجـي هـذا الجمـال في هـذه الأفـراس البديعـة، بهـاء النجـوم وخشـوع الليـل.. كُل هـذا الجمـال في الحيـاة طمسـه الـدم في عيـني! مـا كُنـت أراه أبـدًا! ولـم أرَه إلا اليـوم مـا أن لامسـت يـدي سـيدي عابـد..

لكنـه طلـب مـني أن يـراني في المسـجد بعـد صـلاة الظهـر، أي مسـجدٍ يقصـد! كيـف لي أن أنـسى أن أسـأله! بـدأت أغضـب مـن نفسي ومـن غبـائي المُسـتحكم، ولكـن غلبـني الجمـال أمـام عيـني عـن غضبـي وإنانيـه، حـتى أنـهُ أنسـاني أحفـادي ((عبـد التـواب ومحمـد))؛ الأول ابـن السـتة أعـوام والثـاني ابـن الأربعـة. همـا مـن كان يهلـك يومـي كُلـه معهمـا طيلـة السـنوات الماضيـة؛ لـم أكُـن أهتـم بتجـارة ولا بزراعـة في تلـك السـنوات؛ فـكُل مـا كان يُشـغلني أحفـادي والخيـل..

بينمـا أنـا جالـسٌ مشـدوهًا بهـذا الجمـال.. يزيـدني سـعادةً أنغـام جلجلـة بحـر وزوجتـه وهرولـة وهبـة حولهـم وصهيلهـا، وهبـة دائمـة التحـدي لقـوة وخـبرة بحـر.. تمـر مـن جـواره وتدفعـه برأسـها وتهـرول، تلـك الطفلـة تسـتفز فرسًـا لسـباق آملـةٌ أن تربحـه، وهـي لا تعلـم أنهـا

ابنـة لفـرسٍ لـم يخـسر سـباقًا واحـدًا طيلـة حياتـه، الـتي بدأهـا مُنـذُ سـبع سـنوات؛ طالمـا جاهـد أعيانًـا ومشـايخَ وعائـلات وقبائـل، وحـتى أمـراءً مـن دولٍ أخـرى وفرسـانًا يحـضرون لسـباقنا ليهزمـوا ((بحـر))، هـو الفـرس الـذي لـم تتكسر هيبتـه أمـام أيٍّ منهـم إلا أمـام وهبـة؛ كُلمـا اسـتفزته هـمّ بالسـباق خطـوات ثـم يعـود ليتركهـا تهزمـه وتُصـدر جلجلـة عاليـة؛ تُعلـن فيهـا نصرهـا الزائـف الـذي أهـداه لهـا أبيهـا.

كُل هـذا كُنـت أراه وبشـكلٍ يومـيٍ مُنـذُ أعـوام، لـم يُسـعدني أو يشـدهني جمالـه إلا اليـوم!

أخرجني من حالتي تلك صوتٌ قائلٌ:

ــ»سرحان في إيه يا عمي؟!»

التفـت باحثًـا عـن مصـدر الصـوت؛ فـكان ((محمـد)) جالسًـا بجواري وهـو صاحـب السـؤال، بيـد إليَّ أنـهُ جالـسٌ مُنـذ فـترة؛ فأجبته:

ــ»ولا حاجة يا ابني».

أومأ برأسه رفضًا وأردف:

ــ»لأ يـا عمـي، السرحـان اللـي انـت فيـه ده أنـا عارفـه كويـس؛ انـت بتحـب يـا عمـي».

تعالت ضحكاتي بقوة، سألته مُستهزئًا:

ــ»بحب؟!».

أومأ برأسه تأكيدًا وبدا واثقًا بقوة وهو يُجيبني:

ـ«أكيد يا عمي بتحب، مش شرط إنك تحب واحدة عشان تحس بالحب! مُمكن تحب نفسك، أو تحب فرسك، أو تحب جمال ربنا وإبداعه في خلقه! كُلنا بنحب يا عمي، لكن المشكلة هي امتى نعرف إننا بنحب! وفي الغالب بنعرف إننا بنحب، لكن متأخر!».

ألقى كلِماته ولاذ بالصمت والشرود مثلي.. هذا الشاب لم يُشبه أيًا منا طيلة حياته، دومًا كان يهرُب إلى قراءة الكتب وإلى الوحدة مع الخيل، وفي كثيرٍ من الأوقات يركب فرسه ويهيم به لساعات. لم أعلم يومًا إلى أين يذهب أو متى يذهب أو حتى متى يعود، دومًا كانت كلِماته مُقتضبة وجمله قصيرة تحمل في طياتِها آلاف المعاني، وفي أغلب الأوقات تكون شافية دون أن تكون مُباشرة.. رغم أنهُ وصف حالتي بأني أُحب!

هو ما لم أتفهمه في البداية حتى قال جُملته والتي مست قلبي بشدة؛ حقًا كُلنا يبحث في داخله عن الحب، وما أن يصل إليه تصاب روحه بهذا المس السماوي الساحر؛ وهو المس الذي أصابني من قبل وحييت فيه عامًا كان عُمري كُله بجوار زوجتي..

الآن ما أشعُر به هو ذات الشعور من الطمأنينة والصفاء الذي كُنت أشعُر به من قبل، ولكن ما كُنت أجهله هو أني في تلك اللحظات أحببت الله!

لـم يتفـوه بكلمـة أخـرى وكذلـك أنـا، لا أعلـم مـتى رحـل مـن جـواري؛ فأنـا لـم أشـعُر مـتى غفوت وأنـا جالـس! كُل مـا أذكـره أن عيني عندمـا فتحـت مُقلتيهـا شـاهدت أبـدع آيات الجمـال؛ كانـت الشـمس تُـشرق مـن بعيـدٍ، تتراقـص أشـعتها عـلى اسـتحياء، ميـاه النيـل الجاري صُبغـت مـن أشـعة الشـمس بلونهـا الذهـبي زادت خيـلاءه وكبريـاءه، نسـائم الهـواء المحملـة برائحـة الزهـور الـتي تفتحـت عـلى أشـجار الفواكـه، السـماء بلونهـا الصـافي.. كأن الحيـاة ولـدت مـن جديـد أمـام عيـني، هـي حيـاةٌ بكـر لـم يفـض الإنسـان بكارتهـا بعـد!

تحركـت مسـحورًا بالجمـال الإلهـي، اجتذبتـني قـوةٌ خفيـة لا أعلـم مصدرهـا ولا ماهيتهـا، تحركـت سـيرًا عـلى قدمـي مـن مسـجدٍ إلى آخـر.. لـم يشـغلني أن موعـدي مـع سـيدي ((عابـد)) في الظهـيرة؛ كُل مـا كان يشـغلني هـو أن أصـل إلى المسـجد الـذي يُريـد أن يلقـاني بـه، أصـل لـه وأجلـس لانتظـره فحسـب. بحثـت كثـيرًا ومـرارًا وتكـرارًا مـن قريـةٍ لأخـرى، لا يلهـث لسـاني إلا بسـؤالٍ واحـد لـكُل مـن ألقـاه إلى جـوار أحـد المسـاجد وهـو: هـل الشـيخ عابـد يعتـاد صـلاة الظهـر هنـا؟

تجهمـت في وجهـي أوجـهٌ كثـيرة وهـي تُجيبـني بالرفـض، ظللـت أبحـث وأدور حـتى خـارت قـواي وجلسـت أرضًـا عـلى أحـد الأرصفـة؛ فقـد وصلـت بي رحلـة البحـث إلى مركـز محافظـة قنـا، جـف حلقـي وأصلتـني حـرارة الشـمس عرقًـا، لـم يعُـد لـدي القـوة لمواصلـة البحـث؛ أصابـني اليـأس مـن لقائـه، ووبّخـت نفسي عـلى هـلاك قـوتي وضيـاع موعـدي..

أكان يجب أن أتحرك من مسجدٍ لآخر مثل المجاذيب! كان يتحتم علي أن أذهب إلى قريته ((بهجة)) وهناك بالتأكيد من يدُلني..

صعقني صوت الآذان يرتفع بقوة من أحد المساجد وبدا من الصوت أنهُ قريبٌ للغاية؛ تأكدت الآن أني ضيعت لقاءً كُنت في أمس الحاجة إليه! نهضت بصعوبة من الإنهاك والإعياء قاصدًا المسجد، وهو مسجدٌ كبيرٌ لهُ باحة من الرخام مُحاطة بسورٍ حديديٍّ يُحدد حرم المسجد ويحوي الباحة الواسعة، دلفت إلى منطقة الوضوء لأتوضأ، لا أعلم كيف كان الماء باردًا في هذا الحر الذي أصلاني، وكان هُناك رجُلٌ يحمل قربة ماء يقف إلى جوار باب منطقة الوضوء.. رجُلٌ طاعنٌ في السن يُجاهد بابتسامته في طمس تجاعيد السن على وجهه، لهُ لحية قصيرة بيضاء بياض الثلج، يرتدي جلبابًا فضفاضًا، ما أن اقتربت من الباب قال:

ـ«تعالى يا ابني اشرب انت عطشان».

لا أعلم من أين عَلِمَ بعطشي وحلقي الجاف، هل بدا له على وجهي ذلك أم أنهُ رجُلٌ غريب! اقتربت منهُ وأنا أتشكك فيه، أسقاني كأسًا تلو الأخرى تلو الأخرى.. كانت الماء ممزوجة بماء الورد وباردة، شربت وكأني لم أذق الماء من قبل، ما أن انتهيت عاد الرجُل إلى غرابته قائلًا:

ـ«كفاية، انت هتشرب من إيد سيدنا بنفسه، بس ابقى ادعيلي عند سيدنا لما تزور المقام».

سحب الكوب من يدي ورفض أن يُسقيني، التمست منه الماء والسؤال قائلًا:

ـ«أنا عطشان يا حاج، ومقام مين اللي هزوره؟!»

نظر إليّ بدهشةٍ كبيرة وأشار بسبابته رفضً، انحنى عليّ وأردف:

ـ«سيدي ((السباعي))، صلي الظهر وزور المقام».

أنهى حديثه وانصرف بوجهه عني، وانهمك في مُتابعة عمله الذي لا يلقى عليه أجرًا، هكذا كُنت أظن بجهل وأنا أتحرك تجاه المسجد، أقنعت نفسي بأنهُ رجُلٌ ذو عقلٍ مُضطرب، وإلا لما كان وقف للعب دور السقّا في زمنٍ انتهى منه كُل السُقاه وأصبحوا أثرا..

ما أن دلفت إلى المسجد شدهني زخرفته البديعة والطمأنينة التي هبت على روحي بداخله، يبدو أني وصلت مُتأخرًا؛ فلم أجد موضع قدمٍ لي في الصف الأول ولا في الثاني وحتى الخامس؛ فالتحقت بمؤخرة المُصلين.

انتهى الإمام من الصلاة، وتجمع حوله عددٌ كبيرٌ من المصلين حجبوا رؤيته عني، لم يكُن يشغلني أن أعلم من هو هذا الإمام بقدر ما كان يُزعجني ضياع موعدي مع سيدي عابد، وكلِمات الرجُل العجوز عن مقامٍ لا أراه. ما أن تذكرت كلِماته وقعت عيناي على بابٍ خشبيٍّ في أحد أركان المسجد، يبعُد عن المنبر قرابة العشرة أمتار، لا أعلم لمَ تحركت إليه، فما أن وصلت له ونظرت لما

خلفه شدهني ما رأيت! وانفتحت عيناي على اتساعها! هو مقامٌ من النحاس يعلوه قبةٌ مُرتفعة، دلفت وكان هُناك عددٌ من الرجال أغلبهم يُغمض عينيه ويتضرع في الدعاء وتلاوة القرآن، اقتربت من أحدهم وسألته:

ـ«هو ده مقام مين يا حاج؟»

استدار إليّ يرمقني بنظرة وكأنهُ يسُب أهلي وأسلافي، وأردف في غضبٍ لجريمتي بانتزاعه من حالة الخشوع التي كان فيها قائلًا:

ـ«سيدي ((السباعي))!»

صعقني ما قاله! إذًا لم يكُن الرجُل العجوز خرِفًا أو يهذي! انتابتني قشعريرة غريبة، وشعرت بدوار، أقدامي لا تستطيع حملي، مسحت عيناي المكان بحثًا عن موضعٍ أستريح فيه حتى وقعت عيني على أحد الأضلاع ويحوي بابًا خشبيًا مُغلقًا؛ فاتجهت إليه وجلست أرضًا أسند ظهري على الباب الخشبي، أومأت برأسي رفضًا لجهلي، وتذكرت هذا الرجُل العجوز الكريم، ورفعت يدي داعيًا:

ـ«يا رب اروي عطشه زي ما روى عطشي».

ما أن جلست غفوت من أثر الإنهاك والتعب، انفتح الباب من خلفي للخارج، لا أعلم كيف لم أسقط؛ فقد كُنت أتكئ على هذا الباب! نهضت وأنا أجتاز الباب، وكان الباب بابًا لحديقة من

أشجار الجوافة والتوت والعنب يشقها ممرٌ مائيٌّ صغير، هي أشبه بجنة فواكه مُصغرة..

وأنا أتحرك ببطء فيها تصلبت في موقعي ما أن وقعت عيني على شجرة نبأ بدت عجوز ومُثمرة، يقف تحتها رجُلٌ يُصلي لم أميزه بدقة من ظهره؛ إلا أن ما جعلني أتصلب في موقعي هذا الثعبان الكبير الذي يقف خلف ظهر الرجُل، كان ضخمًا! لا يقل طوله عن ثمانية أمتار، كان يلتف دائريًا حول نفسه ثم يقف برأسه عاليًا من منتصف الدائرة التي رسمها بجسده، فزِعني هول الموقف ومنعني من الحركة والصُراخ للرجل بأن يحذر من الثعبان خلفه!

كانت تلك هي حالتي في بادئ الأمر، إلا أن ما استثار دهشتي وأذهلني.. ما أن ركع الرجُل انحنى الثعبان خلفه وكأنه يتبعه في الصلاة، كأنهُ إمامًا له! وما أن سجد الرجُل وضع الثعبان خلفه رأسه أرضًا! هل يُصلي هذا الثعبان خلف هذا الرجُل؟!

ظل السؤال يُراودني دون أن أقوى على سؤاله أو الاقتراب منهم حتى أنهى الرجُل صلاته بالتسليم، لأرى ما لم تره عيني طيلة حياتي قط؛ التف من خلفه الثعبان برأسه يمنةً ويسرةً كأنهُ يُنهي صلاته!!

استدار الرجُل وجلس يتكئ بظهره على جزع شجرة النبأ، زحف الثعبان برأسه إليه، ربت الرجُل على رأسه الكبير بيُسراه، ومسبحته لا تفارق يده اليُمني..

دققت النظر لأكتشف من هو هذا الرجُل؛ فتعالى صراخي له:

ـ«سيدي ((عابد))، سيدي ((عابد))!»

رفـع جبهتـه وارتسـمت عـلى وجهـه الابتسـامة العريضـة الصافيـة، ثـم رفـع صوتـه مـن مكانـه قائـلًا:

ـ«في معادك يا صلاح، تعالى يا ولدي».

جزعتني دعوته إليّ وصرخت قائلًا:

ـ«الثعبان يا سيدي!».

بذات صوته العالي أجابني:

ـ«تعالى يا ولدي، مفيش خوف منه».

كان بيـني وبينـه قرابـة العشريـن مـترًا، كانـت خطـواتي صغـيرة بطيئـة يملؤهـا الخـوف. أتتـني فكـرة في رأسي قـد نماهـا الخـوف؛ بالتأكيـد أنـا أحلُـم! إذًا مـا الـذي يُضـيرني مـن أن أقـترب؛ مـا أن أسـتيقظ سـأجد نفـسي جالسًـا وأتـكئ بظهـري على البـاب الخشـبي في مقام ((السـباعي)).

أعـادت إليّ تلـك الفكـرة قليـلًا مـن الشـعور بالأمـان، وتحركـت إليـه حـتى صـار بيـني وبينـه هـو والثعبـان متريـن لا غـير! وقفـت أمامـه فتعالـت ضحكاتـه بقـوة وهـو يربـت عـلى رأس ثعبانـه قائـلًا لـه:

ـ«صلاح خايف منك؛ يبقى لازم ترجع مكانك!».

استدار الثعبان برأسه إليّ يرمقني بعينيه الميتتين الباردتين وكأني قد كُنت السبب في طرده من الجنة، عاد برأسه ناظرًا لسيدي عابد، وزحف من خلفه ثم ارتقى الشجرة خلفه حتى غاب عني بين أغصانها بالأعلى، كانت عيني لا تفارقه في رحلة الصعود، وجبهتي مرتفعة تُشاهده وهو يرحل في طاعة غريبة على البشر؛ فكيف لمثل هذا الوحش أن ينصاع بالطاعة هكذا؟!

انتزعني من حالة الذهول تلك صوت سيدي عابد قائلا:

ـ«تعالى يا صلاح، اقعد».

بسط لي موضعًا مواجهًا له على الأرض، تحركت إليه وجلست فيه، لم يكُن يفصلني عنه سوى خطوةٍ واحدة حينما بادرني بقوله:

ـ«دعيت للحاج ((سيد)) السقّا؟».

ـ«دعيت يا سيدنا، لكن هو ربنا هيقبل مني؟!»

عاد بظهره يتكئ على جذع الشجرة وهو يرمقني بنظرته وأردف قائلًا:

ـ«انت صاحي ولا نايم ؟».

باغتني بسؤاله وجعلني أضطرب بشدة؛ لم أكُن أستطيع الإجابة! إن كُنت أحلُم فهذا يعني ضياع موعدي معه، وإن كُنت واعيًا فكيف عثرت عليه هنا؟!.

مـا هـي علاقتـه بمقـام وضريـح ((السـباعي))؟! كيـف لي ألا أسـقط وقـد كُنـت أتـكئ عـلى البـاب الـذي دلفـت منـه إلى الحديقـة؟! كيـف لهـذا البـاب أن يُفتـح؟! كُلهـا أسـئلة دارت بداخـلي ولـم أسـتطع أن أنطـق بهـا....

***

١٤

ديسمبر ٢٠١٠

..طريق أسوان الزراعي الغربي..

هبطت سرعة سيارته فجأةً وعاد بناقل الحركة لأبطئ السرعة حين وصل إلى تقاطع الكسرة أبيدوس مع طريق نجع حمادي جرجا. شدهه في بادئ الأمر تلك الحشود الشرطية الضخمة التي تصطف على جانب الطريق المُتجه إلى قنا، وكانت القوات الشرطية تُعيد توجيه جميع السيارات القادمة بالعودة إلى سوهاج. بدا له الأمر يحوي سرًا! صف سيارته على جانب الطريق، نظر إلى ما يحتاج من سيارته حتى يترجل منها مُحاولًا استطلاع ما يجري، ولم يحمل معه إلا هاتفه المحمول الذي أصابته التُخمة من الجُرعات الكهربية المتواصلة من سيارته طيلة خمس ساعات كاملة. ما أن هبط من سيارته سمع جرس هاتفه المحمول؛ فنظر لشاشة هاتفه التي تزينت باسم ((محمود الألفي))، أجابه على الفور في شغف وابتسامة عريضة اعتلت وجهه، وبنبرة ملأتها الحماسة والثقة بادره قائلًا:

ــ«حبيبي يا ريس».

ــ«طمني وصلت لفين دلوقتي؟».

ــ«يا ريس أنا على بوابات قنا».

ــ«يا جاحد يا ابن الجاحدة، تاخد من مصر لقنا في خمس ساعات!».

تعالت ضحكاته بقوة وأردف:

ــ«شكرًا يا ريس، لكن والله هم أقل من خمس ساعات كمان».

ــ«يا ابني حرام عليك، خاف على نفسك».

ــ«ربنا الحارس والحامي يا ريس».

ــ«طيب قولي إيه الأخبار عندك؟».

أجرى بعينيه مسحًا سريعًا وأردف بصوتٍ خفيض:

ــ«يظهر الحكاية كبيرة فعلًا، الداخلية قفلت الطريق من بعد سوهاج، وفي قوات كبيرة أوي من الأمن المركزي».

ــ«فعلًا الداخلية طلعت بيان إنها أرسلت تعزيزات كبيرة لمديرية أمن قنا، وقالوا إن التعزيزات هتوصل على نص الليل».

ــ«طيب يا ريس يبقى لازم أقفل أنا دلوقتي، هروح أحاول أطلع بمعلومة وأرجع أكلمك».

ــ«تمام، ربنا معاك».

أغلق الاتصال ووضع هاتفه في جيب بنطاله، وتحرك حثيثًا يبحث عن أحد صغار الضباط، كان يبحث عنهم دومًا؛ فهم دائمًا ما يميلون إلى الصحفيين حتى تُكتب أسماؤهم في الأخبار والموضوعات، ومن أثر سياسته تلك تعززت له علاقات مُتشعبة في جهاز الشرطة مع عددٍ كبيرٍ من صغار ضباطها. أثناء بحثه سمع صوتًا مُرتفعًا قائلًا:

ــ«أستاذ علي!».

استدار باحثًا عن مصدر الصوت، لم يستغرق الأمر كثيرًا حتى اكتشف أحد الضباط وكانت رتبته نقيبًا يتحرك باتجاهه مُسرعًا، وكان يحمل على صدره بندقية آلية وفي زيه العسكري الكامل، وما أن وقف أمامه تابع في قوة:

ــ«إيه أخبارك يا أستاذ علي، انت هنا ليه؟».

اقترب منه فتذكره، وكيف لا يتذكره وقد أمده أثناء عمله بمديرية أمن الجيزة بالعديد من القضايا والموضوعات، حتى غاب عنه فجأة! ولكنه لم يمتعض فهو الأمر المُعتاد.

رغم الفائدة الكبيرة التي ترجع من التعامل مع صغار الضباط، فإنها في كثيرٍ من الأحيان مُنهكة للقوة، ويرجع ذلك لكثرة تنقلهم من مكانٍ لآخر وهم في بداية عملهم.

أضـاءت عينيـه حماسـة، أيكـون قـد نقـل مـع القـوات الـتي سـوف تتوجـه إلى قنـا! إن كان ذلـك فبالتأكيـد سـوف يمُـده بالكثـير مـن المعلومـات. بسـط يـده لـه في حـرارة وقبلـه قائـلًا:

ــ»أحمد بيه، أخبارك إيه طمني عليك؟».

ــالحمد لله، المهم انت هنا بتعمل إيه؟».

ــ»أنا في الطريق لقنا، زيارة عائلية».

ــ»عربيتك فين؟».

أشـار لـه تجـاه موقـع سـيارته، تحـرك تجاههـا وهـو يُشـير لـه باتباعـه، ومـا أن وصـل إلى السـيارة اقـترب منـه، بحـث بعينيـه في كُل مـكان، وتأكـد مـن ألا يتنصـت عليهـم أحـد، ثـم همـس لـه:

ــــ»إذا كانـت الزيـارة دي ضروري، يبقـى ارجـع تـاني وعـدي مـن عـلى أول كوبـري للـبر الـشرقي، وامـشي في طريـق ((نواعـم))، هتمـشي فيـه شـويه كتـير لحـد مـا تقابـل ((الصليبـة))، ده تقاطـع عـلى شـكل صليبة، خـد اليمـين بتاعـه، وبعـد شـويه هتـلاقي كوبـري تـاني، أول مـا تعديـه تـلاقي نفسـك في نجـع حمـادي، ومـن هنـاك أكيـد انـت تعـرف توصـل».

تفهـم الخريطـة الـتي شرحهـا لـه بطريقـة مُختـصرة، ولكـن لـم تكُن تلـك هـي المعلومـات الـتي يبحـث عنهـا ويحـاول إخراجهـا منـه، ولذلك كان سـؤاله السـاذج بالنسـبة لـه، الـذي أكـد لـه أنـه يتلاعـب بـه هـو:

ــ«ليه اللفة دي كُلها يا أحمد بيه؟ ما أنا أكمل في طريقي على طول، هو في حاجة ولا إيه؟».

تفحصه بعينيه بقوة وأردف:

ــ«يا علي أنا ظابط وانت صحفي، أنا عارف إنها لا زيارة ولا حاجة، لكن أنا قولتلك اللي قولته لأني خايف عليك، أوعى تظن إني عبيط!».

ــ«والله أبدًا، لا عُمري ظنيت فيك كدا ولا ده أسلوبي، وأنا عارف إن الأهالي قاطعين الطريق، لكن قولت لنفسي أكيد على ما أوصل، الحكاية هتكون خلصت».

هز رأسه نفيًا وأردف:

ــ«مع الأسف الحكاية أكبر من كدا بكتير!».

ــ«أكبر من كدا ازاي؟ قنا طول عمرها محافظة هادية جدًا وبعيدة عن المشاكل!».

اقترب مني وعاد لهمسه:

ــ«((التونسي))!».

سألتهُ مذهولًا:

ــ«التونسي مين؟!».

ـ «التونـسي يـا سـيدي هــو نائـب مديـر الأمـن بتـاع قنـا، وإيـاك تتغـر في إنـهُ عميـد، أنـا عايـز أقولـك ده كان مفتـش مباحـث سـوهاج معانـا، وكان بيـنزل الحمـلات بنفسـه، لا يُمكـن تقـول عليـه إنـهُ أكـبر مـن أربعـين سـنة، احنـا محـدش فينـا يعـرف أصـلًا هـو عنـده كام سنة؛ كُل الرهانـات عـلى سـنه خسرناهـا. جـزار سـلاح، لا يُمكـن يكـون في حتـه وفيهـا سـلاح ويسـكت، تفتكـر حكايـة ((النخيلـة))؟ هـو واحـد مـن الضبـاط الـلي اشـتركوا في اقتحامهـا، ظابـط عينـه قويـه لا يُمكـن تتكسر! المشـكلة بقـى إننـا عارفـين إن هـو طلـب كتـير يـروح قنـا، وكان طلبـه بيترفـض، ولمـا سـأتله مـرة هـو ليـه عايـز يـروح قنـا قـالي: ((تـار قديـم))! هـو اتنقـل مـن يومـين، ومديـر الأمـن هنـاك أجـازة، والظاهر إن تـار التونـسي مـع ((البنداريـة))! المشـكلة الأكـبر في إن التونسي طلب تعزيـزات أمنيـة كبـيرة مـن الـوزارة في مـصر، والوزيـر هنـاك شـايف إن التونـسي خرافـة أمنيـة، يعـني معـاه عـلى طـول الخـط. وزي مـا انـت شـايف أهـوه قـوات مـن سـوهاج وأسـيوط والمنيـا وبـني سـويف وحـتى مـن الفيـوم، كُل مـكان في الصعيـد لـه هنـا ظابـط وعسـكري، وربنـا وحـده الـلي يعلـم الحكايـة هتخلـص ازاي.

كُل الـلي نعرفـه إن عمليـة دخـول المحافظـة هتبـدأ مـع نـص الليل، وقـال إيـه هنقطـع النـور عـن نجع حمـادي عشـان نأمـن القـوات. طيب بذمتـك ده فكـر أمـني! القمر بدر ومنـور الدنيا كلها، النـاس دي في أرضها وحفظاهـا شـبر شـبر، يعـني احنـا صيـد سـهل ليهـم! ربنـا يسـتر!».

أنهـى حديثـه وعـم الوُجُـوم بينهـم لحظـات، تعاظـم القلـق والتوتـر لـدى كُلٍ منهـم ولـهُ أسـبابه، هنالـك مـن يخـشى عـلى حياتـه وحيـاة أبريـاء قـد تـراق دماؤهـم لأخطـاء أمنيـة ولتلبيـة ثـأرٍ لا يعلـم أحـدٌ أسـبابه ولا أساسـه، أمـا الآخـر فيخـشى عـلى رجُـلٍ هـو يعلـم جيـدًا مـدى نقـاء سريرتـه وصفائـه، ومـا قـد يتـورط فيـه مـن دمٍ جديـد.

احتضن الشابان بعضهما بقوة وكأنهُ الوداع الأخير بينهما!

دلـف إلى سـيارته واسـتدار بهـا عائـدًا ليتخـذ الطريـق السـحري، ومـا أن اسـتدار بسـيارته أمسـك هاتفـه وأعـاد الإتصـال بالألفـي الـذي بـادره عـلى الفـور قائـلًا:

ــ»أخبار طازة!«

ــ»خير؟«

ــ»الداخلية هتقتحم المحافظة مع نص الليل«.

ــ»هي دي الأخبار الطازة؟ ما أنا قولتلك إنهم قالوا كدا«.

ـــ»لا يـا ريـس الجديـد بقـى إنهـم ناويـن يقطعـوا النـور عـن نجـع حمـادي قبـل الاقتحـام، يعـني مذبحـة!«.

ــ»انت متأكد من الكلام ده؟«.

ــ«يا ريس أنا عمري قولتلك خبر فشنك!».

ـــ«دي تبقـى قيـادات فاشـلة! دول نـاس في أرضهـم وحافظينهـا، يعـني مذبحـة للداخليـة!».

ــ«يا ريس ده اللي عندي، شوف إيه اللي ينفع للنشر وانشر».

ــ«أنـشر إيـه انـت مجنـون؟! انـت فاهـم إن النظـام الـلي بيحكـم ممكـن يسـمح بنـشر الـكلام ده!».

ــ«يـا ريـس احنـا بننـشر الحقيقـة، وبعديـن هـي أول مـرة يعـني؛ الـلي مـش عاجبـه يخبـط دماغـه في الحيـط! المهـم انـت جهـز الشـنطة بتاعتـك، وأنـا أوعـدك أجبلـك عيـش وحـلاوة».

ــ«مـاشي يـا وسـخ، لكـن مـش لوحـدي، وحيـاة أمـك لحـط اسـمك عـلى الخـبر».

أغلـق الهاتـف قبـل أن يسـمع منـه قبـولًا أو رفضًـا؛ كلاهُمـا كان يعلـم أنـهُ دائمًـا مـا يكـون هنـاك ثمـنٌ للـرأي الحـر، وكلاهُمـا دفـع أثمانًـا باهظـة لتلـك الآراء، فهـي ليسـت المـرة الأولى لأحدهـم يواجـه السـجن لتهـمٍ واهيـة تتعـدد أسـماؤها. في حقيقتهـا مـا هـي إلا وسـيلة للنظـام لإخـراس كل الأصـوات الحـرة، كمـا كان كلاهمـا يـرى أن هـذا النظـام في أنفاسـه الأخـيرة، خاصـةً بعـد انتخابـات مجلـس الشـعب ٢٠١٠ الـتي واجهـا فيهـا السـجن لرأيهـم وكتاباتهـم وكانـت بـين « تزويـر

بالجملـة.. برلمـان الحكومـة السـاقطة.. نعـم للبرلمـان المـوازي «.
كلاهمـا يـرى أن تلـك هـي القشـة الـتي قسـمت ظهـر البعـير، ولـم يـقَ سـوى ريـحٍ خفيفـة حـتى يتطايـر هـذا النظـام ويهـوي بـلا عـودة!

ارتسـمت ابتسـامةٌ سـاخرةٌ عـلى وجهـه، ووضـع هاتفـه المحمـول إلى جـوار ناقـل الحركـة، وعـاد في رحلـة ذكريـات رحلتـه السـابقة قبـل أسـبوعين إلى محافظـة قنـا......

***

١٥

..التوبة..

ربـت بيـده اليُمـنى عـلى رُكبـتي وأنـا جالـسٌ في وضـع القرفصـاء أمامـه، وأومـأ برأسـه لأعـلى وأسـفل ثـم عـاد للحديـث:

ــ«مـن غـير أسـئلة، انـت صاحـي. أنـا هبـدأ معـاك مـن الآخـر، الضريـح الـلي كُنـت نايـم فيـه ضريـح جـدي، أمـا انـت وصلـت هنـا ازاي؟ وصلـت لأن دي إرادة ربنـا. دلوقـتي السـؤال المهـم عنـدي انـت شـايف النـاس ازاي؟».

أنهـى حديثـه وعـاد بظهـره يتـكئ عـلى جـذع الشـجرة وهـو يرمقـني بعينيـه، أجبتـه مـن فـوري دون تفكـير قائـلًا:

ــ«النـاس يـا أسـود، يـا قـرود، يـا ضبـاع. وأنـا اتولـدت ضبـع ونهشـت لحـم نـاس كتـير مـا كان ليهـا ذنـب غـير إنهـا وقعـت في طريقـي الأسـود».

أومأ برأسه رفضًا وأردف:

ــ«أنـا بسـأل عـن الدنيـا، مـش الغابـة يـا صـلاح يـا ابـني، تعـرف تجاوبــني؟»

لـم أكُـن أملـك إجابـة غـير الـتي أجبتـهُ بهـا، وبـدا لي أنـهُ يبحـث عـن شيءٍ يُريـد إخراجـهُ مـني وأنـا أجهلـه؛ لذلـك أومـأت بـرأسي نفيًـا، ليُسـهب في الحديـث قائـلًا:

ــ«اسـمع يـا ابـني، كُل الـلي انـت قولتـه ده صحيـح لكـن في الغابـة مـش في الدنيـا؛ احنـا ربنـا خلقنـا بـشر وكُلنـا مـن أب واحـد هـو سـيدنا آدم. ربنـا سـبحانه وتعـالى رحمتـه أوسـع مـن قدرتـك عـلى الفهـم، جـدي السـباعي الـلي انـت كُنـت في ضريحـه كان حطّـاب، ولمـا حـد شـافه وهـو بيصـلي في الغابـة وكان في ضهـره ضبـاع مسـتكينة كأنهـا قطـط تحـت رجلـه، أول مـا أنهـى الصـلاة والضبـاع رحلـت، سـأله الراجـل الـلي شـافه: إزاي تصـلي وحواليـك الضبـاع دي مـش خايـف منهـم؟ تعـرف رد عليـه وقـال إيـه؟»

لـم ينتظـر مـني أي إشـارة، تفهمـت أنـهُ مـا يريـد سـوى جـذب انتباهـي بقـوة، بينمـا كُنـتُ مشـدوهًا بحديثـه مثـل المُخـدّر كُليًـا، وتابـع قائـلًا:

ــ«رد وقالـه: «نحنُ قـومٌ نخـاف الله؛ فيخافنـا كُل شيء». هـي دي نجاتـك يـا صـلاح، الخـوف مـن ربنـا والتوبـة بابهـا مفتـوح يـا ابـني».

دمعت عيناي وأنا أجيبه وصوتي مُحشرجًا قائلًا:

ـ«يا سيدي أنا قتلت أرواح مش قادر أنسى أشكالها والدم مغطيهم !».

ربت على صدري أثلجه، أشار إليّ أن أقترب منه، وضعت رأسي على صدره وأخذت انتحب مثل الأطفال وأنا أصرخ في صدره: أستغفر الله العظيم، سامحني يارب! بينما أخذ هو في تلاوة الآيات الكريمة:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً
وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ
السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ
تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ
بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم
مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ

السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ).

أخـذ يمسـح عـلى رأسي بيـده وأنـا لا أزال انتحـب بحـرارة حـتى وهنـت قـوتي، أبعـدني عـن صـدره قليـلًا وهـو يمسـك بـكأسٍ لا أعلـم مـن أيـن أتى بهـا، وأردف:

ـ«اشرب يا صلاح».

رفعـت الـكأس ولـم أهبطهـا إلا فارغـة، كان لمـاء تلـك الـكأس حـلاوةٌ لـم أطعمهـا مـن قبـل، مـا أن انتهيـت ابتسـم في وجهـي وعـاد للحديـث قائـلًا:

ـ«لكن فاضلك حاجة على التوبة يا صلاح».

أجبته وأن ألهث لألتقم حديثه وأمره لي قائلًا:

ـ«إيه هي يا سيدي وأنا أعملها على طول؟»

ــ«أكل الحـرام يـا ابـني، المـال الحـرام نـار في جوفـك، مهمـا شربت هتفضل عطشـان».

فهمت حديثه وبسطت راحتي يدي وأنا أجيبه:

ــ«كُل مالي حرام يا سيدي، آكُل منين؟!»

ربت على كتفي وأردف:

ــ«تعالى يا صلاح».

نهض من جلسته وانتعل حذاءه وتحرك بين الأشجار وأنا أتبعه، حتى وصل إلى بابٍ حديديٍّ اجتزناه، وهو بابٌ يصل إلى أحد أركان الباحة أمام المسجد، تبعته في خروجه من المسجد وكُل من قابلناه في الطريق ينحني على يده ويقبلها ويسأله الدعاء، كانت رحلتنا طويلة وقتًا رغم قصر المسافة؛ لكثرةّ توقفنا في الطريق، ما سمح لنا بالمُضي أحد التقانا حتى يحصل منه على دعوة. إلى أن توقفنا أمام هذا المحل وأخرج من جيب جلبابه مفتاحًا أعطاني إياه وأردف:

ــ«المحل ده كان بتاعي يا صلاح، دلوقتي بقى بتاعك. من بكرا الصبح افتحه، هو محل قماش وفيه من خير ربنا كتير. إياك وأكل الحرام يا صلاح! العهد بينك وبين ربنا على التوبة، إياك والحرام!».

أنهى حديثه وتفهمت أنهُ سوف ينصرف، تحشرجت الكلمات وهي تخرج من فمي قائلًا:

ــ«يا سيدي أنا محتاج..»

لم يسمح لي أن أكمل حديثي وكأنهُ قرأه في رأسي، استدار إلي وأخرج من جيب جلبابه مائة جنيهٍ أعطانيها وأردف:

ـــ«إذا كُنت سكت، كُنت هعرف إنك لسه ناوي تاكل حرام. الحمد لله! أول ما تكسب المائة جنيه دي اديها لحد تاني محتاج».

أنهى حديثه وهمّ بالمُضي، رفعت صوتي له وهو يرحل قائلًا:

ـــ«أشوفك ازاي يا سيدي؟»

استدار إليّ وأجابني من موضعه:

ـــ«كُل ما تحتاجني أكيد هتشوفني».

***

١٦

..جباه لا تنحني..

سـحب نفسًـا عميقًـا وكأن الهـواء يحـوي مُخـدرًا يُنشـيه، رمقـه بنظـرةٍ وهـو مشـدوهٌ ممـا رواه لـه، أصابـه الوجـوم مـن هـول مـا سـمع، قطـع الصمـت بينهـم بقولـه:

ــ»دي كُل الحكايـة، عرفـت بقـى إن الـلي انـت هنـا عشـانه مـش مـن طريـق ونـص؟«.

لـم تمُـر لحظـات الصمـت عـلى الشـاب أمامـه بسـهولة، لـم تكُـن مجـرد رحلـة ذكريـات مؤلمـة مثلمـا كانـت لمُحدثـه، لـم تكُـن قسـمات وجهـه تُعبرعـن الدهشـة فقـط ممـا سَـمِع، كانـت الصدمـة أكـبر ممـا يحتمـل ويظُـن، الصدمـة في كل أفـكاره ومعتقداتـه؛ لطالمـا كان يؤمـن بـأن الوضـع في الجنـوب إدعـاء مـن السـلطة والأنظمـة الحاكمـة المتعاقبـة، إحـدى شـماعات الفشـل.

كان يؤمـن بـأن كل حديثهـم عـن العصبيـات والعلاقـات القبليـة مـا هـي سـوى فُقاعـات للترهيـب، لا أسـاس لهـا مـن الصحـة عـلى أرض الواقـع!

كان يؤمن بأن كل ما يحتاجه الجنوب هو الاهتمام!

تلك هي أحلامه القديمة، أيقظه منها راوي الحقيقة على أسوأ كوابيسه وهواجسه!

هو الآن مُطالب بأحد أمرين، أولهما هو الشفقة على هذا الراوي التائب الباحث عن مغفرة ذنوبه. وثانيهما أن يكرهه ويحتقره لأبعد حد!

ماذا عساه يكتُب عن الحدث الذي هو بالأساس في هذا المكان من أجله! هل يلحق بركب التضليل مع الجميع؟ أم ينتزع المجتمع بأكمله على أسوأ كوابيسه « الثورة المسلحة «!

كُل عاقل يسمع ما رواه هذا الراوي لن يصل إلا لاعتقادٍ واحدٍ: المعركة قادمة قادمة لا محالة! كُل ما يحدث الآن ما هو إلا محاولات بائسة لإنعاش مريضٍ تُوفي إكلينيكيًا مُنذُ زمنٍ طويل، وهو في النزع الأخير!

لطالما حَلم وتمنى رحيل كُل من تسبب في هذا الوضع، لكن بكمٍّ من الدماء التي سوف تُراق بالتأكيد. من يستطيع الآن إيقاف قطار الدم، هذا القطار إذا انطلق لن يتوقف قبل أن يُلطخ كُل شبرٍ يمُر عليه بالدم!

تلك الجباه التي التقاها في كل مكانٍ هنا، هي جباه لا تنحني ولن تنحنِ أبدًا، أيًا ما كان الثمن ولو كان حياتهم! كيف كان أعمى هو وكل من يمتهن مهنته عن تلك الحقيقة السوداء!

كان هـذا آخـر الأسـئلة برأسـه وأكثرهـا إيلامًـا لنفسـه وعقلـه، ينبُـع الألـم في سـؤاله مـن إجابتـه القاسـية، سـؤاله الأخـير لـم تكُـن لـه إجابـة إلا أنـهُ فاشـل أو متقاعـس أو مغـرض أو جاهـل! هـو وكل مـن يمتهـن مهنتـه وهـي مهنـة نقـل الحقيقـة. انتزعـه مـن حالتـه نهـوض الرجـل وقولـه لـه بقـوة:

ــ«تعالى يا ابني».

تَبعــهُ في الحركــة إلى خــارج المحــل العتيــق الزاخــر بأنــواعٍ كثــيرة مـن الأقمشـة، أغلـق البـاب الخشـبي الكبـير وتحـرك يخـترق الطرقـات والشـوارع يتبعـه الشـاب مـن خلفـه، لا يعلـم إلى أيـن يقـوده هـذا القاتـل القديـم. كان الرجـل محبوبًـا في منتطقتـه بشـكلٍ غريـب؛ كلمـا التقـى أحـدًا في طريقهمـا يكـون السـلام بينهمـا حـارًا وحميميًـا، وهـو مـا زاد مـن دهشـة الشـاب خلفـه، هـل كل البـشر هنـا يعشـقون قاتـلًا ذا قلـبٍ ميـت؟!

حـتى وصـلا إلى باحـة مسـجدٍ كبـيرٍ، اخترقاهـا ولـم يدخـلا المسـجد، اسـتدار باتجـاه أحـد أركانـه واجتـازا بابًـا حديديًـا، ثـم دلفـا إلى الجنـة الصغـيرة بأشـجارها العتيقـة وممـر المـاء الصغـير بهـا، هـو الممـر الـذي أذهـل الشـاب وهـو يـرى الجنـة الصغـيرة لأول مـرة!

لـم يعلـم مصـدر هـذا الممـر الصغـير للمـاء ولا مصبـه، وانهمـك في بحثـه بعينيـه وهـو يتحـرك عـن مصـدر هـذا الممـر أو مصبـه ولـم يصـل لـشيء.

توقـف قائـده في تلـك الرحلـة الصغـيرة أمـام إحـدى الأشـجار الكبـيرة، الـتي بـدت للشـاب مـن خلفـه عتيقـة للغايـة، لـم يجـرؤ عـلى الاقـتراب منهـا ولا مِـن مَـن يقـوده إليهـا، حافـظ عـلى مسـافة خمسـة أمتـار بينـه وبينهمـا للخلـف، دقـق النظـر بقـوة للشـجرة العتيقـة، شـدهه احتـلال عـددٍ ضخـمٍ مـن الحمـام يصطـف عـلى قمـة الشـجرة، وكأنهـا مسـكنٌ لـسربٍ كامـلٍ مـن الحمـام!

لـم تمُـر لحظـات حـتى صرخ فزعًـا! سـقط أرضًـا وهـو يزحـف عـلى مؤخرتـه مُسـتعينًا بيديـه وقدميـه تدفعانـه للخلـف هربًـا مـن الثعبـان الضخـم، الـذي ظهـر مـن العـدم أسـفل الشـجرة! كان أكـبر بكثـير ممـا رأى في حياتـه أو حلـم، كان أشـبه بثعابـين الأناكونـدا، الأفاعـي المشـبكة، الـتي قـد شـاهدها في أفـلامٍ عديـدة وثائقيـة وسـينمائية.

لـم يعلـم سـوى أن الثعبـان أمامـه لا يقـل طولـه عـن الثمانيـة أمتـار، وهـو قـادرٌ عـلى ابتـلاع رجـلٍ كامـلٍ في لحظـات دون شـك!

شرع صـلاح في الاقـتراب منـه لتهدئتـه إلا أنـه تصلـب مكانـه، لـم يقـوَ عـلى الحركـة وأعينـه معلقـة عـلى الشـاب الملقـى أرضًـا مُرتعبًـا. جذبـه بقـوة لـم يـرَ مثلهـا في حياتـه مـن خلـف كتفـه الأيمـن بقبضـة يـد واحـدة، وكأنـه طفـلٌ رضيـع تلتقمـه أمـه مـن الأرض. نهـض ومـا يـزال مُرتعبًـا، اسـتدار بقـوة باحثًـا عـن هـذا العمـلاق الـذي أنهضـه ليحتمـي بـه؛ وقعـت عينـاه عـلى مـا أصابـه بالدهشـة والذهـول الكامـل!

رجُـلٌ متوسـط الطـول ذو وجـهٍ مسـتدير باسـم، يرتـدي جلبابًـا أخـضر اللـون، ويعتمـر غطـاءً أبيـض عـلى رأسـه أشـبه بأغطيـة مشـايخ الأزهـر، ورغـم بشرتـه الـتي لـم تكـن ناصعـة البيـاض فـإن وجهـه كان يُشـع نـورًا، لا يمكـن أن يقـل عُمـر منقـذه عـن سـتين عامًـا، وذلـك مـا يظهـر مـن لحيتـه؛ غابـة مـن الشـعر الأبيـض الكثيـف القصـير.

دق عـلى صـدره برفـق وهـو يحافـظ عـلى ابتسـامته الصافيـة، وبنبرةٍ مسـت قلبـه مسًـا سـحريًا قال:

ــ «خايـف مـن ((المـبروك))! اطمـن هـو هنـا مـن قبـل مـا تتولـد، ورزقـه ربنـا كفلـه مـن الحمـام عـلى الشـجرة، المـبروك لا يُمكـن يـؤذي إنسـان أبـدًا».

أنهـى حديثـه وهـو يُشـير بسـبابته للشـجرة خلفـه. لفـظ في وجهـه جملـة لـم يعلـم لـمَ قالهـا ولا كيـف خرجـت منـه:

ــ«ما شاء الله، الله أكبر».

تعالـت ضحكاتـه في وجهـه ووضـع يـده عـلى كتفـه واسـتدار بـه ليواجهـا صـلاح والمـبروك والشـجرة العتيقـة، هـرول صـلاح تجاههمـا وخفـض رأسـه في تـضرع يقبـل يـد منقـذ الشـاب قائـلًا:

ــ«سيدي عابد، حمد الله على السلامة».

سـحب يـده الـتي طُبعـت عليهـا قُبلـة مـن شـفاهٍ مُبللـة، ربـت عـلى كتفـه وتوجـه إلى المـبروك، الـذي مـا أن اقـترب منـه انتصـب برأسـه

وأغلـب جسـده يلتـف حـول نفسـه دائريًـا، ارتمـى برأسـه عـلى صـدره، ربـت عـلى رأسـه وكأنـهُ لقـاء عُشـاق ألهـب الشـوقُ والبعـدُ الحنـينَ بينهمـا. لـم يسـتدر لهـم وهـو يقـول:

ـ«وصـل الضيـف للمديرية عشـان يشـوف شـغله، بـإذن الله أخلص صـلاة وأكـون هناك».

لـم ينتظـر إجابـة مـن أحدهـم، فقـط توجـه لممـر المـاء يتوضـأ منـه وهـم مـا يزالـون مُتصلبـين مكانهـم، أحدهـم مشـدوهًا ممـا يـرى لأول مـرة، والآخـر لا يرغـب في الابتعـاد ولـو للحظـة عـن سـيده، أنهـى وضـوءه ونظـر لهـم مُتعجبًـا وأردف:

ـ«خُد الضيف يشوف شغله يا صلاح!».

أومـأ برأسـه بشـكلٍ مُتكـررٍ طاعـةً لأمـره، واسـتدار ليتحـرك خارجًـا وتبعـه الشـاب، ومـا أن قاربـا عـلى الابتعـاد قادتـه غريـزة الفضـول إلى الالتفـات واسـتراق النظـر، وكان مـا رآه أغـرب مـن كُل مـا سـمع ومـا رأى حـتى تلـك اللحظـة؛ كان الثعبـان يلتـف حـول نفسـه خلـف الشـيخ عابـد وهـو يصـلي، ويرتقـى برأسـه قليـلًا ليوازيـه في الطـول، مـا أن يركـع الشـيخ في صلاتـه ينحـني الثعبـان خلفـه وكأنـه يتبعـه في الصـلاة، والأغـرب مـا أن سـجد تبعـه الثعبـان من خلفـه! تصلـب في مكانـه وأعينه مُثبتـة عـلى الإمـام السـاجد والمصـلي خلفـه؛ ربـت صـلاح عـلى كتفـه بقـوة يوقظـه قائـلًا:

ــ«دي كرامات سيدي عابد، أنا قولتلك. اتحرك عشان تلحق تكون عند المديرية قبل ما الناس توصل».

تحرك بجسده ولكن شيءٌ ما بقي من روحه مع هذا الشيخ. إن كان حقًا ما يقال أن ولي الله ما أن تراه يُذكرك بالله؛ فهذا الرجل ما هو إلا وليّ! وإن لم يكن كذلك فما هي ماهية هذا الرجل الجبارة التي بدلت روحه وعلقتها به لتلك الدرجة! حتى أن رؤيته له بدلت مشاعره تجاه هذا الرجل الذي تلا عليه روايته، فلم يعد يشفق أو يكره الرجل؛ إنما أصبح يخاف عليه بقوة وكأنه أبيه! لا يعلم ممَّ يخاف عليه أو لمَ، إلا أنهُ ما أن وصلا لمحل القماش ووجب الانفصال بينهما، رغب بشدة ألا يتركه أبدًا! ولكنه رحل دون وداع، رحل باتجاه المديرية على ابتسامة أخيرة من وجهه الرجل.

وصل إلى مبنى المديرية وأخذ يُتابع التحضيرات الأمنية الضخمة، التي عكف عليها ضباطٌ كبار، وهو يسمع منهم التمجيد في مجهود مدير الأمن، والنائب الشاب الذي يسعى لتغيير الكون. اصطف عددٌ كبيرٌ من أفراد الأمن المُنمقين في ملابسهم الزاهية بالألوان البيضاء، وكذلك القيادات الأمنية، ونهمٌ شديدٌ لم يشغله من زملاء مهنته وهم يلتقمون كلمات الضباط التي لم تشغله.

وصل مدير الأمن ببذلته الكحلية ورابطة عنقه والتف حوله الضباط، وما هي سوى لحظات حتى أشرقت بداية الموكب القادم.. سيارة جيب فارهة، دفع رباعي سوداء، هبط منها شابٌ طويل القامة، له وجهٌ طوليّ، بشرته صُبغت بسُمرة الشمس،

جسـدٌ متناسـق، يرتـدي بذلـة كحلـيـة مـودرن، يعلوهـا عبـاءة سـوداء اللـون. هنـدم ونمّـق وضـع عباءتـه، فيمـا تتابـع وقـوف السـيارات خلفـه وهـرول مـن فيهـا للحـاق بالوقـوف خلفـه، بـدأ في التحـرك باتجـاه مديـر الأمـن عـلى بُعـد عشريـن مـترًا، وكُل الكامـيرات تلتقـط لـه صـورًا مـن كُل حـدبٍ وصـوب.

وصـل إلى موقـع مديـر الأمـن وكان هنـاك جيـشٌ مـن البـشر خلفـه؛ اسـتقبله مديـر الأمـن بحفـاوة وترحيـبٍ كبـير، وقـف إلى جـواره يقـدم لـه كُل مـن كان خلفـه، فيمـا وصلـت أكـثر مـن خمسـين سـيارة نقـل تحمـل أعـدادًا ضخمـة مـن الأسـلحة الآليـة والذخـيرة. وبـدأ الجمـع مـع أفـراد الأمـن في وضـع كُل قطعـة مـن السـلاح في موضـعٍ قـد أُعـد للسـلاح، كان مشـهدًا مرعبًـا! تتابـع البـشر في وضـع أسـلحتهم في هـذا الموقـع ثـم التوجـه إلى النائـب الشـاب للسـلام عليـه بحفـاوة، ويقـوم هـو بتعريفهـم بمديـر الأمـن، وكأنـه احتفـالٌ بيـوم الأمـل والعدالـة والعـودة إلى القانـون! هـذا مـا كان يحلُـم بـه هـذا الصحفـي الشـاب.

حـتى وصـل جمـعٌ يقـارب العشريـن شـخصًا، يتقدمهـم أحـد الشـباب وهـو في مثـل سـن النائـب تقريبًـا، اقـترب ومـن معـه إلى موضـع وضـع الأسـلحة، وكان طويـل القامـة حـاد النظـرة بشـكلٍ غريـب، نظـر لمـن خلفـه مـن الرجـال وأومـأ برأسـه رفضًـا وهـو يضغـط على شِـفاهه، وضـع يـده في جلبابـه وأخـرج مسدسًـا ونظـر لـه بتفحـص ولـم يضعـه أرضًـا؛ بـل توجـه بـه إلى النائـب الـذي تبدلـت ملامحـه بشـكلٍ غريـب مـا أن رأى هـذا الشـاب؛ غابـت عـن وجهـه الثقـة والابتسـامة!

وصـل إليهـم ولـم يبسُـط يـده إلى النائـب، وإنمـا نظـر إلى مديـر الأمـن وبسـط يـده الـتي تحمـل المسـدس وأردف بقـوة لـه:

ــ»والله سـيادتك احنـا أولاد محمـود البنـداري، عُمرنـا مـا ملكنـا سـلاح ولا تاجرنـا فيـه، مفيـش غـير المسـدس ده ومرخـص؛ لـو عايـز سـلاح، جنبـك كَبيرنـا؛ اسـأله عنـه».

اسـتدار ناظـرًا لموقـع وضـع الأسـلحة، ثـم عـاد بنظـره إلى مديـر الأمـن وعـاد للحديـث:

ــ»هـو مـا شـاء الله خـير ربنـا كتـير، لكـن هـو ده كُل السـلاح الـلي عنـدك يـا كَبـير؟!»

أنهـى حديثـه وهـو ينظـر للنائـب، الـذي كان يخترقـه بعينيـه كأنمـا يُريـد حرقـه ، مـن ميلـه باتجاهـه وضغطـه عـلى قبضتـه بقـوة شـعر أن الأمـر لـن يمُـر دون عقـاب؛ أطبـق النائـب عـلى تلابيـب الشـاب أمامـه وصرخ بقـوة في وجهـه وكأن صوتـه سـوف يخلـع رأسـه خلعًـا:

ــ»كَبيرك هنا بيسلم سلاح، مش بيسلم نفسه!».

عـم الهـرج للحظـات هـذا الجمـع الغفـير مـن الجبـاه، التي مـا كانت لتقبـل إهانـة الشـاب لكبيرعائلتهـم ، ولا مـن قبـل مـن معـه إليـه؛ يبـدو أن هـذا اليـوم سـوف ينتهـي قبـل أن يبـدأ، وكأنـهُ ظهـر مـن العـدم!

«ياولـد»! صرخـةٌ مدويـة شـقت الزحـام والهـرج؛ توقـف الجميـع للحظـة يتتبـع مصـدر الصـوت.. كان سـيدي عابـد قـد وصـل، تقـدم

وهـو يشـق الزحـام والأعـين مشـدوهة بـه! هـرول لـه النائـب وتهللـت أسـاريره وتبدلـت تمامًـا، عـادت الثقـة لوجهـه والفرحـة، اندفـع ليـده يقبلهـا ولكنـه لـم يسـمح لـه بذلـك، واحتضنـه بقـوة وربـت عـلى كتفـه. ومـا أن أخـرج النائـب رأسـه مـن صـدره بـادره الحديـث بنـبرة يملؤهـا الحنـين والشـوق قائـلًا:

ـ»انت هنا يا سيدنا! حمد الله على السلامة«.

ـ»وأنـا كان ممكـن أكـون في أي مـكان غـير هنـا! أنـا جنـب الحـق ومعـاه فـين مـا يكـون، أنـا جنـب كَبـير الصعيـد كلـه«.

تحرك إلى جوار النائب ورحب به مدير الأمن بحفاوة.

انصرف الشاب بمسدسه هو ومن معه ما أن رأى الشيخ عابد.

مـا شـده ((عـلي)) مُجـددًا هـو تلـك الجبـاه الـتي انحنـت أمـام الشـيخ عابـد، تلـك الجبـاه الـتي لـم يرَهـا تنحـني أبـدًا طيلـة رحلتـه هنـا؛ سـيدي عابـد هنـا ليـس شيخًـا؛ هـو إمـامٌ ومنـارةٌ لتلـك الجبـاه؛ فمـا أن يحـضُر يعُـم الأمـان والطمأنينـة في الأرواح الثائـرة، مـا أن يأمُـر تنحـني الجبـاه مُلبيـةً مُطيعـةً لأمـره. طـرأ إلى رأس عـليّ شيءٌ واحـد؛ إن قُـدر إلى قطـار الـدم أن ينطلـق لـن يوقفـه إلا هـذا الإمـام؛ وحـده القـادر عـلى السيطرة عـلى تلـك النفـوس الغاضبـة. لكـن مـاذا يحـدث إن لـم يكُـن حـاضرًا في لحظـة انطـلاق قطـار الـدم! بالتأكيـد لـن يكُـن أحـدٌ قـادرًا عـلى إيقافـه، ولا حـتى هـذا النائـب وكَبـير الصعيـد بأكملـه.

وحـده سـيدي عابـد يملـك المفتـاح لتلـك القلـوب المقفلـة الغليظـة القاسـية، هـو وحـده مـن لـم يتـورط يومًـا في فتنـة الـدم.

انتهـى اليـوم الحافـل بشـكلٍ أسـطوريّ، الشـيخ عابـد يقـف بجـوار النائـب الشـاب، انصرفـا إلى سـياراتهما، ومـن بـين الزحـام الخانـق الشـديد توقـف أمـام ((عـلي)) مُبـاشرةً ووضـع يـده عـلى كتفـه وأردف:

ــ»مـش المـرة دي، لسـه ليـك زيـارة تانيـة تفهـم منهـا كل حاجـة، اعمـل حسـابك هتبقـى طويلـة شـوية».

استدار لمحمد واستطرد:

ــ»حـرّص عليـه ده ابـن عمـك ((صـلاح))، وولـدي زي مـا انـت ولـدي».

هز رأسه إيجابًا وأجابه:

ــ»برقبتي يا سيدي».

لـم يفهـم شـيئًا ممـا قيـل، حـتى أن مـن حدثـوه رحلـوا دون إضافـة كلمـة توضيـح. اكتفـوا جميعًـا بمـا قالـوه وكأنهـا شـفرةٌ بينهمـا لـم يفهمهـا سـواهما!

كان رحيـل ((عـلي)) أيضًـا وعودتـه إلى القاهـرة بشـكلٍ مُبـاشرٍ في ذات ليلـة اليـوم المشـهود، إلا أن مقالـه لـم ينتظـر عودتـه؛ فلقـد كتبـه في الفنـدق وأرسـله عـلى الإيميـل ورحـل.

كان مقالـه بعنـوان ((قطـار الـدم))، ودار بأكملـه عـن خطـورة الوضـع في الجنـوب، لـم يملـك الجـرأة لكشـف الحقيقـة كاملـة، ولكنـه مـا كان ليحـترم ذاتـه إن لـم يُعـبر عنهـا ولـو قليـلًا.

رغـم أنـهُ لـم يكشـف إلا أقـل مـن ١٪ مـن الحقيقـة؛ وُصـم مقالـه بالسـوداوية والمبالغـة والتهويـل، ووصـل الأمـر إلى رفـع أحدهـم قضيـة ضـده وضـد الألفـي؛ بدعـوى ترهيـب المجتمـع وتكديـر السـلم العـام! تلـك العلكـة المطاطـة الـتي دائمًـا مـا تتمـدد لتسـجن الحقيقـة وقائلهـا بشـكلٍ قانـوني. بئسًـا لهـذا الشـكل ولتلـك العلكـة! عـاد وهـو مُتيقـن أن المعركـة قادمـة لا محالـة......

***

١٧

..عهد الله..

وصل الصليبة واتجه يمينًا مثلما أخبره الضابط، انتزعه من ذكرياته قطع مجموعة من سيارات الدفع الرباعي طريقه، وتعالى لمسامعه صوت إطلاق النار من أسلحة آلية، اقتربت منه إحدى السيارات وأشار له شخصٌ يركب بجوار السائق ببندقيته الآلية يعتمر عمامة كبيرة ويرتدي جلبابًا لم يستطِع تميز لونه من الديجور، وصرخ فيه:

ـ«وقِف.. وقِف!».

القاعدة في تلك الحالات هي الاستسلام التام. خيار الهرب في حلكة الظلام وطريقٍ مهجورٍ مثل الطريق الذي يسير عليه، لن ينتهي إلا بنتيجة مأساوية؛ إما حادثة مروعة قد تودي بحياته، أو يقتله المهاجمون بدمٍ بارد.

لذلك التزم تطبيق القاعدة في إذعانه الفوري لهم. أوقف السيارة على جانب الطريق؛ قطع الطريق عليه سيارة أمامه مالت باتجاه اليمين لإغلاق أي محاولة منه للهرب، وأخرى على يساره،

والأخيرة خلفه. ما أن فتح باب سيارته للهبوط منها هرول تجاهه قرابة السبعة رجال من أمامه ويساره وخلفه، جميعهم يحمل بنادق آلية ويرتدون الجلباب البلدي، هو الزي الرسمي لأهل الجنوب، وما يميزهم العمامات البيضاء الكبيرة التي تذكر منها عمامة ((صلاح)). هرول أحدهم له مشيرًا له ببندقيته، وبلهجته وملامحه الحازمة الغاضبة صرخ فيه:

ـ«انت مين؟ ورايح فين؟»

ـ«أنا اسمي علي، من مصر، وهنا عشان أقابل ((صلاح البنداري))».

كانت كلماته صادمة وصاعقة لجميع المهاجمين، أعاد عليه السؤال وهو مُضطربٌ بشدة، وانحنت مقدمة بندقيته لأسفل قليلًا، وبدت قبضته عليها أقل حزمًا؛ في جميع الأحوال وضعه يؤكد أنه لا يُمكن إطلاق رصاصةٍ منها على تلك الحالة، سأله:

ـ«الضبع؟!».

أومأ برأسه إيجابًا؛ انحنت البندقية أكثر لأسفل، وبنبرة أكثر اضطرابًا عاد إلى سؤاله:

ـ«تعرفه منين؟!».

لم يُفكر، وأطلق كلمته كرصاصة في وجه مهاجميه:

ـ«أنا ابنه».

علـت وجوههـم علامـات الغضـب، اشـتد مهاجمـه بالضغـط عـلى أسـنانه، وعـاد لرفـع بندقيتـه وقبضتـه عليهـا في وجهـه، يـصرخ فيـه غاضبًـا:

ــ»الضبـع عنـده بنـت واحـدة بـس، ده كبيرنـا واحنـا نعرفـه أكـتر من روحنا!«.

عَلِـم أن الأمـر يتعلـق بإجابتـه، وإن أخطـأ فسـيكون الثمـن حياتـه، بنـبرة هادئـة لا يملـك هدوئهـا بداخلـه أجابـه:

ــ»وصلـني ليـه وانـت تتأكـد، ولـو قـال إني مـش ابنـه؛ اعمـل الـلي انـت عايـز تعملـه!«

عـاد الاضطـراب لمهاجميـه بقـوة، وعـمّ الوجـوم بينهـم للحظـات وكأنهـم يفكـرون في الأمـر، طلـب محدثـه مـن أحـد الأشـخاص معـه قيـادة سـيارته، ثـم رمقـه بنظـرة متفحصـة وأردف بنـبرة حاسـمة:

ــ»أنا هوصلك للضبع، لكن لو طلعت كداب؛ اتأكد إنك ميت!«

أشـار لـه بدخـول السـيارة عـلى يسـاره، جلـس في الكـرسي الخلفـي وجلـس أحـد المهاجمـين بجـواره بالخلـف، وجلـس محدثـه بجـوار السـائق، وظـل يلتفـت لـه برأسـه طيلـة الطريـق، لـم تغفـل عنـه عـين محدثـه ولـو لبرهـة، وكأنـه يجاهـد نفسـه للتأكـد هـل يكـون ابـن صلاح حقًـا؟ أم يتلاعـب بهـم لغـرضٍ مـا!.

لـم تطُـل الرحلـة كثـيرًا، في عـشر دقائـق وصـلا الطريـق الرئيـس مجـددًا، هـي النقطـة الـتي تبعُـد قرابـة الخمسـة كيلومـترات عـن تمركـز قـوات الأمـن. كان هنالـك جمـعٌ غفـيرٌ مـن السيارات وأعـدادٌ لا تحـصى مـن الرجـال بنفـس الـزي الرسـمي الصعيـدي وهـو الجلبـاب والعمامـات البيضـاء الكبـيرة الـتي تُمـيز البنداريـة، يحملـون بنـادق آلية وشـنطًا جلديـة بـدت ثقيلـة عـلى أكتافهـم، تحمـل الذخـيرة للبنـادق.

هـو حشـد الجيشـين للمعركـة، الـتي إن نشـبت بالتأكيـد سـوف تحـدث المذبحـة! وعـلى عكـس جميـع التوقعـات والتكهنـات؛ المعركـة غـير عادلـة بالمـرة، هنـا المذبحـة للحكومـة، هنـا أهـل الأرض أدرى بهـا، هـم شـياطين القنـص الليـلي والنهـاري، هـم رُسـل المـوت إن نشـبت المعركـة.

ومـا زاد مـن توتـر هـذا الشـاب المصـدوم المشـدوه ممـا يـرى، هـو هـذا الحشـد الضخـم مـن الحناجـر السـاخطة، آلاف الأيمـان الصعيديـة بالقضـاء عـلى كُل شرطـي!

هبـط مـن السـيارة واضطُـر أن يسـير إلى جـوار خاطفيـه بـين أعـدادٍ ضخمـة مسـلحة، وبـين منـازل عـلى طـرفي الطريـق، تلـك الرحلـة بـين غابـات البـشر الـتي احتلـت نهـر الطريـق بشـكلٍ كامـل وكأنـهُ يـوم المحـشر!

كان يراقـب بعينيـه وهـو مُقتـادٌ مـن مُحدثـه في بـادئ الأمـر وهـو يطبـق عـلى مرفقـه الأيمـن بقبضتـه اليـسرى، تلـك الوجـوه الغاضبـة

الـتي كانـت تخترقـه بنظراتهـا أشـعرته بالتعـري أمامهـم ، وميـل الكثـير منهـم لسـؤال مـن خلفـه عـن هويتـه. ومـا أن يسـمع أحدهـم قولـه: ((بيقـول إنـه ابـن الضبـع)) يُصـاب السـائل بالدهشـة والترقـب!

وكان يسـمع الأقسـام الغليظـة مـن الذيـن أعماهـم غضبهـم عـن وجـوده: ((علـيَّ الطـلاق ليكـون آخـر يـوم للحكومـة النهـاردة، عرضنـا وشرفنـا ويمـين بـالله لا نخلـص عـلى الـكل، يمـين بـالله مـا يخلصهـم مـن إيدنـا حـد الليلـة، الـلي فاهـم إنـه يقـدر يكـسر رجالـة الصعيـد يمـين بـالله لتنكـسر رقبتـه))!

كُلهـا جُمـلٌ وكلمـات كانـت كافيـة لـه لأن يتيقـن بـأن المعركـة قـد حُسـمت قبـل أن تبـدأ.

رفع مُقتاده صوته بقوة قائلًا:

ـ«يا كَبير!»

اسـتدار شـخصٌ يحمـل في قبضتـه بندقيـة آليـة ويرمـق مُقدمـة الطريـق في الظـلام، وكأن هـذا الحشـد ينتهـي بـه، هـو مـن يقـود تلـك الحـرب في صـدر المقدمـة، شـدهه أن هـذا القائـد هـو ((صـلاح البنـداري))!

مـا أن وقعـت عينـه عـلى ((عـلي)) اندفـع إليـه يضُمـه إلى صـدره بلهفـة وشـوق أبٍ يلتقـم ولـده، وتحـدث صارخًـا: «ولـدي!»

لـم تكُـن الصدمـة مـن نصيـب هـذا الشـاب وحـده؛ لقـد اعـترت الحشـد الصاخـب؛ صمتـت الآلاف وأصابهـم جميعًـا الوجـوم بشـكلٍ تـام! انقطعـت حـتى الأنفـاس للحظـات!

تمالـك صـلاح نفسـه وأبعـده مـن صـدره قليـلًا وهـو يُطبـق بيديـه عـلى أكتافـه في مواجهتـه سـائلًا:

ـ«إيه اللي رجعك دلوقتي؟!»

أجابـه الشـاب بصـدق، لقـد تنـاسى سـبب وجـوده هنـا! لقـد نـسي ذاتـه وهويتـه! لـم يعُـد يذكُـر أو يعلـم أو حـتى يشـعُر إلا بالخـوف عـلى أبٍ هـو ليـس أبيـه!

أجابه بنبرة قوية طمس قوتها الخوف الذي بدا فيها قائلًا:

ـ«خايف عليك! إيه اللي بيحصل هنا؟!»

تقـدم خطـوة ليقـف بمحاذاتـه، وضـع الشـاب عـلى يمينـه، وذراعـه الأيمـن تطـوق كتفـه مـن الخلـف، رفـع بندقيتـه بقبضتـه اليُـسرى وخطـب بصـوتٍ مُرتفـع في هـذا الحشـد المسـلح الضخـم قائـلًا:

ـ«ده ولـدي، هـو مـني وأنـا منـه؛ تفـدوه برقابكـم! ومـن بعـدي هـو الـلي يشـيل نعـشي!»

تحفـز الجميـع بمـا فيهـم هـذا الشـاب الـذي اجتاحـه الخـوف والقلـق، لـم ينتظـر أن يبـادره بالحديـث، التفـت إليـه قائـلًا:

ــ»تعالى يا ولدي«.

اقتاده للأمام قليلًا حتى ابتعد عن الجمع الغفير الذي انهمك في أسئلة وحوارات هامسة بينهم.. ابنه إزاي؟ منين؟ كان فين؟ مش صعيدي!

ما أن انفرد به عن الجميع ظفر سائلًا:

ــ»في إيه؟ إيه اللي بيحصل هنا؟! وانت شايل بندقية ليه؟!«

أجابه بحسرة اجتاحت قسمات وجهه قائلًا:

ــ»مجبور يا ابني!«

استشاط غضبًا ورفع صوته قائلًا:

ــ»وعهدك مع ربنا عن الدم وأكل الحرام!! الداخلية هتقتحم المحافظة نص الليل؛ هتقتل مين وقد إيه؟«

ربت على كتفه بحنينٍ أذاب قلبه وتحدث بنبرة اغرورقت لها عيناه دمعًا قائلًا:

ــ»كُل واحد بياخد نصيبه يا ابني، لكن أنا يا ابني لا يمكن أخون عهد ربنا وسيدي ((عابد)) شاهد عليه، ربنا يقدرني النهاردة ويكون دمي لوحده هو التمن«.

رفع صوته بشدة قائلًا:

ــ»حسان!«.

سـحب خزينـة بندقيتـه وحملهـا عـلى راحـة يـده أمـام عيـني الشـاب؛ اتسـعت حدقتـا عينيـه بشـدة، وقطـع خـروج الكلمـات مـن فمـه وصـول رجـلٍ إليـه، اسـتبق وصولـه بإعـادة الخزينـة إلى البندقيـة، مـا أن وصـل ((حسـان)) بـادره قائـلًا:

ـ«تاخد ولدي توصله للكَبير!».

ـ«حاضر يا كَبير».

اسـتدار إلى الشـاب والتقمـه في صـدره.. لـم يتمالـك كلاهمـا أعصابـه؛ ذُرفـت الدمـوع الحارقـة عـلى وجنيتهمـا، كان وداعًـا كلاهمـا يعلـم أنـهُ الأخـير!

لم ينطق أحدهما من بعده بكلمة للآخر!

اقتـاده حسـان يخـترق بـه الجمـع الغفـير، حـتى وصـل بـه إلى سـيارته ونظـر لهـا وهـو يومـئ برأسـه رفضًـا وأردف:

ـ«عربيتـك يـا ابـني مـش ممكـن توصـل بيهـا أرض الجبـل، لكـن هـي هتوصلـك هنـاك، احنـا هـنروح مـن البحـر».

ـ«ليه من البحر؟!»

تعجـب مـن سـؤاله وبـدا اندهاشـه جليًـا عـلى قسـمات وجهـه، وأجابـه قائـلًا:

ـ»البندارية في شرق البحر، واحنا هنا في الغرب؛ لازم نروح بالمركب لأن مفيش عربية غريبة بتدخل البندارية«.

أومأ برأسه تفهمًا وأردف:

ـ»يبقى أنا لازم آخد شوية حاجات من العربية«.

حمل على كتفه الحقيبة التي تحوي اللاب توب الخاص به ووضع هاتفه المحمول بها وتحرك خلف حسان. لم يكُن سيرهم بين هذا الزحام طويلًا، دقائقُ ووجد نفسه أمام مرسى على شاطئ النيل، وهنالك لنشًا يصطف أمامه، تبعه في ركوبه بعد أن اندفع إليه حسان، ثم أدار المحرك يشُق الماء.

لن يكُن الدم الذي سوف يُراق الليلة بأي حالٍ أقل من حجم الماء في هذا النهر، ما أن يبدأ القتل تعجز عن حصر كمّ الدماء المراقة، وهل هذا الدم دم بريء أم مذنب!

إلا أن ما سيطر على هذا الشاب وهو في طريقه إلى اكتشاف أرضٍ جديدة هو ((عهد الله))! هذا العهد الذي وقعه ((صلاح)) مع الله على عدم العودة إلى سفك الدم وأكل الحرام، كان قد تشكك في قوة صلاح في تنفيذ هذا العهد، حتى بسط له راحة يده بخزينة بندقيته التي كانت فارغة لا تحوي أي رصاصات!

كما لم يفهم كلمته له: «مجبور»! ما الذي يُجبره على العودة إلى حمل السلاح، حتى وإن كان فارغًا؟!

هـذا يؤكـد أنـهُ مـا ذهـب إلا لمقتلـه! مـا هـو هـذا الـشيء الـذي يُجـبره عـلى السير إلى مقتلـه برضـا؟ وكيـف سـيمنع الـدم بـين البندارية والحكومـة؟! بالتأكيـد هـذا أكـبر مـن طاقتـه وقدرتـه!

لـم يكُـن يعلـم أنـهُ مـا أن رحـل مـع حسـان؛ لغـم صـلاح الطريـق بالكامـل ونسـفه؛ حـتى يمنـع تقـدم الحكومـة الوشـيك إليهـم. كان مُتيقنًـا أنـهُ وإن تقدمـت الحكومـة لـن يتمكـن مـن ردع البنداريـة، خاصـةً أن سـبب غضبتهـم الـذي كان كافيًـا لإحراقهـم الأرض بمـا عليهـا وإجبـاره، هـو ((العـرض))!.

انتزعـه مـن شروده وتفكـيره وإجهـاد عقلـه بأسـئلة لـم يجـد لهـا إجابـة هـذا الحشـد الضخـم مـن القـوارب واللنشـات في أحد المـراسي! مـا أن وصـلا لـه وهبطـا مـن اللنـش ازدادت دهشـته وخوفـه! زحـامٌ كبـيرٌ آخـر مـن البـشر المسـلحين!

«تلـك هـي أرض الجبـل كمـا وصفهـا عـم ((صـلاح))»، جملـة قالهـا سرًا دون أن يسـمعه حسـان.

تلـك هـي الحدائـق، ومـن بعيـد يظهـر اسـطبل الخيـل، والسـاحة بـين المنـازل الثلاثـة، وبهـا عـددٌ غفـيرٌ مـن البـشر المسـلحين. أوقفـه حسـان ولـم يقتربـا مـن السـاحة المزدحمـة، التفـت لـه وأردف:

ـ«مشـايخ القبائـل وكبـار العائـلات كُلهـم هنـا، والكَبـير في المجلـس معَهـم، احنـا هنصـبر هنـا لحـد مـا نعـرف إيـه الـلي هيحصـل، وبعديـن أوصلـك لحـد عنـده».

مر بهـم عـددٌ مـن الأشـخاص المسـلحين تباعًـا، كُلما مـر أحدهـم بـادره بلقبـه: ((ريّـس حسـان)). كان جميعهـم يسـأل عـن قـرار الكَبـير! حُشُـدٌ ضخمـة مـن البـشر وكأنـه يـوم المحـشر!

***

هـي تعبئـة في صفـوف أهـالي الصعيـد كافـة، جميـع القبائـل والعائـلات بجنـوب مـصر وغربهـا وشرقهـا وسـيناء، الجميـع مُمثـلٌ في تلـك السـاحة، وكُبرائهـم بداخـل مـنزل الضيافـة، أو بالأحـرى قـصر الحكـم الجنـوبي.

بداخـل جـدران هـذا المـنزل يجلـس عـلى كـرسي الرئاسـة النائـب ((محمـد عبـد التـواب))، هـذا الشـاب الـذي يقـود البندارية بأكملهـا وهـذا الحشـد الضخـم مـن القبائـل والعائـلات، يقـوده بقـوة العادات والتقاليـد، يقـوده بروابـط الـدم والنسـب؛ فهنـا في الجنـوب الجميـع يرتبـط بالـدم والنسـب، والرابـط الأقـوى هنـا هـو العـادات والتقاليـد.

إلا أن سـبب هـذا الحشـد والنفـرة التعبويـة الغاضبـة لهـم كانـت أقـوى مـن أي رابـطٍ، وهـي ((العـرض))!

كُلٌ هـؤلاء المتواجديـن ثائـرٌ وكأن المعركـة معركتـه وحـده، يفديهـا بدمائـه ويُضحـي مـن أجـل النـصر فيهـا بـكُل شيء! بيـد أنـهُ لا مجـال للتراجـع عما يطالـب به هذا الحشـد؛ كم السـلاح الضخـم المتواجد في أيـدي الجميـع هنـا هو بالتأكيد ما أرعب هذا الشـاب، شـعر أنـهُ في أرضٍ ليسـت أرضـه! إلا أن مـا يـراه ما هـو إلا الحقيقـة ولا شيء غير الحقيقة.

تأكـد الآن أنـهُ كان أعمـى! مـن فـرط قُـرب الـشيء منـك قـد لا تـراه؛ فالإنسـان لا يُبـصر سـواد عينـه مـن فـرط قُربهـا منـه!

عـم الوجـوم السـاحة الصاخبـة فجـأة واتجهـت الـرؤوس والأعـين جميعهـا إلى مـنزل الضيافـة، اصطـف أمـام المـنزل عـلى القطعـة الـتي تعلـو السـاحة قرابـة الخمسـين سـنتيمترًا وبعـرض المـنزل الكبـير قرابـة المئـة شـخص، جميعهـم في الخلـف لـم يتقدمهـم سـوى ((محمـد البنـداري)) بخطـوات معـدودة. كان يرتـدي جلبابًـا أبيـض وعمامـة بيضـاء بـذات اللفـة المُمـيزة للبندارية، وكان يرتـدي حزامًـا جلديًـا عـلى شـكل حـرف (x) عـلى صـدره، قابضًـا عـلى بندقيـةٍ آليـة في يُمنـاه. وقـف خلفـه قليـلًا إلى يمينـه شـابٌ آخـر يرتـدي ذات ملابـس النائـب وذات الحـزام عـلى صـدره، ويقبـض عـلى بندقيـة في يـده؛ إلا أن ملامحـه الـتي لـم تكُـن تظهـر تفاصيلهـا لهـذا الشـاب وهـو يجاهـد في اكتشـاف الأرض وأهلهـا؛ فمـا ظهـر منـهُ جليًـا هـو غضبـه الشـديد وقسـوته!

التفـت النائـب الشـاب يمنـةً ويسـرةً وكأنهُ يسـتعرض من يقـف معه، لـم تكـن نظرتـه لمـن يقـف خلفـه تأكيـدًا إلا لمـا سـوف يُلقيـه الآن! وقبـل أن ينطـق بكلمـة، اسـتدار برأسـه للخلـف لهـذا الشـاب الغاضب؛ فأومـأ لـهُ الشـاب برأسـه إيجابًـا؛ فكأنهـا الإشـارة المتفـق عليهـا.

اعتـدل ليواجـه مـن أمامـه في السـاحة وبـدأ حديثـه بصـوتٍ مسـموعٍ لـكُل مـن في السـاحة، وبـدا منـه أيضًـا غضبـه الشـديد وهـو

يُشير ببندقيته إلى النهر وكأنها لسانه وهي من تتحدث قائلة:

ـ«الحكومة هناك عُمرها ما تجرئت على واحد من البندارية؛ البندارية طول عُمرها الكُل يعرف إنها لا بتسلم رجالها ولا سلاحها للحكومة!»

رفع بندقيته لأعلى بطول ذراعه الأيمن وصرخ بقوة:

ـ«البندارية رجال!»

شق الوجوم السائد صرخات مدوية من آلاف البشر وهم يرددون خلفه: «البندارية رجال!»

أشار ببندقيته إلى المنزل على يساره وهو في المواجهة بين منزل الضيافة ومنزل صلاح، وعاد للحديث بذات القوة قائلًا:

ـ«في البيت ده أنا اتولدت وربتني أمي الحاجة ((وهيبة))، وكل واحد منكم يعرف مين هي الحاجة وهيبة؛ عُمرها ما ردت واحد مظلوم من بابها ولا واحد سائل إلا ولبت طلبه!»

صرخ بأعلى ما أمكنه قائلًا:

ـ«الحاجة وهيبة، عرض البندارية وعرض العرب والصعيد كله!».

كانت صرخات الحشود المتزايدة أمامه تشق السماء صارخة:

ـ»عرضنا يا حاجة وهيبة!«

عاد يُشير ببندقيته تجاه النهر وهو يصرخ قائلًا:

ـ»الحكومة هتكت عرض دار كَبير البندارية في غيابه؛ دنست بيتي برجليها، وخاضت في عرض كُل واحد فيكم لما أيدهم اتمدت على الحاجة وهيبة وأخدوها معاهم؛ عرضنا في حريمنا نفديه بالدم!!«

انقطع حديثه لحظةً التفت فيها إلى الشاب الواقف خلفه، وبدوره أومأ له برأسه إيجابًا.

تحرك خطوة للأمام ورفع بندقيته تجاه النهر وهو يصرخ قائلًا:

ـ»جه وقت التأر من الحكومة؛ مع أول نور نهار، البندارية في لبس الحرب، ومعاهم أولاد العم وأولاد الخال والأصهار والأحباب وكل واحد عليه دين في رقبته للحاجة وهيبة والبندارية!«

أشار ببندقيته إلى الشاب الواقف خلفه وأردف بقوة:

ـ»أخويه الكبير ((صلاح البنداري)) كان رأيه في المجلس إن التأر للبندارية وحدهم، وكلكم تعرفوا إننا قدها؛ لكن أنا قولت لأ! التأر تأرنا كُلنا، وقولت إن الحاجة زي ما هي عرض البندارية، هي عرض كُل واحد فيكم بيشوف فيها أمه ومراته وبنته.

عـرض البندارية، أولاد عـلى، الترابـين، السـواركة، البياضيـة، التيـاه، اللحويطـات، الضعافـة، العمـيرات، النعـام، المعـازة، اللطميـلات، الجوافـرة، الجميـلات، بشـامة، خمايسـة، سـليمات، مزايـدة، ربعـي، الرميـلات، الجعافـرة، الجبابسـة، اليشـد، العجيلاتـة، العمارنـة، العماريـن، عـرب الحصـار، العايـدة، مزاينـة، المسـاعيد، العزازنـة، العالويـن، الفواخريـة، الطحاويـة، فـذارة، بيـني، المغاربـة، الخشـيمات، شـوغير، العلاقاتـة، القذاذفـة، العبيـدات، العزالـة، الجميعـات، العزايـم، الجميشـات، القطعـان، الطلاخـوه، الفرجـان، شـطول، الحمـران، الرحيـم، الزيـني، الجوابيـس، المهايـة، الشرايـع، الرحـابي، الرفايـع، صعيـد، سـمالوس، السـناجرة، الحويطـي، البراحصـة، والي، ترهونـة، الجـلالات، الحسـون، العوامـة، الهمامنـة، المنيخـة، العمايـم، الجـوازي، المعـادة، العـراوة، العواقـير، الجهامـة، مجدانـة، بـرارة، وكل العربـان وعوايـل أسـوان، قنـا، سـوهاج، أسـيوط، المنيـا، بـني سـويف، الفيـوم، الـوادي الجديـد!

***

شـد أجـزاء بندقيتـه وهـو يُطلـق منهـا الرصـاص بيـده اليُمـنى ويُغلـق قبضتـه اليـسرى بقـوة صارخًـا:

ــ «الليلـة مفيـش نـوم، والصبـح الثـأر لـكُل راجـل حُـر! البنداريـة والصعيـد كلـه رجـال أحـرار!»

انفجـرت بنـادق الجميـع في إطلاقهـا، إلا أن صرخاتهـم ((الثـأر)) كانـت أكـثر قـوة مـن صـوت الرصـاص المُطلـق بكثافـة.

هبـط إلى الساحة وهـو يربـت بيـده عـلى صـدر كُل مـن يقابلـه في هـذا الحشـد الضخـم، ولـم يتخلـف أخيـه عـن ملاصقتـه لـه مـن الخلـف، بينمـا ظـل الذهـول والشـده يسـيطران عـلى هـذا الشـاب الغريـب عـن تلـك الأرض!

لـم يـشرُد عقلـه يومًـا فيمـا يـراه الآن ولا كان ليتخيـل أن يسـمع مـا سـمع!

هو نداء الحرب، تلك كانت الحقيقة بالأمر!

تهـاون الحكومـات والدولـة بأكملهـا وإغفالهـا الجنـوب عمـدًا؛ هـو مـا أوصـل هـؤلاء الغاضبـين إلى تلـك الحالـة!

***

١٨

..أعمى..

تقـدم في خطواتـه يخـترق الحشـد بالسـاحة حـتى توقـف أمـام ((عـلي))، دقـق النظـر فيـه يتفحصـه بعينيـه؛ فأجابـه حسـان عـن سـؤال عينيـه قائـلًا:

ــ»ده أمانة الشيخ صلاح، ولده يا كَبير«.

أومـأ برأسـه إيجابًـا، إلا أن الصـوت الغليـظ خـرج مـن خلفـه غاضبًـا قا ئلًا :

ــ»اتجننـت يـا حسـان! ولـد مـين؟! عمـي ولاده بنـت واحـده؛ مـرتي، ولا كـبرت وخرفـت؟!«

تصلـب وعجـز عـن الـكلام أمـام غضبـه الشـديد، ولـم يسـتطع الدفـاع عـن نفسـه؛ تدخـل الكَبـير ليُنهـي الأمـر قائـلًا:

ــ»حسـان لا اتجـنن ولا خـرف يـا أخويـه، هـو وصـل الرسـالة الـلي باعتـه بيهـا عمـي صـلاح، لا زاد كلمـة ولا نقـص حـرف«.

زفـر أنفاسًـا كادت تحـرق مـن حولـه وهـو يُشـيح ببندقيتـه ويهزهـا في قبضتـه بقـوة، دون أن يُعلـق بكلمـة! عـاد للحديـث مـن جديـد قائـلًا:

ــ«أنـا جنـب الاسـطبل، انـت عـارف الليلـة مفيـش نـوم، أي حاجـة تجـد هتلاقيـني هنـاك».

أومـأ برأسـه لـه إيجابًـا، اعتـدل في مواجهـة ((عـلي)) الـذي مـا يـزال يُحافـظ عـلى صمتـه وشـدهته مـن ما يرى ويسـمع. باغتـه بسـؤاله قائلًا:

ــ«عُمرك شوفت الجبيرة ؟!»

اخترق حاجز صمته وأجابه من فوره قائلًا:

ــ«لأ».

التفت إلى حسان وأردف:

ــ«في ضهري برجالتنا يا حسان».

أمسـك ببندقيتـه بكلـتي يديـه مـن خلـف ظهـره وتحـرك تجـاه إسـطبل الخيـل، مـا أن تحـرك خطـوة رتفـع صوتـه دون أن يتوقـف أو يلتفـت، قائـلًا:

ــ «إذا فضلـت عنـدك لا هتشـوف الجبـيرة، ولا هتعـرف الـلي جـاي عشـان تعرفـه».

اندفـع عـلي ليسـير إلى جـواره، كان الصمـت بليغًـا في أولى الخطـوات تجـاه مزرعـة الخيـل بـين حدائـق الفاكهـة عـلى جانـبي الطريـق، وهـي

الحدائـق الزاخـرة بـألافٍ مـن الرجـال المسـلحين. وكُلمـا اقـترب مـن أحدهـم اعتـدل في وقفتـه وانخفضـت جبهتـه أمامهـم حـتى يمـرون.

كان الغريـب في كُل مـن مـر بهـم أن ملابسـهم تبدلـت؛ جميعهـم يرتـدون الجلبـاب الأبيـض والحـزام الجلـدي عـلى شـكل حـرف (x) وعمامتهـم البيضـاء بلفتهـا المُمـيزة، وكأنهـم يرتـدون زيًـا موحـدًا!

سـمع مَـن جـواره يُجيـب عـن سـؤاله قبـل أن يسـأله، كأنمـا قـرأ أفـكاره! ودون أن يلتفـت لـه أو يُخفـف مـن سرعتـه وحركتـه أو حـتى يفـك قبضـة يديـه مـن خلـف ظهـره، أو تهـتز بندقيتـه المتدليـة مـن يديـه مـن خلفـه، أجابـه بثبـاتٍ قائـلًا:

ــ «ده لبـس الحـرب عنـد البنداريـة، البنداريـة أصولهـم عربيـة وتاريخهـم كبـير وعميـق، تقـدر توصـل لإنهـم كانـوا صـدر الجيـش الـلي فتـح الأندلـس، وممكـن تعـرف كمـان الأقـدم إننـا هنـا مـن أيـام سـيدنا داوود، وإن أحـد حـكام الفراعنـة كان منهـم، لأ وأسسـوا دول ومـدن منهـا مثـلًا دولـة ذي النـون، ودولـه بـنى الزيـري، ودولـة بـن الخطـاب، ومدينـة وهـران في الجزائـر، ومصراتـة وترهونـة ورفلـة ومسـلاتة في ليبيـا، وفي عهـد الأتـراك والمماليـك أسسـنا في الصعيـد إمـارة مسـتقلة عـن الأتـراك في زمـن الأميرعمـر بـن عبـد العزيـز، وده كان بموجـب صـك رسـمي مـن البـاب العـالي. البنداريـة كُلهـم عـلى قلـب رجـل واحـد، والأهـم إننـا مـش أي بـشر بمئـات الآلاف وخـلاص؛ إحنـا نـاس عارفـين إحنـا مـين، تاريخنـا

ونسبنا يرجع لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، وعارفين عايزين إيه».

ألقى سرده السريع عن تاريخه وتاريخ البندارية على مسامع مرافقه لتكتمل دهشته التي لم تُغادره مُنذُ وطأت قدمه تلك الأرض، عاد لصمته حتى توقف أمام مزرعة الخيل، استدار للخلف يواجه حسان قائلًا:

ـ»رجالتك معاك ومن هنا على عمي صلاح، إياك تبعد عنه خطوه، فاهم؟».

أومأ برأسه إيجابًا وأجابه:

ـ «أمرك يا كَبير!».

رحل ورحل معه عددٌ ضخمٌ من الرجال المسلحين، يرتدون زي الحرب البنداري.

رغم عددهم الكبير بدا وكأنه لم يرحل معه أحد؛ فلم يتوقف ازدياد الحشد لحظة، كُل دقيقة تمُر في تلك الأرض يزداد الحشد فيها بشكلٍ خرافيّ؛ كأنهُ نداء التعبئة للحرب حقًا!

أشار إلى مرافقه بإتباعه إلى مزرعة الخيل، وما أن دلفا إليها نظر له وهو يُشير للأمام تجاه إحدى الحظائر، مُحاطة بسياجٍ خشبيّ بلا سقف، وفي أحد أضلاعها من الداخل بوابة تقود إلى اسطبل الخيل. وبادره قائلًا:

ـ تعرف إن إحنا والخيل نشبه بعض؟»

امتعض من كلماته وسأله مذهولًا:

ــ «إزاي يعني؟! الخيل حيوانات واحنا بشر؛ فين الشبه بينا؟!»

ابتسم في وجهه وأردف:

ــ «طيب ادخل اتفرج على الخيل في المزرعة، ابدأ من الاسطبل ده».

أنهى حديثه وهو يُشير إلى ذات المنطقة المحاطة بسياجٍ خشبيّ؛ تحرك إليها بقوة ينقاد إلى أمره وهو يتذكر كلمات صلاح له؛ بأن محمدًا قد يتحدث بشكلٍ عامٍ؛ إلا أنهُ دقيقٌ إذا انتبهت إليه وإلى حديثه بقوة.

تقدم حتى مر من البوابة الخشبية، يقوده الشغف والشبق يملأ عينيه، لم يكتشف شيئًا في بادئ الأمر. لحظات وصرعه صوت صهيلٍ قويّ يندفع تجاهه في بطش؛ اندفع مذعورًا إلى خارج السياج دون أن يُبصر ما هذا الوحش الذي كاد يفتك به! وجد محمد يواجهه ويتفحصه بنظره بقوة؛ فدافع عن خوفه قائلًا:

ــ «ده أكيد مش فرس، ده شيطان!»

هز رأسه إيجابًا وأجابه بكلمة واحدة:

ـ «تعالى».

تقدم إلى داخل الحظيرة ولم ينتبه إلى كلمات ضيفه الأولى وهو يصرخ:

ــ «لا طبعًا، مش ممكن أدخل تاني!»

ما أن دلف إلى الحظيرة رفع صوته بقوة قائلًا:

ــ «بحر».

ألقاها وهو يصنع صوت صفيرٍ هادئٍ بفمه، مرت لحظات الترقب على ضيفه من الخارج أعوامًا، وهو مُتيقن من أن بداخل ذلك السياج شيطانًا. مرت اللحظات وعادت لهُ شدهته من جديد؛ وقعت عينيه على أجمل فرس بصرته عيناه في حياته كُلها!

اندفع الفرس إلى صاحبه يُجلجل ويقف على قدميه الخلفيتين تهليلًا لرؤيته، ويحتضنه وهو يُجلجل برقبته؛ كأنما معشوقٌ التقى عاشقه. لحظات وتكرر المشهد، فرسين آخرين تبعاه في ذات الترحيب والحُب، انتزعه من شروده في تفاصيل ما يرى صوت مُضيفه قائلًا:

ــ «هتفضل عندك خايف من الشيطان، ولا تدخل تشوف الملايكة؟»

تحسس خطواته إلى الداخل ببطءٍ شديدٍ يكاد ألا يكون تحركًا، ما أن اقترب من مضيفه الذي انهمك مع أفراسه، زمجر ((بحر)) ونفر بقوة؛ يتحفز تجاه من يخترق أرضه؛ ربت محمد على رقبته وتحسسها يُهدئه، وهو يحدثه كمن يحدث بشرًا قائلًا:

ــ»ده ضيفنا يا كريم».

ما أن ألقى جُملته على فرسه تبدلت حاله تمامًا وعاد إلى جلجلته وفرحته هو والفرسان معه؛ التفت له محمد ضاحكًا وأردف:

ــ «بحر كريم و مضياف، ويعرف يكرم ضيوفه؛ تعالى».

اقتـاده إلى أريكـة خشـبية وجلـس إلى جـواره، ووضـع بندقيتـه إلى جـوار الأريكـة أرضًـا، فيمـا جلـس ضيفـه إلى جـواره واضعًـا الشـنطة الـتي تحمـل الـلاب تـوب الخـاص بـه عـلى أقدامـه يحتضنهـا بذراعيـه. رمقـه بنظـرة قويـة وأردف:

ــ»عرفت إننا والخيل شبه بعض!»

أومـأ برأسـه رفضًـا، تفهـم محمـد أنـهُ لـم يفهـم مقصـده؛ فعـاد للحديـث قائـلًا:

ــ»الخيـل العـربي الأصيـل غيـور عـلى أرضـه وعـلى زوجتـه، دي أرض بحـر، والـلي هنـاك دول مراتـه ((مهجـة)) وبنتـه ((وهبـة)). لا يُمكـن يسـمح لحـد غريـب يدخـل أرضـه، أو يقـرب مـن أهلـه. فهمـت الخيـل شـبهنا قـد إيـه؟»

اتسعت حدقتا عينيه بقوة وأجابه بقوة قائلًا:

ــ»أنـا فهمـت إن الخيـل شـبه البـشر، لكـن الـلي مـش قـادر أفهمـه إن نائـب عـن الشـعب زيـك يقـود ثـورة مسـلحة وحـرب كُلهـا دم ضـد البلـد الـلي عايـش فيهـا، وأقسـم يمـين عـلى الحفـاظ عليهـا!»

لـم تتبـدل ملامحـه رغـم حـدة الاتهـام الموجـه لـه، أجابـه بهـدوءٍ يمتلكـه حقًـا، قائـلًا:

ــ»ده اللي انت شايفه؟»

ـ»طبعًـا! أمـال الحشـد ده كلـه تسـميه إيـه؟ والسـلاح؟ وحصـار مديريـة الأمـن؟ كُل ده مـش حـرب ودم! الـلي أنـا شـايفه هنا هـو تقريبًا نفـس الـلي كان حاصـل في النخيلـة! وأحـذرك إن مهمـا كان حجـم الدم؛ النتيجـة محسـومة! الدولـة تفضـل دولـة والنـصر في النهايـة ليهـا!!»

قطـع حديثـه لـه بنوبـة ضحـك هسـتيرية، لـم يكـن محدثـه رغـم هـذا الغضـب الـذي بـدا عليـه حـتى انتفـض جسـده غضبًـا، ليُخفـي خوفـه الـذى بـدا جليًـا عليـه رغـم غضبتـه الشـديدة.

وكانـت ردة فعـل مُسـتمعه أغـرب؛ لـم يخـسر هـدوءه رغـم قسـوة وقـوة كلمـات ((عـلي)) لـه، لـم تُحـرك فيـه سـاكنًا، لـم تُخيفـه أو ترهبه أو تحيـده عـن موقفـه؛ بـل مـا أصابـه مـن نوبـة ضحـكٍ هسـتيرية كانـت سـببًا أكـبر في زيـادة الخـوف عـلى معالـم مُحدثـه.

تمالك أعصابه ورباطة جأشه ثم تحدث قائلًا:

ـ»ربنا يديمك علينا نعمة يا سيدي عابد».

اعتدل في مواجهته لجواره، وهو ينظر إليه وأردف:

ـ»قولـت لسـيدي عابـد، يـا سـيدي ده نظـره ضعيـف مـش شـايف غـير تحـت رجليـه؛ ضحـك وقـالي

((ده أعمـى يـا ولـدي، مـش نظـره ضعيـف))! سـيدي عابـد دايمًـا هـو الصـح، انـت فعـلًا أعمـى.. مـش نظـرك ضعيـف وخـلاص؛ تعالى».

انتفض من جلسته واقفًا، وتبعه ((علي)) وهو لا يفهم شيئًا مما قاله له، وكيف كان محور حديثٍ بينه وبين الشيخ عابد، رغم أنهما لم يلتقيا مُطلقًا!!

خرجا من مزرعة الخيل واخترقا الحشود الكبيرة من البشر حتى وصلا إلى موقعٍ على حافة أرضٍ زراعية بدت شاسعة لا تنتهي على مدى البصر. كانت المصفوفة من الطوب اللبن تتعالى منها الأدخنة، وقلبها مُشتعلٌ يُزكي النار بداخل هذا المبنى الخاوي من الداخل، دائري السطح على شكل قبة. رجُلان يحملان بنادق آلية للحراسة، وكان هذا المبنى الذي يحترق من الداخل أقرب إلى شكل أبراج الحمام، اقتربا من هؤلاء الرجال فاندفعا إليهم وبادر أحدهم قائلًا:

ــ«أُؤمر يا كَبير».

ــ«هاتلي دكة، وابعت حد للبيت يجيب عشا للضيف، وارجعوا لشغلكم».

ــ«أمرك يا كَبير».

***

١٩

ظل واقفًا يُحافظ على رباطة جأشه وقوته أمام منزله الكبير، هذا المنزل الذي تغيب عنه الروح بغياب أمه عنه. رغم متابعته بعينيه هذا الحشد الكبير في الساحة أمام عينيه، وهو الحشد المجتمع يرفع راية الثأر لكرامته وعرضه، فإن ذهنه لم يكُن حاضرًا مثل عينيه؛ شرد ذهنه وعاد بذاكرته إلى هذا اليوم الذي مر عليه أكثر من أسبوعين، حينما استدعته والدته إلى غرفتها على إثر الشجار الكبير الذي نشب بينه وبين شقيقه الأصغر، كان الشجار بين الشقيقين كبيرًا، ولأول مرةٍ يحدث مثل هذا الأمر بينهم.

ما دفع الأخ الأكبر إلى فقد السيطرة على أعصابه ورفع صوته واحتداده بقوة على شقيقه؛ السبب هو تصريح شقيقه له بأنه قرر مُنفردًا تسليم السلاح للحكومة، ودفع الجميع لتسليم سلاحه؛ وهو ما ووجه برفضٍ كبيرٍ منه.

وما أزكى نيران غضبه المُشتعله قرار أخيه الثاني، وهو أنهُ قرر أيضًا التوقف عن تجارة السلاح تمامًا ونهائيًا!

لا يعلم ماذا دفعه للانسحاب من النقاش والشجار فجأة، إلا أنهُ انسحب منه وهو على يقين أن استمراره في هذا الجدال

العقيـم قـد يـودي بحيـاة أحدهـم؛ فقـد تصلـب وتمـترس كُلٌّ منهـم عنـد رأيـه؛ فكانـت الحكمـة في انسـحابه مؤقتًـا.

مـا أن صعـد إلى غرفتـه دار شـجاره الثـاني مـع سـماح، وهـي الـتي دعمـت وأيـدت قـرار شـقيقه بقـوة، وكأن الأمـر قـد رُتـب بدقـة بـين الجميـع وهـو فقـط خـارج منظومـة هـذا الترتيـب!

وقبـل أن يـزداد الأمـر سـوءًا، وكان عـلى شـفا أن يحـدث مـا لـم يحـدث منـه طيلـة حياتـه تجـاه زوجتـه، رفـع يـده عاليًـا، وسـماح تقـف ثابتـةً مثـل الجبـال الـرواسي تنتظـر الصفعـة الـتي لـم تأتِهـا. هـز رأسـه رفضًـا والقهـر يمـلأ قسـمات وجهـه، أطبـق قبضتـه العاليـة وهـو يضغـط بـكُل مـا أوتي مـن قـوة عـلى أسـنانه. أنهـى مُعاناتـه صـوتٌ اخـترق جـدران غرفتـه؛ صـوتٌ جـاء لإنقـاذه مـن الألـم؛ كان صـوت أمـه الحاجـة وهيبـة وهـي ترفـع صوتهـا باسـمه بقـوة؛ صرخ قائـلًا:

ــ «حاضر يا حاجة».

انحـشرت الكلمـات في حلقـه ولـم تخـرج منـه، بسـط راحـة يـده وهـو يترجـى نفسـه في الحديـث، ولـم تُطِعـه.. أطبـق قبضتـه وأغلقهـا، أومـأ برأسـه رفضًـا ورحـل مـن الغرفـة.

دلف إلى غرفة والدته فوجدها تجلس على أريكة وبادرته بقولها:

ــ «اقفل الباب يا صلاح وتعالى».

جلس إلى جوارها وهو يتحاشى النظر إليها، فيما كانت ترتدي عباءتها السوداء الفضفاضة، وعلى رأسها شالها الأسود الكبير، ربتت على ركبته قائلة:

ـ «قول اللي في قلبك يا صلاح، قول يا ولدي».

وكأنها أعادت تنشيط براكين غضبه، نفض جلبابه الفضفاض، وتوقف وهو يزفر أنفاسًا تخرج من صدره حاملةً لهيبٍ وحسرةٍ وقهر؛ صرخ قائلًا:

ـ»ليه يا حاجة، ليه؟؟ لما مات أبويه، انتي اللي قولتي أخوك يكون الكبير من بعده، قولتلك ازاي يا حاجة وأنا الكبير! قولتي عشان انت اللي تقدر تشد ضهره وتكون سنده وسندنا؛ رضيت والحسرة بتاكل في قلبي؛ أخويه صحيح، لكن عيون الناس كانت بتعريني من جلابيتي كُل ما حد منهم يشوفني، وكأنهُ بيقولي ازاي الصغير يكون كبير وانت موجود! قهرت قلبي وقولت أخويه كل ما يكبر أنا بكبر معاه؛ لكن لأ يا أمي؛ أنا شديت ضهره وهو كسر ضهري، أنا سندته وهو وقعني، أنا سترته وهو عرّاني، أنا كبرته و هو صغرني! بس ريحيِّ قلبي من النار اللي فيه، قوليلي ليه؟؟«

أنهى صرخاته وهو ينتحب بحرارة كالأطفال، تهدمت جميع أعمدة معبده على رأسه، يبكي بحرقة العاجز أمام معبده وهو يتهدم ولا يستطيع الحراك لإنقاذه؛ إن بكى الرجُل قهرًا فانتظر وحشًا يخرُج منه يلتهم الأخضر واليابس!

نهضت لتقف في مواجهته بقوتها المعهودة، لم يبدُ أنها تأثرت بغضبه وحديثه وآلامه ولا حتى دموعه، جففت دمعه على وجنتيه بأناملها وأردفت قائلة:

ـ«عايز تعرف ليه؟ أنا أقولك ليه».

عادت لجلستها وأجلسته إلى جوارها، اعتدلت لتواجهه في جلستها واستطردت:

ـ«لما أبوك الله يرحمه مات أنا قولتلك أخوك يحل محله؛ لا عشان أقهر قلبك ولا عشان انت ضعيف؛ أبدًا! انت شبه أبوك بالظبط، قوي ويد البندارية ورجلهم الثابتة، لكن عيبك زي عيب أبوك بالظبط؛ لما تيجي الخبطة ، تستقبلها في صدرك! لكن أخوك شبهي أنا، بيشغل دماغه وبيحارب بالمكر، ولو جاتله الخبطة يعرف ازاي يعدي منها سليم. وآدي الخبطة وصلت، دي فتنة الشيخ عابد؛ هو ده الراجل اللي زرع الفتنة بينكم! إياك تقرب منه يا صلاح!

خلي أخوك يعمل اللي هو عايزه، والخبطة جاية في الطريق؛ هو هيعرف يعدي منها ويعديك معاه. وأول ما تعدوا منها هيرجع لمكانه في ضهرك، وانت اللي هتحل محل أبوك، ويرجع كُل شيء لأصله، وأخوك في ضهرك بالمكر والحيلة. فهمت ليه؟»

شدهه ترتيبها الشيطاني، إلا أن ما لم يفهمه ظهر بسؤاله ولم يبدُ مُباغتًا لها، وهو:

ـ«خبطة إيه اللي جاية يا حاجة؟»

ابتسمت بوجهه وأجابته:

ـ «عرفت بقى إنك لا عندك المكر والحيلة اللي عنده ولا اللي عندي! أخوك نسي إن هو مهما وصل بمكره وحيلته؛ أنا اللي علمتهاله! هو انت فكرك إن البندارية ممكن تفرط في سلاحها؟! السلاح عندنا كرامة، إن راح راحت معاه كرامتنا! ولا فكرك إن الناس اللي بنجيب منها السلاح ممكن تسكُت؟! ولا الحكومة نفسها هتقف تتفرج واحنا بنديهم سلاحنا!

أول ما ترمي العصا من إيدك تنهشك الديابه يا ولدي! لكن أخوك هيعدي منها وانت هتعدي معاه».

ـ «يعني أسيبه يسلم سلاحنا؟»

ـ «هو نفسه عارف إنه ميقدرش يسلم سلاحنا، أخوك نسي إن هو كبير البندارية كُلها، مفكر إن هو كبيرنا إحنا بس! مهما سلم سلاح، ده نقطة في بحر يا ابني. هو لوحده ميقدرش يعمل حاجه؛ لازم الناس اللي في مصر تكون هي كمان عايزه تعمل اللي هو عايزه، وهما مش عايزين. فهمت؟!»

ـ «فهمت يا حاجة».

انتهت رحلته في ذاكرته، وأومأ برأسه رفضًا وتفوه بصوتٍ لم يسمعه غيره قائلًا:

ـ «مكنتش أعرف إن الخبطة جاية فيكي يا أمي!»

اقـترب منه شـخصٌ وتوقـف أمامـه، لـم ينتظـر حديثـه وبـادره سـائلًا:

ـ «في إيه؟»

ـ «الكَبير طالب عشا للضيف عند الجبيرة، وقالي أجيبه».

أشار له بالتوقف قائلًا:

ــ «ارجـع مكانـك وخليـك جنـب الكَبـير، وأنـا هبعـت العشـا ليكـم وللضيـف».

دلـف إلى المـنزل ورفـع صوتـه للطباخـين بالـدور الأول وأمرهـم بتجهـيز الطعـام وإيصالـه للضيـف ولشـقيقه. صعـد درجـات السُـلم يدفعـه شـوقه إلى أطفالـه وإلى معشـوقته، الـتي دب بينهـم خصـامٌ طويـلٌ مُنـذ أكـثر مـن أسـبوعين، ولـم ينقطـع هـذا الخصـام طيلـة تلك الفـترة الـتي مـرت دهـرًا عليـه وعـلى زوجتـه، الـتي جاهـدت لكسر هـذا الخصـام؛ وهـو لـم يسـمح لهـا بكسره مُطلقًـا!

دلـف إلى غرفتـه ليجـد أطفالـه يهرولـون لـه، وكان بتلـك الغرفـة زوجتـه وزوجـة أخيـه؛ بادرتـه زوجـة أخيـه بطلبها مـن الأطفـال الذهاب لغرفتهـا لينضمـون لأبنائهـا. ومـا أن خـرج الأطفـال بادرتـه بقولهـا:

ـ «خالتي هترجع إمتى؟»

أومأ برأسه رفضًا وأجابها:

ـ«خالتك عاشت عُمرها تاج على الراس، وانتي وجوزك و مراتي اللي خليتوها تخرج من بيتها متهانه في آخر عُمرها!»

صرخت بوجهه وهي تُشير بسبابتها قائلة:

ـ«اسمع يا صلاح، أنا وافقت محمد يعمل اللي هو عايزه على شرط واحد؛ إن خالتي تفضل على الراس، ده كان شرطي وعهدي له إني في ضهره طول ما خالتي على الرأس؛ لكن أبدًا ما أكون جنبه وخالتي متهانه، فاهم ؟!»

نظر إلى زوجته وأردف:

ـ«وانتي عهدك معاه خالتك؟ ولا لسه معاه حتى لو التمن خالتك وكرامتها وكرامتنا كُلنا؟!»

انتصبت وأجابته بقوة قائلة:

ـ«أنا معاه؛ لأني عارفة إن خالتي راجعة!».

صرخ فيهم حتى كاد صوته يخلع جدران غرفته قائلًا:

ـ«أنا لا كُنت معاه ولا هكون، و يمين الله إذا حصل لأمي أي حاجه أو نقطة دم بنداري واحد راحت؛ ليعوم الصعيد كُله في الدم ليوم الدين! فاهمين كُلكم!! ولو حتى تمن الدم ده رقبةّ أخويه!»

أنهـى كلماتـه الـتي عَلِمـت كلتاهُمـا منهـا أنـهُ لـن يـتردد لحظـة في تنفيذهـا ورحـل!

فيما تضرعت كلتاهما إلى الله أن يمُر الأمر بسلام..

عـاد إلى موقعـه أمـام منزلـه يواجـه الحُشُـد بالسـاحة، وهـو يتحفـز لمعركتـه الـتي لـن يردعـه عنهـا أحـد!

***

٢٠

..للحقيقة أوجهٌ عدة..

جلس وجلس ((علي)) إلى جواره، استدار ليواجهه وبادره سائلًا:

ـ»تعرف إيه عن ثورة ١٩١٩؟»

تعجب من سؤاله وأجابه بدون تفكير، وكأنهُ وحده يملك الحقيقة والمعرفة قائلًا:

ـ»ثورة ١٩١٩ قامت على اعتقال سعد باشا زغلول والوفد اللي معاه اللي كان بيطالب بإستقلال مصر عن الاحتلال. ده طلبة إعدادي عارفين ثورة ١٩١٩!»

تعالت ضحكاته بقوة وأجابه:

ـ»يعني مصر كُلها بمدنها وريفها وصعيدها ثارت عشان شخص أو حتى وفد كامل؟! بكُل بلادها؟!»

اتسعت حدقتا عينيه وسأله مشدوهًا:

ـ»تقصد إيه؟».

هز رأسه رفضًا وهو يقول ((أعمى))! قالها وعاد لحديثه قائلًا:

ـ»مش دايمًا وجهة نظرك هي الصح، ولا انت لوحدك اللي عندك الحقيقة! مصر دخلت الحرب العالمية الأولى بأكثر من مليون ومتين ألف جندي، وحاربت في قارة آسيا وأفريقيا وأوروبا، وكان ترتيبها الثامن من حيث عدد القوات المشاركة في الحرب. الجيش المصرى صد هجوم العثمانيين من الشرق، وحارب فى الشام والعراق والجزيرة العربية فى آسيا، وصد هجوم السنوسي من الغرب، وهجوم سلطنة دارفور من الجنوب في إفريقيا، وعلى الجبهة الأوروبية مصر شاركت بمئة ألف جندي من سلاح العمال ((المهندسين حاليًا))، سلاح الهجانة ((حرس الحدود حاليًا))، مصر حاربت في أغلب دول أوروبا اللي كان فيها الحرب، ومصر قدمت أكثر من نصف مليون شهيد في الحرب العالمية الأولى! يعني كان كُل بيت في مصر له واحد من أولاده مات عشان مصر تاخد استقلالها بعد الحرب ما تنتهي. وسعد زغلول لما طلب يروح مؤتمر باريس للدول المنتصرة في الحرب، كان عشان يقول حق دم شهدائنا هو استقلالنا؛ ولما الاحتلال رفض؛ نفر الشعب عشان حق أولاده اللي استُشهدت، مش عشان القبض على سعد زغلول والوفد اللي معاه، الشعب ثار عشان دم أولاده!»

أنهى درسه في التاريخ للتلميذ الذي أصابه الذهول والشده لا يفارقه!

فهم أخيرًا ما يرمي إليه مُحدثه، بالتأكيد هُنالك قصة دفينة غير مرئية للجميع أدت إلى ما يراه هُنا؛ ولذلك كانت إجابته هي:

ـ «للحقيقة أوجهٌ عدة!»

أومأ برأسه موافقةً وأجابه:

ــ «تمام، أنا هنقلك سبب اللي انت شايفه هنا بالظبط، لكن تحب تتعشى الأول ولا أحكيلك على ما العشا يوصل؟»

أجابه والشغف والشبق إلى الحقيقة يقتله قائلًا:

ـ»أرجوك احكيلي كُل حاجة الأول».

لم يحتَج إلى كثيرٍ من الوقت للعثور على ضربة البداية. مرت لحظات قليلة، عاد بظهره للخلف وأسهب في سرد روايته:

ــ «بدأت قصتي مُنذُ تلك الليلة التي رأيت فيها عمي ((صلاح)) في مزرعة الخيل، مأخوذًا بالحُب والجمال، لم أُرد أن أُطيل عليه أو أن أقطع عليه تلك اللحظات الجميلة؛ خاصةً وأنا أعشق تلك اللحظات وأهرع إليها. لا أعلم ما السبب في تلك الحالة التي تأتيني بين حينٍ وآخر؛ فأركب على ظهر ((بحر)) وأهيم معه بلا توقف، أحيانًا أجد نفسي على مشارف البحر وأمام شواطئه، وأحيانًا أجد نفسي هائمًا بصحراء جرداء بين جبالها ووديانها، ولم يعترِني الخوف قط في الضياع بتلك الصحراء البعيدة التي لا نهاية لها.. دائمًا ما كُنت أشعُر بسعادة كبيرة تملأ جوارحي في تلك الحالة وتجاربها الطفولية غير المحسوبة.. طالما كُنتُ أغرد وحدي وأحلق خارج السرب..

لا أعلـم لـمَ ولكـني دائمًـا مـا شـعرت بالحريـة والاسـتقالية في كسر جميع الحواجـز. حـتى في علاقـة زواجـي.. برغـم حُـبي الكبـير إلى زوجـتي مُنـذُ كُنـا أطفـالًا؛ فـإني لـم أتزوجهـا حـتى تأكـدت أنهـا تُشـبهني، وتحمـل نفـس جينـات الجنـون والرغبـة والإثـارة في التغـير والتحليـق خـارج الـسرب..

إن أي علاقـة تنشـأ بـين طرفـين يكُـن كلاهُمـا ضعيفًـا ويحتـاج إلى الآخـر يتقـوى بـه؛ هـي أفشـل أنـواع العلاقـات وأكثرهـا انتشـارًا!

وإمـا بـين طرفـين أحدهمـا قـوي والآخـر أضعـف، يُحـاول فيهـا القـوي طمس شـخصية الطـرف الأضعـف وقهـره، ويظـل الضعيـف في دفـاعٍ مُسـتميتٍ حـول نفسـه؛ هـذه أكـثر العلاقـات مرضًـا!

وإمـا بـين طرفـين كليهمـا قـوي ويبحـث عـن التحليـق خـارج السرب، ويحتـاج لمـن هـو أقـوى منـه حـتى يسـير معـه فيكوّنـان معًـا سربًـا جديـدًا؛ هـذه العلاقـة هـي الأنجـح والأصعـب عـلى الإطـلاق؛ الأنجـح لأن كلا الطرفـين لـن يقبـل الفشـل، والأصعـب لأنهـا تحتـاج مهـارة الطرفـين حـتى لا يحـدث الصـدام ويتفـكك الـسرب ويتبعـثر!

ومـا أن تأكـدت مـن أنهـا أحـد الأطـراف الـتي تبحـث عـن تكويـن سربٍ جديـد؛ تشـاركنا الحيـاة!

عُـدت إلى المـنزل وكان أبي غاضبًـا بشـدة، دائمًـا مـا أثـرت الابتعـاد وعـدم الخـوض معهـم في لحظـات الغضـب؛ فـأي قـرارٍ يصـدر في لحظـة غضـب هـو قـرارٌ مُتعجـل جاهـل يفتقـر إلى التفكـير ويـندم

عليه صاحبه بشدة فيما بعد.. إلا أني سمعت سبب غضبته؛ وكانت جُملةً قالها لهُ سيدي عابد، ما أن أسره بها في أذنه جُن جنونه! وكانت: ((الحق نفسك واطهر من الدم والمال الحرام، قبرك اتفتح وحسابك تقيل يا عبد التواب))!

لا أعلم سر غضبة أبي؛ فكُلنا نعلم صدق ما قاله سيدي عابد، جميعنا راحل إلى قبره، أم أن أبي كان يظن أنهُ خالدُ!

ونصيحته بالطهارة والتخلص من المال الحرام والدم، هي دعوة مخلصة أرسله الله بها لتشهد على أبي يوم القيامة.

لكني كُنت أتفهم سبب غضبته الحقيقية، كانت وسوف تكون الحقيقة مؤلمة! بكشفه الحقيقة له آلمه بشدة!

ولم تمُر أيامٌ إلا واكتشفنا انسحاب عمي صلاح من تجارة الدم، وتخليه عن ماله بالكامل لأبي! نجى من الحساب وتطهر، فيما ثقُلت حسبة أبي..

ورغم مئات المحاولات المستميتة منه ومن أمي حول إعادة عمي؛ لم تنجح مُطلقًا وباءت جميعها بالفشل! وكُنت أعلم أنها سوف تفشل؛ فمن يرى هذا الحُب الذي رأيته في عينيه بمزرعة الخيل كان ليعلم أنهُ لن يعود أبدًا مثلما كان، مهما حدث!

ولم يمُر عامٌ حتى أصيب أبي بسرطان الدم، ولم تنجح كُل المحاولات في إنقاذه، كانت حالته أقرب إلى انتقامٍ للمرض من

جسـده؛ كانـت أعراضـه قويـة وسريعـة، وتدهـور حالتـه كان عجيبًـا أصـاب جميـع الأطبـاء بالشـده!

برغـم حـزني عليه، كُنت أعلـم أن هذا هو مصيرنا جميعًـا في النهاية.. جـاءت انتخابـات مجلـس الشـعب متوافقـة مـع وفاتـه، و كان العجيـب قـرار أمـي بـأني مـن سـوف يخلـف أبي على كـرسي النائـب وكَبـير البندارية! عللـت ذلـك بانشـغال شـقيقي الأكـبر بـإدارة تجارتنـا المُتشـعبة..

حـتى أتفـرغ لتوطيـد مواطـن حُكمنـا وهـو مـا نفذتـه بنهـم وشـبق وشـغف؛ عـددت مصـادر سـلاحنا وحفـرت موقعًـا لنـا بـين أكـبر تجـار السـلاح بالعالـم.. لـم أكتـفِ بالسـلاح القـادم مـن السـودان وليبيـا؛ أدخلـت البنـادق الإسرائيليـة للصعيـد وهـي الأكـثر انتشـارًا الآن، والقناصـات، والقنابـل اليدويـة، والمدافـع المضـادة للدبابـات.. حـتى أني أدخلـت البنـادق الصيـني بمبلـغ ألفـي جنيـه..

لـم أكل أو أمـل طيلـة تلـك الرحلـة، والـتي كان خلفـي في كُل خطواتهـا شـقيقي الأكـبر، ينـوب عـني في السـفر إلى السـودان وليبيـا وألمانيـا في كثـيرٍ مـن الأحيـان. فرضـت سـطوتنا بقـوة لـم يسـبق لهـا مثيـل؛ حققـت في خمسـة أعـوام أكـثر ممـا حققـه أبي وعمـي صـلاح طيلـة أربعـين عامًـا، وزدت عليهـم كثـيرًا!

لـم أُخالـف العـادات أو التقاليـد الـتي تنشّـأنا عليهـا، بـل دعمتهـا ورفعـت أعمدتهـا؛ فبقـوة تلـك العـادات والتقاليـد أتى لنـا الحكـم والسـلطة!

وكذلـك أمـي لـم تتوقـف قـط عـن دعـم كُل إمـرأةٍ هنـا، مـن تريـد التعليـم تمدهـا بالمـال مـن تريـد الـزواج تمدهـا بالتجهـيز الـلازم، مـن تشـتكي لهـا تجـد عندهـا القـوة لنُصرتهـا.. حـتى أمسـت أمـي أمًـا لـكُل امـرأةٍ هنـا وأختًـا لهـن..

كُنـتُ أعلـم أني أسير إلى ذات مصير أبي، ودائمًـا مـا حلمـت بالتحليق خـارج الـسرب ولكـن كان هنـاك سـؤالٌ لا أجـد لـهُ إجابـة ويردعُـني، وهـو: كيـف؟!

مُنـذُ قرابـة شـهرٍ كُنـت بمديريـة أمـن قنـا أنهـى بعـض الخدمـات، خرجـت مـن المبـنى ومعـي قرابـة العـشر سـيارات وأكـثر مـن أربعـين رجـلٍ في حراسـتي، قـادني الشـوق إلى عمـي صـلاح.. كُنـت أعلـم أنـهُ يملـك محـلًا قريبًـا مـن هنـا لكـن لا أعلـم موضعـه، ولـم أزُره بـه قـط، ولـم أرَ عمـي مُنـذُ أكـثر مـن شـهرين وكانـت رؤيـة مُقتضبـة! كان مـا أن يـرى أحدنـا ينسـحب إلى منزلـه، طيلـة الخمـس سـنوات الماضيـة لـم يُخاطـب أحـدًا فينـا سـوى ابنتـه وأحفـاده، والغريـب أنـهُ كثـيرًا مـا كان يجلـس مـع شـقيقي! أمـا أنـا وأمـي و زوجـتي فـلا يقـترب منـا قـط!

سألني أحد الضباط عند باب المديرية عندما رأى حيرتي قائلًا:

ــ «خير يا سيادة النائب، حضرتك عايز حاجة؟»

ــ «لو عايز الحق، أنا محتاج منك خدمة».

ــ»تؤمرني يا سيادة النائب، عيوني».

ــ «بصراحــة أنــا ليَّ واحــد قريــبي هنــا عنــده محــل قمــاش في المنطقــة، وأنــا مــش عــارف الطريــق، ومحتاجــك توصلــني لعنــده».

أومأ برأسه إيجابًا وأردف:

ــ «أكيــد الحــاج صــلاح البنــداري، ده حبيــب الــكُل هنــا، دقيقــة واحــدة ونكــون عنــده».

دلــف إلى السـيارة جالسًــا إلى جــوار الســائق، ولــم يتوقــف لحظــة خــلال الطريــق الــذي بــدا قصيرًا عــن ذكــر محاســن عمــي صــلاح؛ حــتى ســألت نفــسي: أيتحــدث حقًــا عــن ((الضبــع)) الــذي أعرفــه! أم يتحــدث عــن شــخصٍ آخــر؟

لم تطُل حيرتي، وصلنا أمام المحل وهبط من السيارة صارخًا:

ــ «يا حاج صلاح، سيادة النائب بنفسه جايلك يشوفك».

خرجــت مــن الســيارة وأنــا عــلى يقــينٍ أن مــن وصفــه هــذا الضابــط يســتحيل أن يكــون هــو عمــي صــلاح! إلا أن مــا صعقــني هــو أنــهُ بالفعــل عمــي! مــا الــذي بدلــه هكــذا! كيــف أمــسى معشــوق الجميــع هنــا! أهــذا هــو الضبــع الــذي تربينــا عــلى أســاطير حــول مــا يُحــدث مــن دمــار أينمــا كان!

مــا زاد الأمــر غرابــة: كلماتــه القويــة الــتي خرجــت منــه وهــو عــلى بــاب محلــه قائــلًا:

ــ «كَبير البندارية والصعيد كُله عندي! يا مرحب بالكَبير».

لـم أتمالـك نفـسي أمـام كلِماتـه ولـم أشـعر أني بقارعـة الطريـق والجميـع يُشـاهد؛ ولكـن مـن يهُمـني! ومـن يجـرؤ عـلى التلميـح بأمـرٍ لا أرغبـه!

اندفعـت إليـه أحتضنـه، قـادني الشـوق إلى صـدره الـدافئ، لا أعلـم ماهيـة هـذا الشـعور الـذي أصابـني وأنـا بصـدره! طـال احتضـاني لـه والجميـع حـتى مـن رجالنـا مشـدوهون! وكان الضابـط يسـأل نفسـه مـا صلـة القرابـة بيـني وبـين هـذا الفقـير؟ ومـن معـي مـن البنداريـة يسـألون أنفسـهم مـا هـذا الشـوق ويفصـل بـين مـنزل كليهمـا أمتـارٌ معـدودة!

أبعدني قليلًا عن صدره وهو يبتسم قائلًا:

ـ «حمدالله على السلامة يا ابني».

ـ «نفـسي افهـم ليـه يـا عمـي! خمـس سـنين وانـت بتتعمـد تبعـد عـني وعـن الحاجـة وحـتى عـن وهبـة! ليـه يـا عمـي؟ زعـلان مننـا ليـه؟»

ربت على كتفي بقوة مُبتسمًا وأجاب:

ـ «خايف عليكم، مش زعلان منكم يا ابني».

عدت للسؤال مشدوهًا:

ـ «خايف علينا من إيه؟!»

رفع جبهته ونظره إلى السماء، ثم عاد بنظره لي وأردف قائلًا:

ـ «العصر وجب، نصلي وهتعرف خايف عليكم من إيه».

ألقى كلماته وأغلق باب محله، توجهت إلى سيارتي فاتحًا بابها الخلفي وأنا أراقبه بعيني، أومأ برأسه رفضًا وأردف:

ـ»لما تروح لربنا.. تروحله زحف، مش راكب».

أطرقت برأسي لأسفل، وتبعته فورًا في سيره.. تتبعُنا السيارات زحفًا حثيثًا خلفنا؛ فما كان لمن فيها تركي أتحرك وحيدًا إلا هربًا..

لم تكُن كلمات عمي تحتاج لشرح، لقد ذكرني بما يجب عليّ أن لا أنساه! لم يكُن سيرنا طويلًا حتى وصلنا مسجد سيدي السباعي، أنهينا الصلاة به واقتادني إلى الجنة خلفه.. أصابني ذات الشده والصدمة التي أصابتك عند رؤية ((المبروك))، وممر الماء..

إلا أني لم أفزع مثلك، تملكتني الرغبة والشبق في معرفة كينونة هذا الرجُل الذي يُسيطر على أشر مخلوقات الأرض وأكثرها مكرًا وفتكًا، ويطوعها في هدوء!

جلست أمامه أرضًا وإلى جواري عمي الذي أطرق برأسه لأسفل وظل صامتًا طيلة الجلسة، فيما كان سيدي عابد يُسبح بمسبحته التي لا تفارق يده، التفتُ إليه وقبل أن تخرج كلِماتي من فمي أجابني سيدي عابد قائلًا:

ـ»سيب عمك، هو عمل اللي عليه ووصلك هنا عندي زي ما قولتله بالظبط».

لـم أفهـم يومًـا مـا شـعرت بـه عندمـا رأيتـه! حـبٌ غريـبٌ وكأنـهُ أسرني! «الله أكبر» هـي مـا أسررتـه في نفسي مـا أن وقعـت عيـني عليـه! وغضـبٌ شـديدٌ مـن كلِماتـه الـتي سـحب بهـا زمـام المبـادرة مـني، وحولـني إلى لاهـثٍ خلفـه، لذلـك كان سـؤالي الجاهـل:

ــ»مـين يـا حـاج الـلي وصلـني ليـك؟ أنـا الـلي جيـت مـع عمـي وكان مُمكـن مجيـش، وزي مـا قولتلـه إزاي؟! إذا كُنـت أنـا نفـسي مكانـش عنـدي علـم إني هكـون هنـا النهـاردة!»

كادت نظرتـه أن تفتـك بي، لا أعلـم مـا الـذي فزعـني بهـذا القـدر مـن نظرتـه! حـتى هربـت بعيـني مـن عينيـه، وكانـت إجابتـه أشـد غرابـة؛ أجابـني قائـلًا:

ــ»الصـلاة صِلـة! وانـت قاطـع الصِلـه بينـك وبـين ربنـا، منـين هتفهـم لـو فهمّتـك؟»

قاطعته مُجددًا بقولي:

ــ»مـين قالـك إني مـش فاهـم! أنـا عـارف كويـس إن الصـلاة هـي الصلـه بـين العبـد وربنـا».

أشار لي بيده تتدلى منها مسبحته بالصمت وأردف:

ــ»اسـمع الحكايـة دي، كان في شـاب مغـرور فاهـم إن هـو يعـرف كُل حاجـة في الدنيـا، وكان يقعـد مـع أصحابـه و يسـتعرض معلوماتـه وفهمـه عليهـم، وفي كُل مـرة يقابلهـم يسـألهم سـؤال محـدش

يعـرف يجـاوب عليـه غـيره، لحـد مـا بقـى يسـألهم أسـئلة هـو نفسـه ميعرفلهـاش إجابـة! لحـد مـا واحـد قالـه في راجـل حكيـم بعيـد شـويه، لكـن ده بقـى اللـي لـو سـألك سـؤال لا يُمكـن تعـرف تجاوبـه، ده عـارف كُل حاجـه في الدنيـا. قـرر الشـاب ده إنـه لازم يـروح للحكيـم ده، تعـب في رحلتـه ولمـا وصـل دخلـه خـادم الحكيـم وفضـل في انتظـار وقـت طويـل جـدًا؛ لحـد مـا مـل وتعـب، وفجـأة جالـه الخـادم ودخلـه للحكيـم.. أول مـا دخلـه لقـاه راجـل بسـيط وقاعـد عـلى الأرض، قعـد قدامـه وقبـل أي كلام أمـر الخـادم يجيـب الشـاي، دقيقـة واحـدة وجه الخـادم وحـط إبريـق الشـاي المغـلي وكوبايـه فاضيـة ومـشي، رفـع الحكيـم الإبريـق وبـدأ في صـب الشـاي في الكوبايـة، لحـد مـا الكوبايـة اتملـت وبـدأ الشـاي يـنزل في الأرض وهـو مُـصر إنـه يصـب، بـدأ الشـاب يـصرخ ويقولـه الشـاي بيقـع في الأرض، الكوبايـة اتملـت مـش محتاجـه تـاني، كفايـة! حـط الحكيـم الإبريـق وبصلـه وقالـه:

ــ«انـت جـاي هنـا زي الكوبايـة دي، مليانـه وشـايف إنـك عنـدك كُل حاجـة ومـش محتـاج حاجـه تـاني، لازم تفـضي الكوبايـة عشـان تسـتقبل الجديـد».

شـعرت وكأني تعرّيـت تمامًـا مـن ملابـسي أمامـه، جلسـت أمامـه حقًـا وأنـا بهـذا الغـرور والكِـبر، كُنـت مُتيقنًـا بـأن تلـك مـا هـي سـوى مُقدمـةٍ لمـا يُريـد قولـه؛ لذلـك سـألته:

ــ«تقصد إيه يا حاج؟»

ــ»حملـك تقيـل، والحـرام مـالي جوفـك وجلابيتـك دي، اللـي اشـتريتها مـن دم النـاس، لمـا تـروح لربنـا هتقولـه إيـه؟!«

ــ»يا سيدي أنـا إيـه اللي عملتـه حـرام! السـلاح كان بيتبـاع في عهـد النبـوة، وعُمـر صانـع السـلاح مـا كان عليـه ذنـب، إيـه ذنـبي؟!«

لكمـني بقبضتـه في صـدري وكأنـهُ اعتـصره عـصرًا، ونفجـر غاضبًـا قائـلًا:

ــ»اخـرس! هـو ده الـلي تعلمتــه في الجامعـات وفي الكُتـب الـلي بتقرأهـا!! ولا زي إبليـس هتلبـس الحـق باطـل والباطـل حـق! في عهـد النبـوة وفي عهـد الصحابـة ومـن بعدهـم عُمـر مـا حـد اتجـرأ يقتـل واحـد بـدون ذنـب ويهـرب مـن العقـاب، وطبيعـة السـلاح نفسـه في عصرهـم مكنتـش تسـمح بالـدم ده كلـه، ولمـا النـاس كانـت بتقتـني السلاح كان لأنهـم قـوام الجيـش الإسـلامي ومُسـتنفرين للحـرب في أي لحظـة.. إنمـا انـت بتسـلح النـاس عشـان تقتـل بعـض! وولا انـت ولا غـيرك يقـدر يضمـن حـق المقتـول مـن القاتـل، وبتسـلحهم عشـان يكونـوا جيـش ضـد مـين؟! بتسـتنفرهم عشـان يقتلـوا بعـض!«

صعقـني حديثـه؛ فقـد كُنـت أكـذب وأنـا مُتيقنًـا مـن صـدق كُل مـا قالـه، لذلـك جـاء وقـت الحقيقـة بقـولي:

ــ»يـا سـيدي دي عاداتنـا وتقاليدنـا، أنـا لاأقـدر أغيرهـا ولا حـتى أقـدر أوقـف تجـارة السـلاح، لـو أنـا وقفـت هيطلـع غـيري ولـو غـيري وقـف هيطلـع ثالـث ورابـع ومليـون«.

ــ«انت صحيح متقدرش توقف تجارة السلاح ولا تغير العادات والتقاليد، لكن تقدر تفتح العيون والقلوب العامية اللي هنا واللي في مصر على الحقيقة. أما اللي هيعمل اللي متقدرش عليه مُش انت، لكن واحد تاني من ضهر أبوك بردو».

صرخت مشدوهًا:

ــ«صلاح أخويه؟!»

ــ«قوم ارجع للحرام بجسمك، لكن روحك خلاص، عُمرها ما هترضى تاني».

أنهى حديثه وسحب مقرأته التي تحمل المصحف وتحول بيننا وبينه وانهمك في القراءة..

نهض عمي صلاح وأنهضني من جلستي واقتادني إلى الخروج من الجنة، كُنت أتخبط في سيري، أقدامي لا تحملني..

لم تكُن أقدامي تُريد الابتعاد عنه، وكأن روحي تصرخ مُطالبة بعودتي لها، ولا يسمع جسدي صراخها مهما ارتفعت..

لم ينطق عمي بكلمة، وضعني بداخل سيارتي ورحل في صمت. طيلة الطريق وأنا أفكر وأفكر في كلماته، لا أفهم أغلبها وأحببها وأرهبها وأكرهها....

***

٢١

..الجَبِيرة..

وصلت إلى مزرعة الخيل وأنا على حالتي من الشرود، وما أن دلفت إلى حظيرة بحر بدا وكأنهُ مثلي يُريد أن يهرب من جلده، اعتليت ظهره وانطلقنا لم نعلم يومًا إلى أين نذهب، ولا متى نتوقف! نهرب فقط من كُل شيء حتى من أرواحنا.. غابت الشمس علينا ولم نتوقف، ولا أعلم كم هرول بحر بنا بعيدًا ، بيد أن الجبال والصحراء لا نهاية لهما. هبت علينا نسائم البحر ورائحته، لقد قادتنا الرغبة إلى البحر.. توقف بحر وشرد صامتًا، هذا هو الجزء الثاني من حالتنا، ما أن نتوقف يعُم الوجوم ونألف الوحدة والسكون والتأمُل، ولا نعود إلا حينما يوقظني بحر على صوت جلجلته الصافية.

أذكُر أننا عُدنا وضوء النهار يظهر على استحياء، هربت إلى غرفتي، هربت إلى مُلهمتي التي لا مهرب منها، هي مُلهمتي ومؤنستي ونبع الحب الصافي الذي مهما شربت منه لا أرتوي أبدًا!

خلـق الله الأنـثى كائنًـا ضعيفًـا، وقوتهـا في ضعفهـا. وخُلـق الرجـل قويًـا جلـدًا صلبًـا تسـتمد المـرأة مـن عاشـقها القـوة والأمـان اللذيـن خلقهـا الله في احتيـاجٍ لهمـا.

أمـا الرجُـل فيسـتمد مـن معشـوقته الحيـاة، يسـتمد منهـا العاطفـة والضعـف والحنـين. المـرأة للرجُـل احتـواء.

هـو مـيزانٌ دقيـقٌ حسـاس، إذا اختـل توازنـه ضاعـت الحيـاة! إذا فقـدت المـرأة في معشـوقها الأمـان والقـوة؛ سـقط أمامهـا ولـم يعُـد رجُلهـا. وإذا فقـد الرجُـل في معشـوقته احتواءهـا لقوتـه، غضبـه، جنونـه، عفويتـه، تفاهتـه؛ سـقطت ولـم تعُـد امرأتـه. وهـو المـيزان الـذي لـم ولـن يختـل بيننـا، فتحـت ذراعيهـا تتضرعـني بصدرهـا الـدافئ الحنـون، هـذا الجسـد البـاض أشـد مهابـة مـن جسـدي الصلـب، لـم أفهـم مكنـون قـوة جسـدها الضعيـف مقارنـةً بجسـدي في هـذا الأمـان، الـذي يعتريـني وهـي تتضرعـني بصدرهـا.

قـض التفكـير مضجعـي في تلـك الليلـة، ولـم يأتِـني النـوم وأنـا بأحضانهـا وأناملهـا تتحسـس جبهـتي وشـعري بهـدوء وبـلا توقـف، في صمـتٍ كان أبلـغ مـن آلاف الكلِمـات..

عندمـا اسـتيقظت كانـت نظراتهـا أبلـغ مـن أي حديـث، كُنـت أعلـم أنهـا تبحـث عـن إجابـة لمـا حـدث بالأمـس، ومـا الـذي دفعـني إلى تلـك الحالـة مـن القلـق؛ فقـد كُنـت انتفـض بصدرهـا ولا أعلـم لـمَ؟!

سردت عليها كُل ما حدث؛ لم تكُن لتطمئن جوارحها إلا بالحقيقة كاملة.

لدى الأنثى رادارٌ شديد الحساسية والدقة تجاه الكذب! انتهيت من سردي وهي جالسة أمامي فنهضت من جلستها، هي معشوقتي ذات القوام الممشوق، طويلة القامة مرفوعة الهامة، بوجهها الطويل وأنفها الدقيق وشفاهها الصغيريتن، وتلك الأعيُن السوداوين الواسعتين، وهذا الشعر الحريري الواصل إلى منتصف ظهرها، أشارت إليّ بسبابتها تحذيرًا، وبهدوئها أردفت قائلة:

ـ«أنا مع كلام الشيخ في كُل حاجه قالها، أنا وانت عارفين إن كلامه هو الصدق والحقيقة؛ لكن إياك أي حاجة تحصل دلوقتي أو بعدين تمس خالتي وهيبة! خالتي هي الحد الفاصل بيني وبين أي حاجة ممكن تعملها. حتى لو قررت تهد كُل حاجة أنا معاك، لكن خالتي، لأ!».

نهضت وابتسامتي تملأ وجهي، تلك هي من تحتويني، تلك من أعشقها، تلك معشوقتي وزوجتي، تلك هي حياتي، قبلت جبهتها وأردفت:

ـ«انت عارفه إني لا يُمكن أقبل بأي حاجة تمس أي حد فيكم؛ يبقى ممكن أقبل أي حاجة تمس أمي! لكن ليه عندك سؤال واحد مش عارف إجابته».

ـ«سؤال إيه؟»

ــ»قبـل جوازنـا، كانـت كتـير جـدًا بتجيلـك حالـة مـن الضيـق، أنـا فاهمهـا كويـس، وعـارف قـد إيـه انـت بتعـاني بسـبب بُعـد أمـك وإخواتـك عنـك عُمـرك كلـه، وإنـك مـن يـوم مـا مشـيوا مـن هنـا لا قابلتيهـم ولا تعـرفي عنهـم حاجـة؛ لكـن كان عنـدك سـؤال دايمًـا هـو سـبب تعبـك زي مـا كُنـتي بتقوليـلي؛ وهـو ليـه خالـتي قتلـت أبويـه؟! نفـسي أعـرف مـن بعـد مـا قعـدتي مـع أمـي يـوم جوازنـا إيـه الـلي قالتـه ليـكي حوّلـك لعاشـقه ليهـا للدرجـة دي؟!»

ضحكت بقوة وأجابتني مثل كُل مرة:

ــ»كُل مـرة تسـألني وأقولـك نفـس الإجابـة: خالـتي ريحـت قلـبي وعقـلي، ودي أسرار بينـا عُمرهـا مـا تتقـال».

استشطت غضبًا وصرخت فيها:

ــ»طيب ما أنا مُمكن أعرف منها!»

أمسكت براحتي يدي وبنبرتها التي تُلهب قلبي أجابتني:

ــ»جـرب يـا روحـي تسـألها، وانت عـارف إنهـا لا يُمكن تقولـك حاجـة. المهـم دلوقـتي انـت لازم تقابـل الشـيخ ده تـاني وتعـرف منـه ترتيبـه؛ لأن بالتأكيـد هوعنـده مفاتيـح كُل الـلي بتسـأل عليـه، هـو اسـمه إيـه؟»

ــ»مش عارف، لكن أكيد هقابله تاني».

ولـم تمُـر أيـامٌ قليلـة فـض التفكـير فيهـا مضجعـي، ولـم أذُق نـوم الليـل فيهـم، حـتى قـررت أن أنهـي هـذا الـصراع؛ فلـم يعُـد

عقـلي ولا جسـدي يتحمـلان هـذا الإجهـاد والمجهـود المُضـني، أيـامٌ مريـرة تلـك الـتي مـرت عـليَّ، لـم أطعـم فيهـا إلا مـا يكفـي عصفـورًا للحيـاة، ولـم أذُق للحيـاة طعـم.. فـراشي لا أقربـه ليـلًا، ومعشـوقتي الـتي كُنـت ألهـث لأطعـم الحُـب والحنـين منهـا؛ زهـدت الاقـتراب منهـا وحـتى الحديـث معهـا مُنـذُ آخـر حديـثٍ بيننـا.

اتجهـت إلى عمـي صـلاح وكان محلـه مُغلـق؛ قـررت أن أذهـب مُنفـردًا إلى ذات المـكان بالمسـجد، وصلـت إلى المسـجد واتجهـت إلى ضريـح سـيدي السـباعي، توقفـت أمـام البـاب الواصـل إلى الجنـة، كان مُغلقًـا، جاهـدت في فتحـه ولـم يُطاوعـني حـتى أصابـني اليـأس، خـررت جالسًـا وأنـا أراقـب البـاب بعيـني وصرخـت بـين المُنهمكـين في الدعـاء وقـراءة الفاتحـة أمـام الضريـح قائـلًا:

ـ«افتحلي يا شيخ، عايز أفهم!»

وكأن صراخـي لـم يصـل إلى أُذن أحـدٍ؛ ظـل كُل الواقفـين أمـام الضريـح عـلى حالتهـم.

قـررت أن أعـود، نهضـت مـن جلسـتي فرأيـت البـاب ينفـرج شـيئًا فشيئًا،اتسـعت الفرجـة فرأيـت الشـيخ وبـادرني بقولـه:

ـ«مش قادر تتعلم الصبر، روحك عندي تعالى خدها».

أنهـى حديثـه وأشـاح بيـده للخلـف، اندفعـت خلفـه إلى داخـل الجنـة، حـتى جلـس أسـفل شـجرته في جلسـته المُحببـة، لـم تشـغلني

نظـرات المـبروك الـذي كان جالسًـا إلى جـوار الشـجرة يلتـف حـول نفسـه في حلقـات، ومـن تلـك اللحظـة بـدأ التدبـير لـكُل مـا تـرى أمـام عينيـك الآن.

قاطع حديثه صوتٌ قويّ قائلًا:

ــ«العَشا يا كَبير».

أومـأ برأسـه قبـولًا ووضـع الرجُـل الطعـام أمامهـم وابتعـد، اسـتدار ناظـرًا لـه وأردف:

ــ«يلا يا على، انت أكيد جعان».

لـم يسـتطِع أن يقـاوم جوعـه، بـدأ في الطعـام وكان جـوع عقلـه يسـبقه عـلى لسـانه، بقولـه:

ــ«إيـه هـو بقـى التدبـير ده؟ وإزاي أقنعـت النـاس هنـا عـلى تنفيـذ التدبـير ده؟!»

ــ«كمل أكلك وأنا هكملك الحكاية..

سـيدي عابـد ليـس إمامًـا ولا شـيخًا فحسـب؛ هـو نعمـة مـن الله! كُنـت أعلـم وهـو كذلـك أننـا لا يُمكننـا إنهـاء الأمـر برُمتـه، إلا أنـهُ أراد شـيئًا أهـم؛ إن كُنـا لا نسـتطيع إنهائـه بشـكلٍ تـام، فلنذهـب إلى الله وقـد حاولنـا إنهـاء الـدم وقطـع طريقـه..

إن أقـوى أسـباب اسـتمرار الـدم وسـهولة طريقـه، هـو عـدم معرفـة أحـدٌ منكـم في القاهـرة وبـاقي ربـوع مـصر بحقيقـة الأمـر هنـا، هـذا التخفـي نحـنُ عكفنـا عليـه وأكدتـه الحكومـة؛ لا نراهـا وتتعمـد ألا ترانـا، ويبقـى الأمـر عـلى مـا هـو عليـه..

محاولتنـا هـي لكـسر هـذا التخفـي، وفضـح الحقيقـة أمـام الجميـع. أنـا بشـخصي لا أسـتطيع إنهـاء الأمـر برُمتـه، إلا أني أسـتطيع كشـفه للجميـع، وهـذا هـو مـا فعلتـه.

الأمـر أقـرب لاصطفـاف الأمـراء بجيوشـهم في إسـكتلندا في عهـد الإحتـلال الإنجلـيزي، ويتحـرك الجيـش الإنجلـيزي والملـك لهـم، يصطـف الجيشـان في مواجهـة؛ لا تحـدث المعركـة! يكتشـف كُلٌّ منهـم قـوة الآخـر فقـط، وتُعـرض المطالـب ويتوصـل الجميـع لاتفـاقٍ مُرضي؛ قـادة كلا الجيشـين يعلمـون أنهـا معركـة بـلا نـصر، الأمـراء تعلـم أنهـا لـن تسـتطيع هزيمـة الملـك وجيشـه، والملـك يعلـم أنـهُ لا يُمكـن إبادتهـم، وإلا حكـم أرضًـا خاويـة بـلا شـعب! لذلـك يتـم التوصـل لاتفـاقٍ بعـد كشـف الحقيقـة، هـذا هـو مـا تـراه أمـام عينيـك!

أمـا إقناعـي الجميـع فـكان ترتيبًـا آخـر.. بـدأ الأمـر حينمـا قـررت أن أخـبر أمـي بقـراري بمنـع جلـب السـلاح، وبتسـليمي لكميـة كبـيرة مـن السـلاح للحكومـة، لكـن مـتى أخبرهـا؟ لـم أنـم في تلـك الليلـة أبـدًا، وقـررت أن أخبرهـا صباحًـا؛ إلا أن شـغفي قـادني إلى غرفتهـا قبـل بـزوغ الفجـر، تحسسـت خطـواتي إلى غرفتهـا، ولـم تكُـن مفاجأةً لي أنهـا ليسـت

بفراشـها؛ دومًـا كُنت أدخل غرفتها ليـلًا لأطمئن عليها ودومًـا كانت يقظة. لـم أفهـم يومًـا مـا الـذي قـض مضجعهـا وأضـاع النـوم مـن عينيهـا!

كانــت في بلكونــة غرفتهــا؛ فاتجهــت إليهــا وكانــت جالســةً، مــا أن شــعرت بي قالــت:

ـ«تعالى يا ابني، اقعد».

أشارت إليّ بالجلوس بجوارها، جلست فبادرتني بقولها:

ـ«قول اللي عندك يا ولدي».

تــرددت كثــيرًا وتبعــثرت الكلمــات الــتي كُنــت قــد رتبتهــا بعقــلي، وتناثــرت أفــكاري وخــرج كلامــي غــير مرتــبٍ قائــلًا:

ـ«يا حاجة أنا خايف من ربنا، وعايز أطهر من الحرام».

أشارت إليّ بالسكوت، وأومأت برأسها إيجابًا، وأردفت:

ـ«قابلت الشيخ عابد؟»

ـ«أيوه يا حاجة، لكن...»

قاطعتــني مُجــددًا دون أن تلتفــت إليّ طيلــة الجلســة، تصُــب نظرهــا تجــاه الجبــل، أردفــت:

ـ«اعمـل الـلي انـت شـايفه، لكـن لـو هربـت الحكايـة منـك؛ ترجـع مكانـك في ضهـر أخـوك، الكَبـير هـو الـلي يقـدر ينفـذ الـلي هـو عايـزه، لـو مقدرتـش تنفـذ الـلي انـت عايـزه؛ تبقـى مـش كَبـير!»

ــ«لكن يا حاجة...»

ــ«قـوم يـا ولـدي ارجـع لسريـرك، مشـوارك طويـل؛ وهتمشـيه لوحــدك».

انصرفـت مـن غرفتهـا ولا أعلـم كيـف قبلـت الأمـر بتلـك السـهولة، كُنـت أظـن أنهـا سـوف ترفـض بشـدة؛ إلا أن مـا قالتـه هـو مـا رتبـه سـيدي عابـد! أنـا وهـو نعلـم أني لـن أُكمـل الطريـق وأكـد لي أن مـن سـيُكمله هـو أخـي صـلاح.

خرجـت مـن غرفتهـا وأنـا أقول:«سـبحان الله»! لـم يتفهـم أخـي الأكـبر الأمـرَ كمـا اعتقـدت، وهـو الـشيء الوحيـد الـذي يمـلأ قلـبي بالشـك تجـاه ترتيـب سـيدي عابـد، لـم يكُـن أخـي ليقبـل وأنـا عـلى يقـين أنـهُ لـن يقبـل؛ هـو يجهـل أن الكَبـير ليـس دورًا يقتـصر عـلى الأسرة؛ بـل هــو دورٌ يمتـد للبنداريـة كُلهـا وللجميـع، يتعلقـون في عنقـه، ومسـؤولون منـه.

وكان الأغـرب دعـم سـماح زوجـة أخـي للأمـر بقـوة! وتمـت مُبـادرة تسـليم السـلاح كمـا رتـب سـيدي عابـد تمامًـا. كشـف الجميـع عـن وجهـه الحقيقـي؛ مـن البنداريـة خـرج شـقيق زوجـتي وأمـه يحملـون لـواء المعارضـة، ومـن مـصر هنـاك تلـك الـوزارة الـتي سـلطها الملـك عـلى شعبه، الـذي ينتفـع بقـوة مـن الأمـر ولـن يقبـل بقطـع منفعتـه، وتجـار السـلاح بالخـارج أبلغـوني أن حصـة السـلاح سـوف تسـلم لي أو لغـيري؛ وهـو مـا اضطـرني إلى ممالئتهـم وإخبـاري إياهـم أني

تحت ضغط لتسليم تلك الأسلحة التي سلمتها بالمبادرة، وتعهد شقيقي لهم بتكملة الأمر؛ كما أكد لهم أنهُ لن تدخل للبلاد طلقةٌ واحدة دون إرادته.

هم يعلمون جيدًا أننا قادرون على ذلك؛ لكني أنا أخشى أن يخرج من يقبل شروطهم ويتسلم سلاحًا منهم ، ويحارب ضدنا معركة تُشتت قوانا عن هدفي وهدف سيدي عابد؛ ذلك هو الأمر برمته.

أنهى حديثه وأنهى طعامه ، وشرد قليلًا في الجَبيرة ثم تحدث وهو يصُب نظره عليها:

ـ«الصعيد زي الجَبيرة دي بالظبط، واللي منتفعين من الدم وتجارته زي الناس اللي بتحرس الجَبيرة، ومصر زي الست اللي نفسها تخلف وبتحاول تلف حوالين الجَبيرة، وأول ما تقرب تحوط الجَبيرة؛ يرهبها حراس الجَبيرة ويرجعوها للصفر! المشكلة إن الست متعرفش إنها لو كملت لفتها وحوطت الجَبيرة؛ هتقع ومش هتلاقي في قلبها إلا النار!

***

٢٢
..الواحدة ليلًا..

..طريق أسوان الزراعي الغربي..

مـر مُنتصـف الليـل ولـم تُقتحـم المُحافظـة، كانـت جريـدة عـلي قـد نـشرت خـبرًا عاجـلًا عـن اقتحـام الداخليـة للمحافظـة في مُنتصـف الليـل، متهمـة إياهـا بالسـعي نحـو الدمـاء. وورد اتصـالٌ تحذيـريّ للألفـي بمكتبـه بإمكانيـة اعتقالـه هـو وعلي طبقًـا لقانـون الطـوارئ؛ وهـو الأمـر الـذي لـم يُعـره اهتمامًـا.

إلا أن الـوزارة قـد عدلـت مـن خُطتهـا وقـررت أن يتـم الاقتحـام الثانيـة ليـلًا كنـوعٍ مـن التضليـل؛ حتى لا تلقى مُقاومـة طبقًـا لخطتهم، مُعتقديـن أن بمـرور منتصـف الليـل وعـدم اقتحامهـم كفيـل بخـداع مـن يقطعـون الطريـق. لـم تكُـن الـوزارة وعـلي نفسـه يعلمـون أن تينـك السـاعتين همـا مـا كان يحتاجهمـا صـلاح للترتيـب للأمـر؛ وضـع كشـافات ضوئيـة كبـيرة عـلى النخـل والأشـجار عـلى بدايـة الطريـق، وأوصلهـا بمولـدات كهربيـة، ولغّـم الطريـق بالكامـل.

كان قد وصل حسان له قرب الواحدة بعد مُنتصف الليل، وأمر الجميع بالتقهقُر للخلف كثيرًا، كما أمرهم بعدم إصابة أحدٍ من الشرطة، نمنع تقدمهم فقط. ظل يُراقب الطريق وبجواره حسان ومن خلفه على مسافة أكثر من خمسين مترًا رجال البندارية المسلحون.

انقطع التيار الكهربي وعمّ الصمت والديجور المكان؛ رفع صوته بقوة صارخًا:

ـ»فجّر الطريق يا حسان، قبل ما توصله الحكومة».

لم تمُر لحظات على صرخاته حتى شقت أصوات الانفجارات القوية الوجوم والصمت، وارتفعت ألسنة اللهب والنار تُبدد الديجور وكأنهُ ضوء الظهيرة. عاد لصراخه:

ـ»شغل الكشافات يا حسان «.

دارت مولدات الكهرباء، أضاءت الطريق من جهة الشرطة التي بدأت إطلاق النار على الظلام تُصيب الهواء، كشف ضوء الكشافات موقعهم وهم عاجزون عن كشف مُهاجميهم، أطلقوا النار بكثافة وهم فزِعون بشدة، وفي الجانب الآخر تتعالى صرخات صلاح للبندارية:

ـ»إياكم واحد يضرب عيار واحد؛ خلوهم يرجعوا!»

استدار ينظر إلى ألسنة اللهب ومن خلفها إلى القوات العاجزة عن دخول المحافظة..

ابتسم بقوة، ضوءٌ أبيض ناصعٌ قطع بصره؛ لم يعُد يرى ألسنة اللهب ولا قوات الشرطة، لا يسمع صوت أحدٍ ولا أصوات الأعيرة النارية.. كانت معشوقته وزوجته المتوفاة ترتدي جلبابًا أبيض، يقودها سيدي عابد إليه بجلبابه الأخضر.. توقف أمامه ضاحكًا قائلًا:

ـ»حمد الله على السلامة يا ولدي«.

ـ»أنا نفذت العهد يا سيدي؛ مخنتش عهد ربنا وعهدك«.

ربت على صدره بحنينٍ وأردف:

ـ»عارف يا ولدي، وربنا ميخفاش عليه شيء؛ مراتك هنا وحشتك؟«.

ـ»أوي يا سيدي، هو أنا ممكن أروحلها؟«

دق على كتفه الأيمن ثلاث دقات رقيقة وأردف:

ـ»روح يا ولدي ، محافظ على عهد الله وربي راضي عنك«.

جُن جنون حسان وهو يصرخ في جسده الغارق بالدماء:

ـ»رد عليا يا كَبير!! يا حاج صلاح!!«.

ما أن رآه الجمع يسقط أرضًا؛ انفجرت بنادقهم تبدد كُل ما تراه أمامها...

لحظات وشعرت الشرطة بهول ما هو قادم؛ انسحبت ببطء تتقهقر للخلف، ما منع إبادتهم ليس انسحابهم؛ إن ما منع الدم في تلك الليلة هو ترتيب صلاح! لو لم يكُن الطريق قد تفجر لما توقف الأمر على دمه وحده!.

صرخ حسان في من خلفه قائلًا:

ـ«بلغوا الكَبير في أرض الجبل!».

انطلق أحد اللنشات يشُق بغضبه المياه الهادئة، حتى وصل أرض الجبل وهو يصرُخ مثل المجنون:

«فين الكَبير؛ الحكومة قتلت الضبع!!».

هرول تجاهه أحدهم يقوده إليه، ما أن وصل إلى الجَبيرة؛ قطع الحديث بين علي ومحمد بقوله:

ـ«الحكومة قتلت الحاج صلاح!».

صعقته الصدمة والشده وانتفض واقفًا، فيما أطرق محمد رأسه لأسفل، وأردف بصوتٍ مسموع:

ـ«اتحرك قطر الدم..»

انتفـض واقفًـا واندفـع إلى مـرسى المراكـب يتبعـه الكثـير مـن الرجـال، وعـلي كان لا يفارقـه بظهـره، يـكاد يلاصقـه، تحاملـت عليـه أفـكاره ومخاوفـه، سـمع جـرس هاتفـه؛ فاتخـذ موضعًـا مـن القـارب يتحـاشى أن يسـمعه أحـد، كان المتصـل هـو الألفـي:

ـ«عرفت اللي حصل؟»

بهمسٍ أجابه:

ـ«الحكايـة اتعقـدت عـلى الآخـر؛ الشرطـة قتلـت عـم النائـب، انـت مـش هتقـدر تتخيـل مهمـا وصفتلـك النـاس هنـا ممكـن تعمـل إيـه!!»

ـ«يا نهار أسود، وأنا اللي فاهم نفسي هخضك بكلامي!»

ـ«تخضني ليه؟»

ـ«جـالي تليفـون مـن حبايـك بيبـشروني أنـا وحضرتـك بالاعتقـال.. المهـم دلوقـتي تعـرف الـلي هيحصـل وتعرفـني عـلى طـول؛ كـدا كـدا محبوسـين».

ـ«يا ريتها تيجي على حبسنا، ربنا يستر!»

وصـل القـارب إلى الجمـع الضخـم الـذي فتـح طريقًـا للكَبـير وعـلي مـن خلفـه، وقعـت أعينهـم عـلى حسـان وهـو يبـكي بحـرارة! اقتربـوا منـه فتحـدث والدمـع يطمـس أغلـب حديثـه قائـلًا:

ــ«الحاج مات! ضربوه بالنار يا كَبير!»

كان الجثمـان قـد وضـع عـلى فـراشٍ بـالأرض، ومُغطـى بغطـاءٍ أبيـض غلبـه لـون الدمـاء، انخفـض عـلى رُكبتيـه، كشـف عنـه الغطـاء؛ انهمـرت دموعـه وهـو يـرى وجهـه الباسـم وأردف قائـلًا:

ــ«سـبقتني مرتـين يـا عمـي، مـرة في الخـير ومـرة للجنـة.. قـولي هحصلـك إمـتى؟»

صرخ بقوة:

ــ «آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه يـا عمـي؛ آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه يـا سـيدي عابـد؛ الامتحـان صعـب أوي!!!»

ربـط جأشـه بصعوبـة.. أمـا عـلي مـن خلفـه تحجـرت الدمـوع في عينيـه، كان يشـعُر بمـرارة في حلقـه وبألـمٍ كبـيرٍ في صـدره؛ يعجـز عـن التعبـير عنـه..

وصـل نعـشٌ خشـبيّ إلى موضعهـم؛ حمـل حسـان ومحمـد وعـلي الجثمـان ونقلـوه إلى النعـش..

كانـت المفارقـة الأغـرب شُـده عـلي لمـا رآهـا.. وصـل بالجثمـان معهـم إلى القـارب، ومـا أن تحـرك القـارب بـدأ التفكـير.. إن أثـر الرصاصـة عـلى جلبابـه تؤكـد أنهـا اخترقـت جسـده مـن الخلـف للأمام؛

ضيق الفتحة في الجلباب من الخلف واتساعها بقوة من الأمام، ومقدار الدم بالخلف مُقارنةً بالأمام يؤكد أن الرصاصة أصابته من ظهره؛ استدار إلى حسان وسأله:

ـ«الحاج صلاح، كان وشه فين ساعة الرصاصة ما صابته؟»

تفهم كلماته بصعوبة لكونها ممزوجة بالكثير من الدمع قائلًا:

ـ«كان واقف وشه للحكومة واحنا كُلنا في ضهره، قتلوه وهو واقف على رجله من غير ما يوطي راسه!»

***

٢٣

..الكّبير..

أُجهد من طيلة الوقوف ومُتابعة الساحة، نظر إلى جلبابه الذي اتسخ، كان يعلم أن الليل في الانتظار طويل.. تحرك إلى داخل المنزل خلفه، وصعد درجات السُلم إلى غرفته، لم يُدقق النظر إلى زوجته التي كانت تنتظره تحرقها نار الشوق واللهفة إليه؛ ألقى جُملته:

ـ «جلابية نضيفة على ما أطلع من الحمام».

أنهى جُملته ودلف إلى الحمام، اغتسل بالماء البارد يهدئ جسده المنتفض، إلا أن عقله لم يكُف عن التفكير، خرج من الحمام وارتدى جلبابه وحزامه وأراد أن يتحرك، ما أن ربط عمامته منعهُ من التحرك هذا الجسد الباض، قصير القامة، مُستدير الوجه ذات الشعر الأسود القصير، والأعيُن الواسعة يُزينها الكُحل الأسود ويحددها، والجبهة الصغيرة، والأنف الصغير المُدبب، والنهدين الفائرين، وهذا الخصر الدائري، والمؤخرة المُمتلئة قليلًا مثلها مثل الأقدام.. وضعت كفيها على صدره تمنعه الحركة، وهي ترفع جبهتها تنظر لعينيه، وبحنين أردفت:

ــ»قدرت تخاصمني كُل ده؟! هُنت عليك؟!».

أنزل يديها من على صدره وأردف بقوة:

ــ»قـدرت، زي مـا قـدرتي تقفـي تعارضيـني وهـان عليـكي كرامـتي تتهـان وتتسـاوى بـالأرض».

أومأت برأسها رفضًا وأردفت:

ــ «انـت ليـه مـش قـادر تفهمـني؛ أنـا لا عارضتـك ولا هـان علـيَّ كرامتـك؛ بالعكـس أنـا خايفـة عليـك مـن الـدم، وهمـي كُلـه إن ربنـا يبعـدك عنـه بـأي طريقـة».

انفجر غاضبًا في وجهها وهو يصرخ:

ــ»لا عُمـرك فهمـتي ولا عُمـرك هتفهمـي، انـتي فاهمـه إن الـلي هيحمينـا هـو البعـد عـن السـلاح؛ احنـا الـلي حامينـا ومخلينـا كُبـار هـو إننـا بنتحكـم في كُل طلقـة بتدخـل البلـد دي! فكـرك إن إحنـا لـو ضُعـاف ومنقـدرش نحمـي روحنـا، حـد ممكـن يحمينـا!! أول مـا تقـع البندقيـة مـن يـدي؛ هتنهـش لحمكـم الـكلاب وانتـوا عايشـين، انـتي وأخويـه الـلي اديتـوا الفرصـة للـكلاب تنهـش لحـم أمـي، وتخرجهـا مـن بيتهـا! لكـن أقولـك إيـه! لـو كان الـلي اتهـان وخـرج مـن بيتـه أبـوكي؛ كُنـتي حسـيتي بالنـار الـلي في قلـبي؛ لكـن أنـا أقولـك بقـى المهـم!»

اقترب منها وخفض جبهته وخفض صوته قائلًا:

ــ»لـو عمـي ولا أمـي ولا انـتي ولا أي حـد مـن البنداريـة كُلهـا تقتل أو حصلـه أي حاجـة؛ الدنيـا كُلهـا هتشـوف مـني الـلي عُمرهـا مـا شـافت ولا سـمعت عنـه في الصعيـد كُلـه«.

أنهـى حديثـه وتحـرك لبـاب غرفتـه، اجتـازه ولـم تكُـن زوجتـه قـد استفاقت مـن شـدهتها ممـا سـمعته منـه بعـد؛ هرعـت خلفـه تـصرخ:

ــ»صلاح!«

توقـف وظهـره للبـاب المفتـوح خلفـه، وصلـت زوجته للبـاب مهرولة وقبـل أن تـصرخ، سـمعت صوتًـا قطـع الحديـث في حلقهـا وأخرسـها تمامًـا.. تعالـت الأصـوات بالمـنزل:» الحكومـة قتلـت الضبـع«!!

اسـتدار برأسـه لهـا وصـب عليهـا نظراتـه تحرقهـا وهـو يُحملهـا ذنـب مقتـل أبيهـا، والغضـب يفيـض وجهـه بـه أردف:

ــ»خليكوا تشوفوا تمن دم البندارية!«

اندفـع للأسـفل وكان الصخـب يجتـاح السـاحة، اخـترق الجمـوع الـتي تتهـال عليـه بالسـؤال.. ((فـين الكَبـير؟ هنعمـل إيـه؟ الحكومـة لازم تتـأدب))! وصـل إلى مـنزل الضيافـة، ثـم اعتـلى النصـف مـتر وسـحب بندقيتـه، أفـرغ خزينـةً كاملـةً في الهـواء؛ صمـت الجميـع وعـم الوُجـوم السـاحة والجمـوع الغاضبـة، صرخ قائـلًا:

ــ»الـدم دم البنداريـة، والملـزوم بيـه البنداريـة، كَبـير البندارية الـلي يفـرط في دم بنـداري ميبقـاش كَبـير! وأنـا لا فرطـت ولا هفـرط في

دم بنداري واحد؛ لأني كَبير! وأخويه خلاص، رجع لمكانه في كنف الكَبير، واللي شايفله كَبير في البندارية وفي الصعيد غيري؛ يروح من دلوقتي يقعد جنب الحكومة تحميه. لا له عندي حماية، ولا سلاح، ولا أرض ولا حتى نسب!

وقبل ما أي حد فيكم يختار كَبيره، اللي معايا لازم يعرفوا إن مع أول نور لربنا النهاردة لا في حكومة ولا في مديرية أمن في قنا؛ هساويها بالأرض!»

أنهى حديثه وزخر بندقيته ورفع جبهته ينتظر الرد.

دائمًا ما كانت البندارية سبّاقة إلى دعم الرجُل الأقوى منهم وتقديمه؛ وكيف لا يقدمونه عليهم وهو الذي أطاح بشقيقه من أجل عاداتهم وتقاليدهم التي خالفها أخاه! تقدم البندارية واحدًا تلو الأخر في بيعة ((الكَبير))، وكذلك كبرى العائلات، وكأن الجميع كان ينتظر اللحظة التي سوف يطيح فيها الأسد بالذئب عن عرينه، إن كان شقيقه ذئبًا؛ فحان وقت الأسود............

***

٢٤

..قطار الدم..

صرخ قائلًا:

ـ «الحاج صلاح اتقتل من....»

استدار له ناظرًا واجتاحهم القلق تمامًا، ثم عاد برأسه ينظر إلى الحشد الضخم المُنتظر قرب المرسى، تبعه بعينيه ليكتشف ما الذي يُقلقه إلى هذا الحد؛ كانت الحُشود ضخمة، ويحملون جميعًا المشاعل والبنادق، وجوهٌ بدت قاسية للغاية، وكأن أمرًا جللًا ينتظر وصولهم..

انقطع الحديث من حنجرته، هبط محمد من القارب وقد صنعت الحشود له ممرًا طويلًا من بينهم، وتبعه علي وحسان ورجالٌ آخرون حملوا جميعًا الجثمان، فيما تقدمهم محمد، شدههم جميعًا رؤية صلاح في قلب الساحة وفي آخر الممر المصنوع بأجساد الحشود المسلحة الحاملة للبنادق وبزيها الحربيّ، ما أن وصلوا أمامه وهو يحمل بندقيته بيده اليُسرى؛ أشار لهم بالتوقف ورفع صوته وهو يُشير بسبابته لشقيقه قائلًا:

ـ «دم عمك اللي جايلي بيه جثة في رقبةّ مين؟!»

رفع صوته أكثر وأردف:

ـ «دم عمك ودم كُل بنداري في رقبة الكَّبير، والكَّبير اللي ميقدرش يحمي ناسه ميبقاش كَّبير؛ وانت مبقتش كَّبير؛ مكانك هنا!»

ألقى كلِماته واستدار وهو يُشير خلفه، وعاد بنظره له وعاد لحديثه:

ـ «ولو عايز تروح تعيش في كنف كَبير تاني مش همنعك ؛ لكن انت عارف ساعتها إيه اللي هيحصل!»

أومأ برأسه في إذعانٍ وأجابه بجُملة واحدة رفع فيها صوته بقوة، وكأنهُ يُسمع الجميع بها:

ـ «راجلك وفي كنفك وضهرك يا كَّبير».

ألقى جُملة تنازله عن مكانه بكُل ثقة ويُسر، تحرك بثبات ليحتل موقعه خلف شقيقه الأكبر، ومن أمسى كبير الجميع.. كانت على وجهه ابتسامة غريبة لا تتماشى مع الموقف وهوله تمامًا؛ وهي ما شدهت علي الذي ظل ثابتًا في مكانه دون حِراك؛ إلا أن ما سمعه بعد ذلك كان أكثر قوة وجعله أكثر ذهولًا؛ اقترب منه صلاح خطوات وأشار لهُ بسبابته، وتحدث بصوتٍ قوي مُرتفع، قائلًا:

ـ»انت جيت هنا عشان تفهم وتشوف؛ خليك هنا لحد ما تفهم وتشوف اللي عُمرك ما شفته ولا تخيلته في حياتك كُلها».

استدار وأعطاه ظهره، ثم وجه حديثه للجموع أمامه صارخًا:

ـ»يمين طلاق تلاتة؛ لأحارب الحكومة حرب استنزاف شرق وغرب، ولأحاربها لحد آخر راجل وست وعيل ونفس في كُل بنداري! ولو هلكت البندارية كُلها؛ ليقف صخر الجبل وطين الأرض وشجرها ونخلها يحاربهم!

مع أول نور لربنا، لأهد مديرية أمنهم على دماغهم، وما أخلي واحد منهم حيّ، وما أدفنك يا ضبع قبل ما أخد حقك!!»

أنهى يمينه ثم استدار يرمق ((علي)) بنظرةٍ كادت تحرقه، وأشار للجمع بأن ينفض..

تحركوا ليقف ويجلس كلٌ في مكانه، فيما بقي الطير الغريب شاردًا، لا يعلم أين وطنه ليحُط عليه ويلتقط أنفاسه.. دق على كتفه من الخلف برفق قائلًا:

ـ «تعالى يا ولدي».

استدار له وكان حسان، الذي قاده إلى المنطقة أمام منزل الضيافة، وأجلسه على أريكةٍ خشبية ورحل. جلس علي وحيدًا شريدًا، تجتاحته مشاعر عديدة لم يفهمها.. الخوف، القلق، الصدمة، الأمل.. فتح شنطته وأخرج اللاب توب الخاص به وقام بتشغيله وفتح الإيميل الخاص به، دوّن إيميل ((الألفي)) في خانة تعريف الرسالة، كتب مقال بعنوان شرد كثيرًا وهو يُفكر في اسمٍ

للمقال، ما عساه يكون الاسم الذي يمثل الحقيقة ولا شيء غيرها! ما عاد هناك مكانٌ للكذب والتضليل والخداع أكثر من ذلك، بعد مُضي وقتٍ كان كبيرًا؛ دون اسم المقال وكان:

((قطار الدم))، وكان متن المقال:

ـــ دائمًا ما كُنا نظن أننا نعلم كُل شيء، وعندما تنهار الأمور؛ يهرول كُلٌ منا إلى إلقاء الذنب على غيره. أما هنا في الصعيد لم أرَ بريئًا واحدًا غير هؤلاء الذين أفقدناهم إنسانيتهم بإهمالنا لهم، وإغلاق أعيُننا عنهم حتى اختلفنا عنهم واختلفوا عنا.

تمسك الجميع هنا بعاداته وتقاليده المُنغلقة، وأكد هذا التمسك والانغلاق عدم اقترابنا منهم ومن أوجاعهم زمنا طويلًا.. لم يكُن الصعيد يومًا يحتاج للتنمية أو المال وحده؛ هو يحتاج إلى وطنه وأهل وطنه تضرعه إليه، تحتوي صرخاته وآلامه وتُشاركه أفراحه.

وما نقف أمامه اليوم هو أكبر غضبة للجنوب، يُقال هنا في مدح وتأكيد احترام المرأة أن المرأة وإن خرجت عارية من منزلها حتى تعود إليه؛ لن تجرحها عين! وهذا الرُقي هو ما فقدناه في مُدننا! غضبتهم اليوم من أجل المرأة، التي قد توقف حربًا هنا، وقد تشتعل من أجلها حربٌ أكبر.

لقد حاول مَن هنا الاقتراب منا، ولم تكُن حربه ضد الانغلاق والعادات والتقاليد وحدها؛ إنما كانت ضد من يُريد إبعاد الصعيد أكثر وأكثر عنا، وبجهلٍ أوبغرضٍ التقم الفاسدون المحاولة النبيلة

وبدلوها لأبشع إهانة؛ حتى أُطلقت صافرة ((قطار الدم))، وهو القطار الذي إن تحرك لن يترُك شبرًا قبل أن تُلطخه دماؤنا ، ويهرس أسفل عجلاته وطننا، ويبدده إلى أشلاء..

والسؤال هو: هل قرر الجميع إطلاق صافرة التحرك لقطار الدم؟ هل قررنا أن نظل عُميانًا؟ والسؤال الأهم هو: هل فينا من لديه القدرة والقوة أن يُقف قطار الدم قبل أن يتحرك! أتيقن بأن هذا الشخص موجودٌ فينا، وأناشده أن يُسرع بضرع الصعيد إلى صدر وطنه!

أنهى مقاله ودون اسمه بالأسفل:

((على حسين التونسي)).

أغلق اللاب توب ، لينتزعه صوتٌ غليظٌ قائلًا:

ـ«قوم عشان تشوف بعينك اللي جيت عشانه».

كان الصوت لصلاح وقد تجهز تمامًا لمعركته كما تجهز الجميع هنا. بدأت خيوط الضوء الضعيفة تظهر، تحرك ببطء من أمام منزل الضيافة يقترب منه، وهو يهمس راجيًا الله:

ـ«اللهم إنك كريم، إن جاءك سائلٌ أعطيته، وانت أكرم الأكرمين؛ أسألك بكرمك أن توقف قطار الدم!»

وصل إليه، وما أن تحرك الجمع قطع تحرك الجيش المُتحفز للفتك بأي شُّرطي قدوم موكبٍ مُتأخرٍ للحاق بالمعركة. كان

الموكـب يضُـم أكـثر مـن عـشر سـيارات دفـع رُباعـي سـوداء، توقـف الموكـب ليقطـع تحـرك الجيـش، ومـا أن هبـط مـن أول سـيارة بالموكب المُتأخـر مـن فيهـا؛ شُـده الجميـع فجـأة وزاغـت الأبصـار بـين مُصـدق ومُكـذب! وعـم الوجـوم!

قاطع ((علي)) حالة الصمت بصرخته:

ـ«كريم يارب!»

تمت

***

أتوجه بالشكر لكل من ساهم في ظهور هذا العمل وهم:

«أبي ؛ فما كُنتُ لأكُن يوماً ما أنا عليه إلا لكونك أباً عظيماً ؛ بوجودك أكُن حاضراً ، أنا منك وأنت مني .. ولك أرق تحياتي وأمنياتي و دُعائي بدوام عافيتك وأن يهبك الله عمراً مديداً لأظل أتعلم منك» .

«أمي ، يكفي جنس النساء فخراً أن منهُ أمي ؛ طالما كانت تلك كلماتي لكل من يجحد في حق المرأة ؛ فإن كُنتُ ناجحاً مُتنوراً فما تهذبت ولا علمتُ للنجاح طريقاً إلا بمدرستك ؛ لكِ أرق تحياتي وأمنياتي ودُعائي بدوام عافيتك وأن يهبك الله عمراً مديداً فأنتي مشكاة النور لكُل طُرقاتي» .

«عمي سيد عصفور ، لكم كانت كلماتك مُضيئة في ظُلمة الطريق ولكم ألهمتني الصبر والجلد وأرشدتني إلى الطريق الصحيح ، نصائحك الدقيقة و نقد الهادف دوماً ما دفعاني للتطور أكثر ؛ فإن كُنتُ أنا المؤلف ، فأنت مخرج أعمالي ؛ لك مني أرق تحياتي وأمنياتي ودُعائي بدوام عافيتك وأن يهبك الله عمراً مديداً لأظل أتعلم منك « .

«اعلامية المستقبل .. أ / دعاء عصفور.. ما كنت لأجحد حقك علي بعد أكثر من خمس أعوام.. كنت فيهم أحد الاعمدة الرئيسية في ما وصلت ولسوف أصل إليه.. لك مني جزيل الشكر

والعرفـان والتقديـر.. ودعـواتي المخلصـة لـك بالتوفيـق دائمـاً « .

«الصديـق والاخ العزيـز والكاتـب المبـدع .. أ/ اسـلام عبـدالله ، دعمـك المطلـق والـذي لـم يتوقـف لدفعـي بإتجـاه النـشر كان السـبب الرئيـسي لظهـور أعمـالي في هـذا التوقيـت ، لـك مـني جزيـل الشـكر واطيـب الأمنيـات بـدوام النجـاح» .

«الصديـق العزيـز .. أ/ رمضـان فـاروق ، قـارئ الأول وصديقـي الـوفي والناقـد القـوي .. لطالمـا كانـت كلماتـك عاليـة المسـمع بـأذني ، فـلا أنـسى لـك كلماتـك .. أكتُـب ولا تجعـل أحـد يدفعـك للتوقـف ولـو بلـغ إنتاجـك ألـف روايـة ، يومـاً مـا سـوف تصـل ؛ لـك الشـكر والتقديـر مـني وأدام الله عـلي نعمـة صداقتـك الغاليـة»

«أخـي الروحـي .. م/ أحمـد عصفـور .. فلسـوف أعـترف هنـا بمـا لـم أخـبره لـك حـتى الآن ، في كُل مـرة كُنـت أنتظـر رأيـك عـن أحـد أعمـالي كُنـت أنتظـر وأناقشـك وأنـا في أقـصى حـالات التوتـر والقلـق ، لك حسـاً نقديا ًعـالي وفـني أيضـاً ؛ دومـاً أرائـك كانـت تُصيـب سـويداء القلـب ؛ لـك كُل التقديـر والشـكر عـلى دورك الرائـع معـي ؛ ودُعـائي بـدوام أخوتنـا» .

«الصديقـين الغاليـين عـلى قلـبي وروحـي .. محمـد مكـرم ، ولاء عبدالرحمـن ؛ وجودكـم ودعمكـم الدائـم كان دومـاً هـو الطاقـة الـتي تـسري في عقـلي ؛ أسـأل الله دوام صداقتكـم .. لكـم مـني جزيـل الشـكر والتقديـر» .

السيرة الذاتية

باسم زكي / كاتب مصري .. حاصل على درجة البكالوريوس من كلية الإعلام جامعة القاهرة ؛ عمل لفترات طويلة في مجال الدعاية والاعلان متدرجاً من منصب مساعد إنتاج حتى مديراً للإنتاج ثم مديراً للتنفيذ ثم مديراً للتسويق ؛ يكتب الروايات مُنذُ عام ٢٠١٠ .. ولهُ إنتاجاً أدبياً كبير ؛ الأعمال التي صدرت للكاتب هي :

- رواية ((الجَبِيرة)) .
- رواية ((كوما)) .

للكاتب العديد من الأعمال تحت النشر وهي :

- رواية ((أبواب جهنم)) .
- رواية ((صرخة شام)) .
- رواية ((الساحر والإمام / العهود السليمانية)) .
- رواية ((الساحر والإمام / مجلس العشرة)) .
- رواية ((الساحر والإمام / التيجان السبعة)) .
- رواية ((المرزبان)) .
- رواية ((جبريل)) .

الكنزي
ALKANZY